11:07

إيمان القيسي

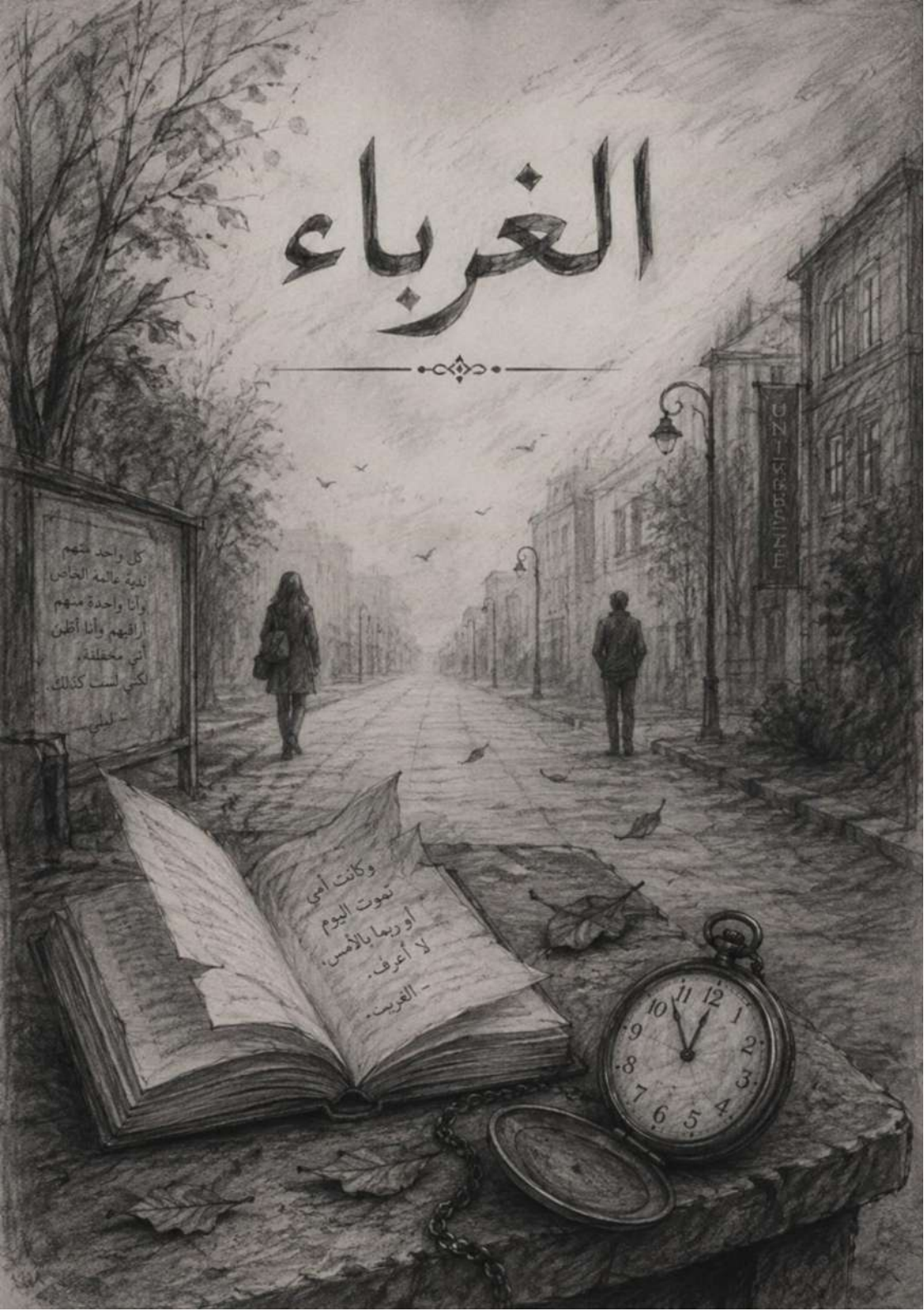
الغرباء
كل واحد منهم
لديه عالمه الخاص
وأنا واحدة منهم
أراقبهم وأنا أظن
أني مختلفة،
لكني لست كذلك.
- ليلى.
وكانت أمي
تموت اليوم
أو ربما بالأمس،
لا أعرف.
- الغريب.
UNIVERSE

الفصل الأول

في صباحات الحياة التي تبدو كغيرها، تختبئ اللحظات التي تعيد تشكيل مصائرنا، دون أن نلاحظها. كالماء الذي يغير مسار النهر ببطء، دون أن يحدث ضجيجاً.

استيقظت ليلى على صوت العصافير يخترق ستارة غرفتها الرقيقة، ذلك الصوت الذي اعتادته منذ ثلاث سنوات في هذه الشقة الصغيرة القريبة من الجامعة. كان الضوء يتسلل بين ثنايا القماش الأبيض، يلقي بظلاله المتمايلة على جدران الغرفة المليئة بالكتب المكدسة بشكل فوضوي: علم النفس على الرف العلوي، الفلسفة في المنتصف، والأدب على الأرض بجانب السرير حيث كانت تنام.

نهضت ببطء، ونظرت إلى المرآة المعلقة على باب خزانتها. وجهها الذي يبدو أصغر من عمرها الحادي والعشرين، عيناها الواسعتان بلون العسل تمنحانها نظرة ثاقبة، وشعرها الأسود المتموج ينسدل على كتفيها. كانت هناك، تنظر إليها امرأة لا تعرفها تماماً. امرأة تدرس الاقتصاد والمالية رغم شغفها الحقيقي بالنفس البشرية، امرأة تجلس في الصفوف الأولى وتلقي محاضرات ذكية، لكنها في داخلها تعيش حياة موازية لا يعرف عنها أحد.

"صباح الخير يا عالم"، همست لنفسها بسخرية خفيفة، ثم نهضت لتفتح النافذة.

انفتحت المدينة أمامها ككتاب مفتوح. كانت شوارع الدار البيضاء تتنفس الصباح برئتيها المثقلة بعادم السيارات ورائحة الخبز الطازج القادم من المخبز القريب. سمعت صوت البائع المتجول يصرخ "خبز! خبز!" وصوت سيدة تنادي من شرفة مجاورة على قطتها التي هربت في الليل. كانت المدينة، كما هي دائماً، خليطاً من الفوضى والدفء، من الأصوات المتنافرة التي تشكل معاً سيمفونية الحياة اليومية.

ارتدت ليلى بنطالها الجينز الأزرق وقميصها الأبيض البسيط، ثم أضافت وشاحاً حريرياً بلون النبيذي حول عنقها، وكأنها تضفي بعض الأناقة على يومها الدراسي. وضعت كتبها في حقيبتها الجلدية، وألقت نظرة أخيرة على الغرفة: الكتب متناثرة، والنوافذ مفتوحة على نصفين، والهواء النقي يدخل مع أشعة الشمس.

خرجت من الشقة وهي تغني بصمت أغنية فرنسية قديمة تذكرتها من فيلم شاهدته ليلة أمس. كانت تحب تلك الأغاني الحزينة التي تتحدث عن الحب الضائع والمدن الباردة، على الرغم من أنها لم تعرف الحب الحقيقي بعد، ولم تسافر إلى أوروبا قط.

في الشارع، كانت الحياة على قدم وساق. مشت ليلى بسرعة وسط الزحام، تلاحظ كل شيء بعينيها الثاقبتين: الرجل العجوز الجالس على كرسي أمام متجره الصغير، يعبس في وجه كل مارٍّ وكأنه يحكم عليهم واحداً واحداً؛ الأم الشابة التي تحاول تهدئة طفلها الباكي وهي تحمل حقيبة كبيرة على كتفها؛ الشاب الذي يرتدي بدلة أنيقة ويجري وكأنه يلاحق حلمًا لا يدركه.

كل هؤلاء الناس يعيشون حيواتهم، لكل واحد منهم عالمه الخاص، أحزانه الصغيرة، أفراحه التافهة، أسراره التي لا يعرفها أحد. وأنا واحدة منهم، أراقبهم وأنا أظن أنني مختلفة، لكني لست كذلك. كانت هذه الأفكار تجري في عقلها بينما كانت تتنقل بين المارة، تتفادى الأكتاف والحقائب المعلقة.

عند زاوية الشارع الرئيسي، توقفت لتشتري كوباً من القهوة العربية من البائع الصغير. كان الرجل يعرفها، فابتسم لها وهو يعد قهوتها بدون أن تطلب.

"صباح الخير يا ليلى. اليوم تبكرين أكثر من المعتاد."

"صباح النور، عم مصطفى. اليوم محاضرة مهمة، أريد أن آخذ مقعداً جيداً."

"أنت دائماً في المقاعد الأولى. الفتيات في سنك يفكرن في أشياء أخرى، لكنك مختلفة."

ضحكت ليلى ضحكة خفيفة: "ربما أنا مختلفة، أو ربما أنا فقط أدعي ذلك." أخذت كوبها ودفعت ثمنه، ثم تابعت طريقها إلى الجامعة، تاركة الرجل يحك رأسه متسائلاً عن معنى كلماتها.

دخلت الحرم الجامعي الكبير، ذلك المكان الذي كانت تقضي فيه معظم ساعات يومها. كانت الأشجار القديمة تصطف على جانبي الطريق المؤدي إلى المباني الأكاديمية، أوراقها الخضراء الداكنة تحدث حفيفاً جميلاً مع هبوب الرياح الخفيفة. كان الطلاب يتجمعون في مجموعات، يضحكون، يتحدثون، يتشاجرون على مواضيع تافهة، وكأن حياتهم كلها تدور في هذا الفضاء الضيق.

جلست ليلى على مقعد حجري قريب من النافورة المركزية، وأخرجت كتاباً صغيراً من حقيبتها - ليس كتاباً دراسياً، بل رواية لألبير كامو، "الغريب". كانت تقرأه للمرة الثالثة، لكنها كل مرة تجد فيه شيئاً جديداً، شيئاً يتعلق بحالتها النفسية التي كانت تتغير باستمرار.

"كانت أمي تموت اليوم. أو ربما بالأمس، لا أعرف."

قرأت الجملة الأولى بصوت خافت، ثم أغمضت عينيها للحظة، محاولة استيعاب برودة ميرسو وعدم اكتراثه. هل هي كذلك؟ هل هي باردة إلى هذا الحد؟ كانت تتذكر جنازة جدتها قبل عامين، وكيف أن جميع أفراد العائلة كانوا يبكون بينما هي جلست بصمت، تشعر بفراغ غريب في داخلها، وكأنها تنظر إلى المشهد من خلف زجاج سميك.

هل أنا ميرسو؟ لا، أنا لست كذلك. لكني لست كغيري أيضاً. أنا في مكان ما بينهما، ضائعة بين هويات متعددة.

"ليلى! أخيراً وجدتك!"

رفعت رأسها ببطء، فرأت سارة، صديقتها المفضلة في الجامعة، تركض نحوها بلهفة. سارة كانت النقيض التام لها: منفتحة، اجتماعية، سهلة الانفعال، تعيش حياتها بلا تعقيدات. كانت ترتدي فستاناً زهرياً قصيراً، وشعرها الأشقر المصبوغ يلمع في ضوء الصباح.

"أين كنت؟ أنتظرك في المدرج منذ عشر دقائق!"

"كنت أقرأ قليلاً هنا، في الهواء الطلق. الصباح جميل جداً لتفوته داخل قاعة مظلمة."

"دائماً الفلسفة معك. تعالي بسرعة، الدكتور عمر سيبدأ محاضرته عن نظرية الألعاب، قال إنه سيقدم أمثلة جديدة."

وقفت ليلى ببطء، وأغلقت كتابها وأعادته إلى حقيبتها. كانت تعرف أن محاضرة الدكتور عمر كانت مهمة، لكنها كانت أيضاً تشعر برغبة في الهروب من كل هذا – من الجلوس في قاعة مكتظة، من الأرقام والمعادلات، من المستقبل المرسوم لها والذي لم تكن متأكدة من أنها تريده.

في المدرج الكبير، كان الطلاب يتزاحمون على المقاعد. وجدت ليلى وسارة مقعدين في الصف الثالث - مكان مثالي لترى كل شيء، وتلاحظ الجميع. جلست ليلى على كرسيها، وأخرجت دفتر ملاحظاتها، لكن عينيها كانت تتجول في المكان، تراقب، تحلل، تضع النظريات عن كل شخص في القاعة.

الطالب الذي في الصف الأمامي يرتدي قميصاً مكويًا بشكل مثالي، يكتب كل كلمة يقولها الدكتور، لكنه لا يرفع رأسه أبداً. ربما يعاني من خوف اجتماعي، أو ربما متعصب للتفوق لدرجة المرض. الفتاة التي تجلس بجواره، تلك التي تنظر من النافذة باستمرار، لديها عيون حزينة، ملامحها تقول إنها لم تنم جيداً الليلة. مشكلة عائلية؟ فشل عاطفي؟ أم مجرد أرق أكاديمي؟

سارة نقرت على كتفها: "أراك تحللين الناس كما لو كنت عالمة نفس. توقفي عن ذلك، ركزي."

ابتسمت ليلى ابتسامة خفيفة: "لا يمكنني التوقف. إنها عادة سيئة."

"عادة مثيرة للاهتمام،" قالت سارة وضحكت، "لكن الدكتور بدأ. انتبهي."

بدأ الدكتور عمر محاضرته بصوته العميق المعتاد. كان يتحدث عن نظرية الألعاب وتطبيقاتها في الاقتصاد، لكن ليلى كانت تستمع بنصف عقلها فقط. النصف الآخر كان يتجول بحرية، يلاحظ، يتأمل، يسائل.

لماذا ندرس الاقتصاد؟ لنتعلم كيف نقرر، كيف نختار، كيف نحدد مصائرنا بناءً على حسابات باردة. لكن الحياة ليست حسابات، الحياة فوضى، عواطف، تناقضات. ربما نحن فقط نختبئ خلف الأرقام لنتجنب مواجهة الفوضى الحقيقية.

فجأة، وبلا سبب واضح، وقفت ليلى من مقعدها في منتصف المحاضرة. التفتت إليها سارة بعينين مذهولتين، ونظر إليها بعض الطلاب الآخرين بفضول.

"آسفة،" قالت ليلى بصوت هادئ، "أحتاج إلى القليل من الهواء."

خرجت من المدرج دون أن تنتظر رد الدكتور عمر، الذي توقف للحظة ثم تابع حديثه وكأن شيئاً لم يحدث. في الخارج، تنفست الصعداء. كان الهواء النقي يدخل إلى رئتيها، وتحت أشعة الشمس شعرت بتحسن فوري.

لماذا فعلت ذلك؟ لا أعرف. ربما لأنني شعرت فجأة بأنني محاصرة، بأن الجدران تضيق بي، بأن هذا المكان ليس مكاني. أين مكاني إذاً؟ هل أعرفه؟

مشت ببطء في ممرات الجامعة، مروراً بالمكتبة التي كانت فارغة تقريباً في هذا الوقت من اليوم. توقفت أمام نافذتها الكبيرة، ونظرت من خلال الزجاج إلى الغبار الذي يطفو في الهواء الداخلي، إلى أرفف الكتب المصفوفة بأناقة، إلى الكراسي المريحة التي يدس فيها الطلاب أنفسهم للهروب من العالم.

دخلت المكتبة بدون تردد، وكأن قدميها قررتا ذلك قبل عقلها. كانت تحب رائحة الكتب القديمة، ذلك العطر الخشبي الورقي الذي يملأ المكان. تجولت بين الأرفف، تلمس ظهور الكتب بأصابعها كأنها تتحسس نبضاتها.

وجدت نفسها أخيراً في قسم الفلسفة، حيث أخذت كتاباً عن الوجودية وجلست على أحد الكراسي القريبة من النافذة. فتحت الكتاب على صفحة عشوائية وبدأت تقرأ:

"الوجود يسبق الجوهر. الإنسان ليس له ماهية محددة سلفاً، بل هو يصنع نفسه من خلال أفعاله واختياراته."

"حقاً؟" همست لنفسها، "فلماذا إذن أشعر أنني لم أصنع شيئاً بعد؟ لماذا أشعر أنني مجرد مجموعة من الأقنعة التي أرتديها حسب الموقف؟"

أغلقت الكتاب ووضعته جانباً، مدت رجليها ونظرت إلى السقف. كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً. كان لديها محاضرة أخرى في الثانية ظهراً، لكنها لم تكن ترغب في العودة إلى هناك. كان بإمكانها البقاء هنا، في هذا المعبد الهادئ، حتى نهاية اليوم.

لكن القدر كان له رأي آخر.

بينما كانت تجلس في صمت، سمعت خطوات خفيفة تقترب. نظرت نحو الباب، فرأت شاباً يدخل المكتبة بخطوات واثقة وهادئة في نفس الوقت. كان طويلاً، بشعر بني فاتح ينسدل قليلاً على جبينه، وعينان رماديتان كانتا تبحثان في الأرفف كأنهما تبحثان عن كنز مفقود.

كان يرتدي جينزاً أزرق داكنًا وقميصاً رمادياً بسيطاً، وكان يحمل حقيبة جلدية صغيرة على كتفه. كان هناك شيء في حركاته البطيئة، في طريقة تفحصه للكتب، تشير إلى شخص يعرف كيف يلاحظ التفاصيل.

حدقت ليلى فيه لوهلة، ثم عادت إلى نظرتها إلى السقف، لكن عينيها كانتا تتبعانه سراً. كان الشاب قد توجه إلى قسم الفيزياء والفلك، حيث أخذ كتاباً قديماً عن الميكانيكا السماوية وجلس على الطاولة المقابلة لها، على بعد أمتار قليلة.

استمرت القراءة الصامتة بينهما لعدة دقائق. كانت ليلى تتظاهر بالقراءة، لكنها كانت تراقبه عبر زوايا عينيها. كان يقرأ بتركيز شديد، يدير أحياناً الصفحات ببطء، ويعيد قراءة

بعض المقاطع مرتين. لاحظت أن يديه كانتا جميلتين، أصابع طويلة ونحيلة، تتحركان بأناقة فوق الورق.

من أنت؟ لم أرك هنا من قبل. طالب جديد؟ أم أنك من كلية أخرى؟

وقف الشاب فجأة، واتجه نحو رف الكتب القريب منها. تظاهرت ليلى بأنها منغمسة في قراءتها، لكنها كانت تشعر بوجوده يقترب. توقف على بعد خطوتين منها، مد يده ليأخذ كتاباً عن علم النفس الفسيولوجي من الرف العلوي.

"ذلك الكتاب مثير للاهتمام،" قالت ليلى فجأة، دون أن تنظر إليه، وكأن الكلمات خرجت من فمها دون إذنها.

توقف الشاب، التفت إليها ببطء، ونظر إليها بعينيه الرماديتين اللتين كانتا تبدوان فضوليتين.

"أتقصدين هذا؟" سأل وهو يشير إلى الكتاب الذي في يده.

"نعم. علم النفس الفسيولوجي. الجسد والعقل، كيف يتفاعلان. قرأته العام الماضي."

ابتسم ابتسامة خفيفة: "أنا أبحث عن شيء عن العلاقة بين الإيقاعات البيولوجية والنشاط العقلي. هل يتناول هذا الكتاب ذلك؟"

"بعض الفصول،" قالت ليلى وهي تنظر إليه أخيراً مباشرة، "الفصل الرابع يتحدث عن الساعة البيولوجية وتأثيرها على المزاج والإدراك. لكنه كتاب قديم، ربما هناك مراجع أحدث."

"شكراً لك." توقف لحظة، وكأنه يتردد في شيء ما، ثم أضاف: "أنا آدم. آدم حيدر. أنا جديد هنا، في السنة الثانية، لكنني انتقلت من كلية العلوم"

"ليلى. ليلى عطية. السنة الثالثة، اقتصاد ومالية."

"اقتصاد؟ وأنت تقرئين كتب علم النفس؟ هذا مثير للاهتمام."

"الحياة كلها مزيج من التخصصات،" قالت ليلى، وشعرت فجأة بأنها تتحدث أكثر مما تعتاد مع الغرباء، "لا أظن أننا نستطيع فهم الاقتصاد حقاً دون فهم النفس البشرية."

نظر إليها آدم لوهلة، وكأنه يقيمها، ثم قال: "ربما أنت على حق. في كلية العلوم كانوا يقولون إن الفيزياء هي أساس كل شيء، لكنني أعتقد أن النفس البشرية أكثر تعقيداً من أي معادلة فيزيائية."

"أكثر تعقيداً وأقل قابلية للتنبؤ."

ابتسم آدم ابتسامة أكبر قليلاً هذه المرة: "بالضبط. شكراً لك على المساعدة، ليلى."

"عفواً، آدم."

ثم عاد إلى طاولته، جالساً وكتابه الجديد في يده، وفتحه ليبدأ بالقراءة. استمرت ليلى في النظر إليه للحظة، ثم عادت إلى كتابها الذي كانت تظاهر بقراءته، لكن عقلها كان مشغولاً بشيء آخر.

آدم. اسم بسيط، لكنه يحمل شيئاً ما. أول إنسان، كما في القصص الدينية. بداية جديدة. هل أنت بداية جديدة يا آدم؟

شعرت بقشعريرة خفيفة تسري في جسدها، وهزت رأسها لتتخلص من تلك الأفكار. ما هذا التفكير التافه؟ لقد تبادلت معه بضع كلمات عن كتاب، لا أكثر. لماذا إذن يشعر هذا اللقاء بالغموض والأهمية؟

نهضت فجأة، وأعادت الكتاب إلى مكانه، وخرجت من المكتبة دون أن تنظر إليه مرة أخرى. لكنها شعرت بعينيه تتبعانها حتى اختفت خلف الباب.

في الخارج، كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، وأصبح الحرم الجامعي أكثر ازدحاماً. وقفت ليلى في منتصف الساحة، تدور ببطء، تنظر إلى كل شيء وكأنها تراه للمرة الأولى. كانت تشعر بشيء غريب – شيء بين الحماس والارتباك، بين الرغبة في الهروب والرغبة في البقاء.

"ليلى! ليلى!"

سمعت صوت سارة يصلها من بعيد، فرأت صديقتها تركض نحوها مع طالبين آخرين، رامي ورشا، زملاؤها في الدفعة.

"أين اختفيت؟ بعد أن غادرت المحاضرة، لم أرك طوال الوقت! ذهبت للبحث عنك في الكافتيريا، في المختبر، في كل مكان!"

"كنت في المكتبة، أقرأ قليلاً."

"في المكتبة؟ في منتصف اليوم الدراسي؟ أنت غريبة حقاً." ضحكت سارة، ثم أشارت نحو الكافتيريا: "تعالي، سنتناول الغداء معاً. رامي يدعو الجميع."

نظرت ليلى إلى ساعتها. كانت الثانية عشرة والنصف. كان لديها وقت قبل محاضرتها القادمة، لكنها لم تكن تشعر بالجوع، ولا برغبة في الجلوس مع المجموعة والاستماع إلى أحاديثهم التافهة عن الامتحانات والأساتذة.

"لست جائعة، سارة. سأتمشى قليلاً في الحديقة."

"أنت دائماً تتهربين! تعالي معنا هذه المرة، أرجوك."

"ربما لاحقاً."

وهربت من أمامهم بسرعة، متجهة نحو الحديقة الخلفية للجامعة. كانت تلك الحديقة مكانها المفضل في الأوقات التي تحتاج فيها إلى العزلة. كانت بعيدة عن صخب الطلاب،

مليئة بالأشجار الكبيرة والمقاعد الحجرية القديمة، وكان هناك نافورة صغيرة في المنتصف تصدر خريراً مهدئاً.

جلست على أحد المقاعد تحت ظل شجرة تين كبيرة، وأغمضت عينيها. كانت تحاول أن تفهم ما حدث لها اليوم. لا شيء مميز حقاً: استيقظت، ذهبت إلى الجامعة، هربت من محاضرة، قابلت شاباً في المكتبة. مجرد يوم عادي.

لكن لماذا أشعر بأن اليوم مختلف؟ لماذا أشعر بأن حدوداً قد تحركت قليلاً، أو أن جداراً قد تشقق؟

فتحت حقيبتها وأخرجت دفتر ملاحظاتها الصغير، ذلك الذي كانت تكتب فيه أفكارها وأسئلتها الوجودية. فتحته على صفحة فارغة وكتبت:

"اليوم الذي بدا عادياً."

التقيت بشخص اسمه آدم. لم يحدث شيء مهم. لكن شيئاً ما تغير. لا أعرف ما هو. ربما مجرد وهم، ربما لأن الصباح كان مشمساً، أو لأنني لم أنم جيداً. لكنني أشعر بأن هذا اليوم سيكون محطة في حياتي. لماذا؟ لا أعرف.

هل نحن نصنع مصائرنا، أم أن المصائر تصنعنا في الخفاء، وكل ما علينا فعله هو أن نلاحظ العلامات؟

أغلقت الدفتر وأعادته إلى حقيبتها. نهضت، وبدأت تمشي بين الأشجار، تلمس أوراقها بأصابعها، تشعر بقساوتها ونعومتها في آن واحد. كانت تفكر في عائلتها المبعثرة، كما هي مبعثرة. الكل يسير في اتجاهات مختلفة، يحاول أن يجد طريقه، لكنه يضيع أكثر.

توقفت فجأة عندما سمعت صوتاً غريباً قادماً من خلف الشجيرات الكثيفة. كان صوتاً معدنياً خفيفاً، كصوت الساعات القديمة عندما تدق. اقتربت بحذر، ودفعت الأغصان جانباً، فرأت منظراً أدهشها.

كان آدم جالساً على مقعد حجري تحت شجرة أخرى، يمسك في يده ساعة يد قديمة، ويحاول إصلاحها بأدوات صغيرة منتشرة أمامه على الأرض. كان مركزاً جداً في عمله، لم يلحظ وجودها.

شاهدته ليلى للحظة، وكأنها تشاهد لوحة فنية تتجسد أمامها. كان الضوء يتسلل من بين الأوراق ويسقط على وجهه، وفي يده تلك الساعة القديمة التي تبدو وكأنها تحمل تاريخاً طويلاً.

يصلح الساعات؟ يا للروعة. من يفعل ذلك في زمن الساعات الرقمية والهواتف الذكية؟

كانت على وشك الانسحاب بصمت، لكن قدمها داست على غصن جاف، فأحدثت صوتاً واضحاً. رفع آدم رأسه، ونظر إليها بدهشة، ثم ابتسم.

"ليلى؟ أنت هنا؟"

"آسفة، لم أقصد أن أزعجك. كنت أتمشى ورأيتك... رأيت ما تفعله."

نظر إلى الساعة في يده، ثم إليها: "أصلح الساعات القديمة. هواية غريبة، أعرف."

"ليست غريبة على الإطلاق. إنها جميلة." ترددت للحظة، ثم اقتربت أكثر: "هل يمكنني الجلوس معك؟"

تفاجأ آدم بطلبها، لكنه أشار إلى المقعد بجانبه: "بالطبع."

جلست ليلى إلى جانبه، تنظر إلى يديه وهما تتحركان برقة فوق التروس الصغيرة، يضعان القطع في أماكنها بدقة متناهية. كانت رائحة المعدن القديم والزيت تملأ الهواء من حولهما.

"كيف تعلمت هذا؟" سألت.

"جدي كان صانع ساعات. كنت أجلس معه في ورشته وأنا طفل، أشاهده يعمل لساعات. عندما توفي، ورثت بعض أدواته وساعاته القديمة. بدأت أتعلم الإصلاح بنفسي، كطريقة لتذكره."

"هذا مؤثر جداً."

ضحك آدم ضحكة خفيفة محرجة: "ليس بقدر ما يبدو. إنه فقط شيء يهدئ أعصابي. عندما أصلح ساعة، أشعر بأنني أصلح شيئاً ما في داخلي أيضاً. النظام، الدقة، الإيقاع. كل شيء في مكانه."

نظرت ليلى إلى وجهه، لاحظت التجاعيد الصغيرة حول عينيه عندما يبتسم، تركيزه الشديد في عمله، أصابعه التي تتحرك كالساحر الصغير.

"هل تعرف،" قالت ببطء، "أن الساعات تخبرنا بالوقت، لكنها أيضاً تخبرنا بمرور الوقت. كل حركة لعقاربها هي تذكير بأننا نفقد لحظة كل ثانية."

رفع آدم رأسه ونظر إليها: "هذه نظرة فلسفية عميقة لساعة مكسورة."

"أنا أميل إلى الفلسفة أكثر من الاقتصاد."

"وأنا أميل إلى الدقة أكثر من النظرية."

ضحكا معاً، تلك الضحكة الخفيفة التي تأتي عندما يجد شخصان شيئاً مشتركاً في عدم تشابههما.

"هل تريدين أن تعرفي شيئاً مضحكاً؟" قال آدم وهو يعيد التركيز على الساعة: "هذه الساعة التي أحاول إصلاحها الآن، مكتوب عليها 'صنع في سويسرا، 1957'. عمرها أكبر مني ومنك مجتمعين."

"وهل ستنجح في إصلاحها؟"

"نعم. أنا دائماً أنجح في النهاية. فقط يحتاج الأمر إلى صبر."

صبر. ربما هذا ما أحتاج إليه أيضاً. صبر لأعرف من أنا، صبر لأجد طريقي، صبر لانتظار اللحظة التي يصبح فيها كل شيء واضحاً.

صمتت ليلى للحظة، تستمع إلى صوت العصافير في الأعلى، إلى خرير النافورة البعيدة، إلى أنفاسهما المتزامنة تقريباً.

"آدم، لماذا تدرس الفيزياء؟"

رفع عينيه من الساعة إليها: "لأنني أحب فهم كيف يعمل العالم. الجاذبية، الضوء، الزمن... كلها ألغاز جميلة."

"أي لغز تفضل؟"

"الزمن، بلا شك. إنه الأكثر تعقيداً. لا يمكننا رؤيته، لكننا نعيش فيه. إنه النسيج الذي يحيط بنا، لكننا لا نستطيع لمسه."

"مثل الروح."

نظر إليها طويلاً هذه المرة: "نعم، مثل الروح."

في تلك اللحظة، دقت ساعة الجامعة معلنة الثانية ظهراً. وقفت ليلى فجأة، كأن الصوت أيقظها من حلم.

"يجب أن أذهب. لدي محاضرة."

"أنا أيضاً."

وقفا معاً، وجمع آدم أدواته في حقيبته، وحمل الساعة القديمة بحذر. وقفا وجهاً لوجه للحظة، لا يعرفان ماذا يقولان.

"كان يوماً ممتعاً،" قال آدم أخيراً، "بالنسبة ليوم بدا عادياً."

"نعم،" قالت ليلى، وشعرت بابتسامة غير إرادية ترتسم على وجهها: "ربما الأيام العادية هي الأكثر غموضاً."

"أراك في المكتبة مرة أخرى؟"

"ربما."

ثم انفصلا، كل في اتجاهه، لكن كليهما شعر بشيء غريب: شعور بأن هذا اللقاء العابر كان أكثر من مجرد صدفة، وأن اليوم الذي بدا عادياً قد يكون بداية لشيء لا يمكن التنبؤ به.

عادت ليلى إلى المدرج متأخرة عن المحاضرة، لكنها لم تهتم. جلست في المقعد الخلفي، تنظر من النافذة، ولا ترى شيئاً مما يقوله الأستاذ. كانت ترى الساعة القديمة في يد آدم، ترى ضوء الشمس على وجهه، ترى أصابعه النحيلة تتحرك بأناقة.

من أنت حقاً يا آدم؟ ولماذا تشعرني بأنني على حافة شيء ما؟

أخرجت دفتر ملاحظاتها، وكتبت بسرعة:

"الساعات التي نصلحها، والوقت الذي نضيعه، والأسئلة التي لا نجد إجاباتها. كلها خيوط في نسيج واحد."

ثم أضافت سطراً آخر، وكأنها تخاطب نفسها:

"ربما كنت مخطئة طوال الوقت. ربما ليس المهم أن تعرف من أنت، بل أن تكتشف من يمكنك أن تصبح."

أغلقت الدفتر ونظرت إلى السماء من خلال النافذة. كانت الغيوم البيضاء تتحرك ببطء، كأنها تحمل أسراراً لا تريد الكشف عنها. في داخلها، كان هناك سؤال ينمو، سؤال خافت لكنه عنيد:

هل اللقاء مع آدم كان صدفة؟ أم أنني كنت أنتظره دون أن أعرف؟

لم تجد إجابة. ولكنها شعرت فجأة بأن رحلتها الحقيقية لم تبدأ بعد. وأن كل ما حدث قبل هذا اليوم كان مجرد مقدمة، مجرد بروفة لحياة لم تعشها بعد.

وقفت وخرجت من المدرج مرة أخرى، هذه المرة بدون تردد. سارت في ممرات الجامعة الخالية، تاركة وراءها الأصوات والأضواء، متجهة إلى المجهول.

كانت تعرف أنها ستعود غداً إلى نفس المقعد، إلى نفس الكتب، إلى نفس الروتين. لكن شيئاً ما تغير اليوم، شيء لا يمكن التراجع عنه.

في صباحات الحياة التي تبدو كغيرها، تختبئ اللحظات التي تعيد تشكيل مصائرنا.

هزت رأسها وكأنها تودع فكرة مزعجة، لكن الابتسامة لم تفارق وجهها. كانت مستعدة، دون أن تعرف تماماً لما، لمواجهة الغد.

الفصل الثاني

"ليس الغريب أن نلتقي بوجهٍ ما في زحام المدينة، بل الغريب أن نلتقي بالنسخة التي كنا عليها حين رأيناه آخر مرة."

نهضت ليلى قبل المنبه بثلاث دقائق، كما تفعل كل صباح منذ أن تذكرت. ليس عن قصد، بل لأن جسدها صار يحفظ إيقاع المدينة قبل أن تعلنه الساعة. جلست على حافة السرير، تنظر إلى النافذة التي يطل منها ضوء رمادي بارد، وتسمع همهمة الشارع الأولى: عربة الخباز التي تصر عجلاتها، نباح كلب من الطابق السفلي، صوت أم تنادي ابنها من شرفة بعيدة.

ارتدت الجينز الأزرق الفاتح الذي يليق بصباحات الثلاثاء، وقميصاً أبيض فضفاضاً، وربطت شعرها الأسود المجعد بذيل حصان غير مبالٍ. نظرت إلى المرآة للحظة، ثم ابتعدت. لم تكن تكره وجهها، لكنها كانت تكره الشعور بأنها مضطرة لتقديمه لكل من تقابلهم.

خرجت من الشقة التي تشاركها مع زميلة نائمة بعمق، وأغلقت الباب بهدوء، ونزلت الدرج الحجري القديم الذي يتآكل من منتصفه، كما لو أن آلاف الأقدام نحتت أخدوداً في صمّانه. في الطابق الأرضي، توقفت أمام صندوق البريد المعدني الصدئ. لم يكن هناك شيء. لم يكن هناك شيء منذ شهرين. تأملت الصندوق للحظة، وتذكرت أنها كانت تنتظر رسالة من والدها منذ اثني عشر عاماً. لم تأتِ قط.

المدينة في الثامنة صباحاً تشبه غرفة انتظار مزدحمة: كل ينتظر شيئاً لا يأتي. سارت ليلى في الرصيف الضيق بين سيارات التاكسي الصفراء وحافلات النقل الصغيرة التي تتوقف فجأة وكأنها تلهث. كانت تحمل حقيبة قماشية بنية اللون، فيها دفتر ملاحظات أسود، وقارورة ماء زجاجية، وكتابٌ قديم تقرأه للمرة الثالثة: رواية عن امرأة تعيش وحدها في منارة.

على زاوية شارع ما، توقفت للحظة أمام مكتبة "ألف"، التي كانت لا تزال مغلقة، لكنها رأت عبر واجهتها الزجاجية ظل الرجل العجوز صاحبها وهو يرتب أكواماً من الكتب على طاولة خشبية طويلة. أدارت رأسها ومضت.

في الجامعة، كان المبنى الرئيسي يبدو ككتلة إسمنتية رمادية تبتلع الطلاب وتعيدهم بعد ساعات أكثر تعباً. دخلت ليلى من الباب الجانبي، كما كانت تفعل دائماً، لتتجنب الزحام في البوابة الرئيسية. ممرات الطابق الأرضي كانت فارغة نسبياً، باستثناء عامل النظافة الذي كان يمسح الأرضية بقماشة مبللة، ورائحة المبيض تختلط برائحة الورق القديم القادمة من المطبعة الصغيرة في نهاية الردهة.

صعدت الدرج إلى الطابق الثالث، حيث قاعة المحاضرات (ج). جلست في المقعد الثالث من اليمين، في الصف الخامس، مكانها الثابت الذي لا تجلس فيه أي طالبة أخرى لأنهن يعرفن أنها تفضله. أخرجت دفترها الأسود، وقلّمت قلمها الأزرق، وانتظرت.

كانت المحاضرة الأولى عن "سيكولوجية الذاكرة الانتقائية"، والدكتور يوسف رجل في الخمسين، يلبس نظارة سميكة ويحرك يديه وكأنه يقود أوركسترا أثناء حديثه. ليلى كانت تدون بسرعة، لكن عينيها كانتا تتنقلان بين الطلاب. هناك، في الصف الأمامي، كانت مروة، الفتاة التي تبكي كلما حصلت على تقدير أقل من (أ)، تجلس الآن وظهرها مستقيم، ترسم دائرة غريبة على دفترها بدلاً من أن تكتب. وفي الزاوية البعيدة، كان شاب نحيف اسمه سامر، ينام وعيناه مفتوحتان تقريباً، وهي مهارة لاحظتها ليلى في أسبوعه الأول ولم تستطع تفسيرها.

بعد المحاضرة، خرجت ليلى إلى الفناء الداخلي للجامعة، حيث شجرة التين الضخمة التي تظلل مقاعد حجرية دائرية. جلست على أحدها، وأخرجت ساندويتش الجبن الذي أحضرته من المنزل، ولكن بدلاً من أن تأكل، أخذت تراقب.

طلاب يتجمعون في مجموعات، بعضهم يضحك بصوت مرتفع، وآخرون ينظرون إلى هواتفهم وكأنهم ينتظرون رسالة تغير حياتهم. كل حركة، كل نظرة، كانت ليلى تترجمها إلى معانٍ خفية: ذاك الشاب الذي يعدل شعره كل ثلاث دقائق يعاني من قلق اجتماعي؛ تلك

الفتاة التي تضحك كثيراً تخفي شيئاً محزناً؛ والأستاذ الشاب الذي يمشي بسرعة وكأنه يهرب من شيء ما، ربما كان يهرب من نفسه.

في تلك اللحظة، رأت شخصاً يجلس على مقعد بعيد تحت شجرة أخرى، رجلاً في العشرينات، يرتدي سترة جلدية سوداء ويقرأ كتاباً ورقياً (أمر نادر هذه الأيام). كان وجهه مألوفاً، لكنها لم تضع إصبعها عليه. ثم تذكرت: إنه آدم، الذي التقت به قبل أسبوعين في المكتبة.

نظرت إليه للحظة، لكنه لم يرفع رأسه من الكتاب. كان هناك شيء في طريقة جلوسه، في ميل رأسه إلى اليسار قليلاً، يشير إلى أنه يقرأ بتركيز عميق، أو ربما يتظاهر بذلك ليبقي الناس بعيدين. لم تقترب منه. لم تكن تعرف لماذا، لكنها شعرت أن الاقتراب الآن سيكون خطأً. لاحظت أن الكتاب الذي يقرأه يحمل عنواناً عن الفيزياء الكمومية، ولكن في زاوية صفحته الأولى، رأت شيئاً غريباً: ورقة صفراء، كأنها مقتطف من ملف قديم، تتدلى من بين الصفحات. أدارت رأسها بسرعة عندما شعرت بأنه قد يلتفت إليها.

جاءت إليها فجأة فتاة طويلة بشعر أحمر مصبوغ، تحمل كوباً من القهوة وتضع نظارات شمسية داكنة رغم أن الجو غائم. جلست بجانبها دون استئذان، وقالت:

"أنت ليلى، صحيح؟ أنا سوسن. أدرس في قسم الفلسفة. رأيتك في المكتبة الأسبوع الماضي، كنت تقرأين كتاب هيدغر."

رفعت ليلى حاجبها: "نعم؟"

"في الحقيقة، كنت أظن أنه ممنوع على طلاب علم النفس أن يقرأوا فلسفة. كأنكم تخونون تخصصكم، ألا تظنين؟"

ضحكت ليلى ضحكة صغيرة، غير متوقعة: "أنا أقرأ لأهرب من الواقع، لا لأتخصص فيه."

أطلقت سوسن ضحكة عالية، وضعت كوبها على المقعد، وأخرجت سيجارة إلكترونية من جيبها: "أنت صريحة. كنت أفكر هكذا أيضاً، لكن الفلسفة تجعلك تطرح أسئلة أكثر مما تجيب."

بدأت ليلى تشعر بالفضول تجاه هذه الفتاة التي تتحدث وكأنها تعرفها منذ سنوات. سألتها عن سبب وجودها في فناء علم النفس إذا كانت فلسفية، فأجابت سوسن:

"الجو هنا أفضل. في فناء الفلسفة كلهم يكتبون قصائد حزينة ويتفرجون على الغيوم. أنا أحب الفوضى. الناس هنا أغرب."

في تلك اللحظة، مرت طالبة أخرى، كانت تمشي ببطء شديد، تنظر إلى الأرض وكأنها تبحث عن شيء فقدته. كانت ترتدي جاكيتاً بيجاً كبيراً، وشعرها بني فاتح، وعيناها منتفختان كما لو أنها لم تنم. توقفت قليلاً عندما رأت ليلى وسوسن، ثم استدارت وكأنها غيرت رأيها.

سوسن همست: "هذه رنا. كانت في قسمنا السنة السابقة، ثم حولت إلى الفنون الجميلة. تقول إنها ترسم أحلامها لكي تنساها."

نظرت ليلى إلى رنا وهي تبتعد، وشعرت بشيء من التماهي. ربما كل من يحاول الهروب من شيء ما يلجأ إلى وسيلة مختلفة: هي بالكتب، وسوسن بالفلسفة، ورنا بالرسم، وآدم... وآدم ماذا يفعل؟

هزت رأسها وكأنها تطرد الفكرة. سألت سوسن: "رنا دائماً هكذا؟"

"من شهر تقريباً. كانت عندها حادثة. لا أعرف التفاصيل، لكنها بقيت هكذا. أحياناً ترسم وجوه ناس غير موجودين. أستاذ الرسم يقول إنها موهوبة، لكنه لا يفهم أنها لا ترسم من أجل الموهبة، ترسم لتثبت أنهم كانوا موجودين."

صمتت ليلى. نظرت إلى سوسن وقالت: "أنت تحللين الناس كثيراً."

أطلقت سوسن ضحكة أخرى: "وأنت؟ رأيتك، عيناك كانتا تبحثان على كل طالب هنا. تريدين أن تفهمي الناس، أنا أريد أن أفككهم. فرق شاسع."

نهضت سوسن فجأة، وكأنها تذكرت موعداً: "انتهت استراحتي، عندي محاضرة عن الوجودية. أنتِ مكانك هنا دائماً، صحيح؟"

"غالباً."

"إذاً ستلاقيني."

ومشت سوسن بخطوات واسعة، غير مبالية بمن تصطدم به، تاركة خلفها رائحة قهوة ونيكوتين وشيء من الفوضى الجميلة.

عادت ليلى إلى دفترها، لكنها لم تكتب. كانت تفكر في رنا، وفي عينيها المنتفختين، وفي وجوهها المرسومة. أخرجت هاتفها، وفتحت تطبيق الملاحظات، وكتبت جملة واحدة:

"الناس لا يهربون دائماً من الحقيقة، أحياناً يهربون من نسخة الحقيقة التي يعيشون فيها."

أغلقت الهاتف ونهضت. كان الوقت قد حان للمحاضرة الثانية، لكنها شعرت فجأة برغبة في الخروج من الجامعة. سارت إلى البوابة الخلفية، التي تؤدي إلى شارع جانبي يطل على مقهى صغير اسمه "أوراق". لم تكن قد دخلته من قبل، لكن واجهته الخشبية القديمة والديكور الداخلي المليء بالرفوف كانت تجذبها دائماً.

فتحت الباب، ودخلت. الهواء داخل المقهى كان ثقيلاً برائحة البن المطحون والكتب القديمة. كان المكان نصف فارغ، باستثناء رجل عجوز يقرأ جريدة في الزاوية، وشابين يتحدثان بصوت خافت عن فيلم قديم. جلست ليلى على طاولة قرب النافذة، وطلبت كوباً من الشاي بالنعناع.

أثناء انتظارها، لاحظت ساعة حائط غريبة فوق الباب. كانت كبيرة، ذات عقارب نحاسية، لكن عقرب الدقائق كان متوقفاً عند الرقم (7)، وعقرب الساعات عند (11). سألت النادل الفتي عن السبب، فقال مبتسماً:

"الساعة متوقفة منذ تسع سنين. صاحب المقهى مات في اليوم الذي توقفت فيه، وورثته قرروا أن يتركوها هكذا. يقولون إن الوقت الذي نعيشه ليس مهماً مثل الوقت الذي نتوقف عنده."

حدقت ليلى في الساعة، وشعرت بشيء غريب. ليست حزناً، ولا فضولاً، بل شعوراً بأن عقارب الساعة المتوقفة تشير إلى شيء ما، شيء يتعلق بأبيها، أو بذاكرتها، أو بالوقت الذي توقفت فيه عن انتظار عودته. تذكرت فجأة مفتاحاً نحاسياً صغيراً كانت قد وجدته في درج مكتب والدها قبل سنوات، قبل أن يختفي. كان يحمل نقشاً غريباً، حروفاً غير مفهومة، وظلت تحتفظ به في علبة صغيرة دون أن تعرف ما يفتحه. لم تكمل التفكير، لأن باب المقهى فتح فجأة.

دخل آدم.

لم تلحظه أولاً، فقد كان منشغلاً بمسح حذائه على الباب الخشبي، لكنها عندما رفعت رأسها، التقت عيناه بعينيها. توقف للحظة، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، لا تصل إلى عينيه، ومشى نحو الطاولة المجاورة لها مباشرة.

"مرحباً."

"مرحباً."

كان الحوار قصيراً، كأنهما يتعرفان على بعضهما للمرة الأولى مرة أخرى. آدم وضع حقيبته على الكرسي، وجلس، وطلب قهوة سوداء دون سكر. نظرت إليه ليلى، ورأت أنه يبدو أكثر تعباً مما تذكر، تحت عينيه هالات زرقاء، وقميصه الأسود به بقعة صغيرة من الحبر على الكم.

قالت دون تفكير: "أنت هكذا دائماً؟"

"ماذا؟"

"متعب، لا تستطيع أن ترتاح."

نظر إليها آدم، وكأنها قالت شيئاً لا يتوقعه أحد: "أنت تلاحظين كثيراً، صحيح؟"

"عادة سيئة."

"أنت ترين الأشياء التي تخبئها الناس. هذه ليست عادة، هذه... قدرة."

ضحكت ليلى ساخرةً: "قدرة؟ أقرب إلى اللعنة."

آدم لم يضحك. نظر إلى فنجان القهوة الذي وضعه النادل أمامه، وقال بهدوء: "منذ سنتين أحاول أن أوقف وقتاً معيناً في دماغي، وكلما حاولت، أجد ساعة متوقفة تذكرني بأن الوقت لن يبقى له معنى يوماً ما."

أشار بذقنه إلى الساعة الحائطية، وابتسم ابتسامة مرة. ثم وقف فجأة، ووضع نقوداً على الطاولة، والتقط حقيبته.

"آسف، يجب أن أذهب. كان لقاء... غريباً."

"دائماً اللقاءات الثانية تكون أغرب من الأولى."

نظر إليها نظرة طويلة، كأنه يقرأ شيئاً مكتوباً على وجهها، ثم قال: "ربما لأنه في الأولى نكون نمثل."

وخرج، تاركاً الباب يغلق بهدوء خلفه.

بقيت ليلى جالسة، تنظر إلى فنجانه شبه الممتلئ، ثم إلى الساعة المتوقفة. أخرجت دفترها الأسود وكتبت:

"آدم. الساعة 11:07. شيء يتوقف، وآخر يبدأ."

لم تعرف لماذا كتبت ذلك، لكنها شعرت أن هذه الساعة ستظهر مجدداً في حياتها، ليس لأنها جميلة، بل لأنها تقف في المكان الخطأ، في الوقت الخطأ، تماماً مثل الذكريات التي لا نملك أن نوقفها ولا أن نكملها. وفجأة، تذكرت المفتاح النحاسي مجدداً. كان في علبة صغيرة تحت سريرها، في شقتها، ينتظر أن يفتح شيئاً لا تعرفه. شعرت بقشعريرة تسري في ظهرها.

خرجت من المقهى، وعادت إلى الشارع. كانت السماء قد أمطرت قليلاً، والأرضية مبللة تعكس أضواء المحلات والمطاعم. مشت ببطء، تتجنب البرك المائية، وتستمع إلى أصوات المدينة: بائع الكستناء الذي ينادي بصوت أجش، طفل يجر دراجته على الرصيف، أغنية قديمة لفيروز تخرج من مذياع سيارة قديمة.

على زاوية شارع الحكمة، رأت مكتبة صغيرة تعرض كتباً مستعملة على رفوف خشبية في الخارج. توقفت، وبدأت تقلب في العناوين. كان هناك كتاب عن المنارات، وآخر عن الأحلام، وثالث بعنوان "سيكولوجية الانتظار". اشترت الأخير، لأنه كان رخيصاً، ولأن عنوانه جعلها تفكر في أبيها الذي لا يزال تنتظر عودته رغم مرور اثني عشرة سنة. عندما فتحت الكتاب في الصفحة الأولى، وجدت اسم مكتوباً بخط يد غريب: "ليلى... ستعرفين الحقيقة عندما تجدين المفتاح." ارتجفت يداها، وأغلقت الكتاب بسرعة.

في الطريق إلى البيت، صعدت إلى حافلة النقل الصغيرة، وجلست في المقعد الخلفي بجانب النافذة. كان هناك رجل يجلس أمامها، يحمل علبة حلوى زجاجية، وفوقها شريط أحمر. كان يحدق في العلبة وكأنها تحتوي على شيء ثمين، لكنه لم يفتحها. ليلى حدقت فيه لحظة، ثم حولت نظرها إلى الخارج.

المدينة من نافذة الحافلة كانت مختلفة: أسرع، وأقل تفصيلاً، كأنها فيلم يُعرض بسرعة مضاعفة. مرت بجانب حديقة عامة، رأت فيها عجوزاً تطعم الحمام، ورأت شجرة كبيرة مكتوب على جذعها اسمان محفوران. لم تستطع قراءتهما، لكنها تمنت لو كانت تعرف قصتهما.

عندما وصلت إلى محطتها، نزلت، وسارت إلى مبنى سكنها. عند الباب، وجدت مظروفاً ورقياً موضوعاً تحت حصيرة الباب، دون طابع أو اسم مرسل. فتحته بتردد، ووجدت بداخله ورقة صغيرة مكتوب عليها بخط يد رقيق:

"في يوم من الأيام، ستلتقي بكل الأشخاص الذين فقدتهم، لكنهم سيكونون مختلفين. السؤال: هل ستتعرف عليهم؟"

لم يكن هناك توقيع. وقفت ليلى في الردهة الباردة، تقلب الورقة بين يديها، وتحاول أن تتذكر خط هذا اليد. لم تعرفه. لكن شيئاً في الجملة جعل قلبها ينبض بسرعة أكبر من المعتاد. تذكرت المفتاح النحاسي، تذكرت الكتاب الذي اشترته، تذكرت والدها. كل هذه الخيوط كانت تتشابك فجأة.

دخلت إلى شقتها، وأغلقت الباب، وتركت حقيبتها على الأرض. جلست على الأريكة، والورقة لا تزال في يدها. نظرت من النافذة إلى المدينة التي بدأت تضيء بأنوارها المسائية، وتساءلت:

هل يمكن أن نلتقي بشخص مرتين، ولكن في المرة الثانية نكون نحن الذين تغيرنا، وليس هم؟

لم يكن لديها جواب. لكنها شعرت، لأول مرة منذ أشهر، أن الغد قد يحمل شيئاً مختلفاً. نهضت، وفتحت درج مكتبها الصغير، وأخرجت علبة صغيرة من خشب الجوز. فتحتها، وكان المفتاح النحاسي هناك، يلمع في ضوء الغرفة الخافت. حملته بين أصابعها، وقلبته، ورأت النقش الغريب على رأسه: دائرة وخطان متقاطعان، كأنه رمز لشيء ما. أغلقت العلبة وأعادتها إلى مكانها، وعرفت أنها ستبدأ البحث غداً.

الفصل الثالث

"ليس أخطر ما ننساه، بل ما نتذكره بطريقة خاطئة، ثم نبني عليه حياة كاملة."

استيقظت ليلى على صوت المطر لأول مرة منذ شهور.

لم يكن المطر في الدار البيضاء نادراً، لكنه كان في هذا الصباح مختلفاً: ثقيلاً، مصمماً على البقاء، كأن السماء تريد أن تغسل شيئاً من المدينة لم تجرؤ على مواجهته. قطرات تتساقط على زجاج النافذة ببطء، ثم تتدحرج وكأنها دموع مترددة. جلست على حافة السرير كما تفعل كل صباح، لكنها لم تنهض. بقيت هناك، تنظر إلى الخارج، وتشعر بثقل غريب في صدرها لم تستطع تسميته. لم يكن حزناً، ولا قلقاً، ولا تعباً. كان شيئاً أشبه بالغيوم الرمادية التي لا تمطر، لكنها تظلل كل شيء.

زميلتها في الشقة، هدى، كانت لا تزال نائمة في الغرفة المجاورة، تتنفس بصوت خفيف وكأنها طفل. ليلى لم تكن تعرف هدى جيداً؛ كانت تدرس الهندسة المعمارية، وتعود متأخرة، وتنام حتى الظهر. تبادلان التحية أحياناً، وتتفاديان الحديث عن أي شيء شخصي. كان ترتيبهما ضمنياً: كل في عالمها، لا أسئلة، لا تدخل.

نهضت ليلى أخيراً، وارتدت سروالاً رمادياً طويلاً وكنزة صوفية زرقاء داكنة. لم تكترث لشعرها، تركته منسدلاً على كتفيها وهو لا يزال مجعداً من النوم. نظرت في المرآة، ورأت فتاة بعينين واسعتين، شاحبة قليلاً، شفتاها مزمومتان وكأنها تحاول حبس شيء ما. ثم تذكرت المفتاح النحاسي. كان لا يزال في العلبة تحت السرير. فتحت الدرج، وأخرجت العلبة، وفتحتها، وتأملت المفتاح للحظة. النقش الغريب بدا أكثر وضوحاً في ضوء الصباح الرمادي. قررت أن تأخذه معها اليوم، ربما تجد من يعرف معناه.

خرجت من الشقة، وحملت مظلتها السوداء، ونزلت الدرج. في الطابق الأرضي، وقفت للحظة تحت سقف الباب، تنظر إلى الشارع المبلل. المطر كان يعيد تشكيل المدينة: الأسفلت صار مرآة تعكس أضواء المحلات، والسيارات تتحرك ببطء كأنها تخشى الانزلاق، والناس يهرولون بمظلات ملونة كأنهم رسوم متحركة هاربة من إطارها.

مشت إلى محطة الحافلات، وهناك رأت طفلة صغيرة ترتدي معطفاً أصفر، تقف بجانب أمها وتحاول التقاط قطرات المطر بلسانها. ضحكت ليلى من الداخل، وشعرت للحظة بأنها تريد أن تفعل الشيء نفسه. لكنها اكتفت بالنظر.

في الحافلة، جلست بجانب النافذة، ومسحت بخفة زجاجها المغبش لتطلع على الشوارع. المطر يجعل كل شيء يبدو أكثر دفئاً: واجهة المخبز التي ينبعث منها بخار الخبز الطازج، المقهى الصغير الذي يبدو أكثر ازدحاماً من المعتاد لأن الناس هربوا إليه، العجوز الذي يقف تحت مظلة بقالة وينظر إلى السماء وكأنه يلومها. كانت ليلى تراقب هذه المشاهد وكأنها تشاهد فيلماً، لكن قلبها كان يشعر بثقله. أخرجت المفتاح النحاسي من جيبها، وقلبته بين أصابعها. مرت بجانبها امرأة عجوز، نظرت إلى المفتاح ثم إلى وجه ليلى، وابتسمت ابتسامة غريبة، وكأنها تعرفه.

وصلت إلى الجامعة متأخرة قليلاً عن موعد المحاضرة الأولى. دخلت قاعة (ج) بهدوء، وجلست في مقعدها المعتاد. كانت الكلمات تصل إلى أذن ليلى، لكنها لم تستطع التركيز. بدلاً من ذلك، بدأت عيناها تتجولان على وجوه الطلاب.

كان هناك طالب في الصف الخلفي، شاب نحيف، اسمه رشيد، كان يحدق في دفتره دون أن يكتب. لاحظت ليلى أنه يرتدي نفس القميص الذي لبسه الأسبوع الماضي، وأن أظافره مقصوصة بشكل غير متساوٍ، وكأنه قطعها في الظلام. بدأت تخترع له حياة: "ربما ينام على أريكة صديقه، وليس لديه مرآة جيدة، ويعمل في مطعم، ويحلم بأن يكون عازف جاز، لكنه لا يعرف من أين يبدأ. لديه أخت صغيرة تعيش في مدينة أخرى، يرسل لها رسائل صوتية كل مساء لكنها لا ترد إلا بوجه مبتسم."

ثم نظرت إلى مروة، الفتاة الباكية، التي كانت اليوم تكتب بسرعة جنونية، وكأنها تنسخ المحاضرة بأكملها. فكرت ليلى: "ربما تشعر بأنها إن لم تنسخ كل كلمة، ستفقد شيئاً ثميناً. ربما والدها يريدها أن تكون الأولى في صفها، أو ربما هي تحاول أن تثبت لنفسها أنها تستحق الحب بالتفوق. ربما تبكي ليس لأنها حزينة، بل لأنها خائفة من أن تصبح غير مرئية."

ثم نظرت إلى الأستاذ يوسف نفسه. كان يكرر حركة واحدة: يرفع يده اليمنى، ثم يعود بها إلى خصره، وكأنه يوزن شيئاً غير مرئي. ابتسمت ليلى في نفسها، وتساءلت: "هل كان يرغب أن يكون ممثلاً؟ هل اختار التدريس لأنه وجد أن الجمهور الأكاديمي أقل قسوة؟ كم عمره الآن؟ خمسون، ربما. ماذا كان يحلم به في الخامسة والعشرين؟"

شعرت فجأة بنفاد صبرها. رفعت يدها دون تفكير، لتطرح سؤالاً بعيداً عن الزمان والمكان التي تتواجد هي فيه، وقطعت على الدكتور يوسف وهو يتحدث:

"أستاذ، هل يمكن أن تكون الذاكرة العاطفية مجرد وهم جماعي نصنعه معاً، بدلاً من أن تكون تجربة فردية؟ أعني، نحن نتذكر أشياء لأن الآخرين أخبرونا أننا يجب أن نتذكرها؟"

صمتت القاعة. نظر إليها الدكتور يوسف فوق نظارته، ثم ابتسم ابتسامة غامضة وقال:

"سؤال جميل، ليلى. لكن هل ستخبريننا بنسختك عن الذاكرة الجماعية، أم ستتركيننا نصنعها بأنفسنا؟"

لم تتوقع أن يُعيد السؤال إليها. شعرت باحمرار خفيف في خديها، لكنها لم تتراجع. قالت:

"أعتقد أننا نتذكر الأحداث ليس لأنها حدثت، بل لأننا نحتاجها لتفسير من نحن الآن. إذا تغيرنا، تتغير ذكرياتنا."

نظر إليها الدكتور طويلاً، ثم قال بهدوء:

"هذه هي النقطة التي سنصل إليها في المحاضرة القادمة. شكراً ليلى، لقد اختصرت الطريق."

انتهت المحاضرة بعد عشر دقائق، وخرجت ليلى بسرعة، دون أن تنظر إلى أحد. شعرت بأنها انكشفت أكثر مما تحب. كانت عادة سيئة لديها: كلما شعرت بالضيق، قالت

شيئاً حاداً، وكأنها تريد أن تثبت أنها موجودة حتى لو كان الثمن هو الظهور بمظهر غريب الأطوار.

في الفناء، كان المطر قد خف، لكن الأرض لا تزال مبللة. جلست على مقعدها تحت شجرة التين، على الرغم من أن الماء كان يتساقط من أوراقها بين الحين والآخر. أخرجت ساندويتشها لكنها لم تأكل. كانت تنظر إلى الطلاب الذين يمرون، بعضهم يحمل مظلات، وآخرون يبللون شعورهم بتهور وكأنهم يتحدون الطقس. وضعت يدها في جيبها، وتأكدت من وجود المفتاح النحاسي. كان لا يزال هناك، دافئاً من حرارة جسدها.

جاءت سوسن، كما وعدت، شعرها الأحمر أصبح أكثر لمعاناً في الرطوبة، كانت تحمل كوباً من القهوة وتضع سيجارتها الإلكترونية في فمها.

"سمعت أنك قاطعتي المحاضرة على الدكتور اليوم. القصة صارت أسطورة في الكافتيريا."

ضحكت ليلى بمرارة: "لم أقل شيئاً مهماً. مجرد كلام فارغ."

"لا، ما قلته كان مهماً. أنا أحس أنك لست بخير اليوم، هناك ما تريد التحدث عنه؟"

حدقت ليلى في الأرض، وعبثت بحصاة صغيرة بحذائها: "لا أعرف بالضبط. فقط أن الأيام تتشابه."

جلست سوسن بجانبها، ورفعت نظاراتها الشمسية (رغم أن السماء رمادية)، ونظرت إلى ليلى بعينين زرقاوين صادقتين، كانت المرة الأولى التي تراها فيها ليلى بدون نظارات.

"اسمعي، أنا سأذهب بعد قليل عند رنا، التي قابلناها من قبل. ترسم مناظر للمدينة تحت المطر، قالت إنها تريد أن ترسم ناساً حقيقيين. تريدين أن تأتي؟ قد يغير مزاجك."

ترددت ليلى. هي لم تكن تعرف رنا، ولم تكن تحب الذهاب إلى أماكن جديدة مع أشخاص جدد. لكن شيئاً في صوت المطر، وفي شوقها لتغيير روتينها، جعلها تقول:

"حسناً، لن أتأخر. وسآخذ معي كتاباً لكي أتفادى أن أشعر بالملل."

"رنا أيضاً تقرأ، لكن ليس كتب علم نفس، تقرأ شعراً وروايات قديمة."

مشيا معاً، وسوسن تتحدث طوال الوقت عن أستاذ فلسفة يحاول إقناع طلابه بأن "الوجود يسبق الماهية" لكنه يصل متأخراً لكل المحاضرات، مما يجعل الجميع يشكون في وجوده أصلاً. ضحكت ليلى رغم نفسها.

وصلن إلى استوديو رنا، وهو غرفة صغيرة في الطابق الثالث من مبنى قديم، نوافذها تطل على شارع ضيق، والجدران مغطاة برسومات ولوحات. رنا كانت تقف أمام لوحة كبيرة، ترسم بالفحم مشهداً لشارع في المطر، لكن الأضواء في اللوحة كانت أقوى مما هي عليه في الواقع، وكأنها تخلق عالماً موازياً.

التفتت رنا حين سمعت صوت سوسن، ونظرت إلى ليلى بنظرة لم تستطع تفسيرها: مزيج من الفضول والحذر، كأنها تتعرف على وجه من حلم قديم.

"أهلاً. سوسن قالت لي عنك. أنت التي تقرأين كتاب هيدغر في المكتبة."

"نعم، كان مصادفة. أنا أقرأ أي شيء."

"أنا أيضاً. في رأيي، القراءة هي الطريقة الوحيدة لعيش حيوات متعددة دون أن نموت فعلياً."

صمتت ليلى، مندهشة من العمق في كلمات رنا، التي كانت تبدو بالأمس وكأنها ضائعة. لكن اليوم، في استوديوها، كانت تبدو مختلفة: واثقة، حاضرة، كأن الرسم يعيد تشكيلها أيضاً.

أشارت رنا إلى كرسي قريب من النافذة: "اجلسي هنا. المطر يضيء وجهك بطريقة جميلة. ممكن أرسمك؟ لن أتأخر، مجرد اسكتش سريع."

شعرت ليلى بالخوف فجأة. أن يُنظر إليها طويلاً، أن تبقى ساكنة بينما عينا شخص تنظران إلى تفاصيلها، كان شعوراً غريباً. لكنها جلست. أخرجت كتابها "سيكولوجية الانتظار"، فتحته على صفحة عشوائية، لكنها لم تقرأ كلمة. كانت تشعر بعيني رنا ترسمانها، وتشعر بأن كل خط بالفحم يكشف شيئاً عنها لا تعرفه هي بنفسها.

ثم تذكرت المفتاح. أخرجته من جيبها، ووضعته على راحة يدها، وسألت رنا: "هل تعرفين هذا النقش؟"

نظرت رنا إلى المفتاح، وتوقفت عن الرسم. تأملته طويلاً، ثم قالت بصوت خافت: "هذا رمز... رأيته من قبل. في ملف قديم كان عند والدي. ملف عن اختفاءات غامضة في المدينة، منذ أكثر من عشر سنوات." صمتت رنا، وكأنها تندم على ما قالته، ثم عادت إلى الرسم.

ارتجفت ليلى. كان والدها قد اختفى منذ اثنتي عشرة سنة. هل كان هذا المفتاح مرتبطاً باختفائه؟ سألت رنا: "أين هذا الملف؟ هل ما زال موجوداً؟"

هزت رنا رأسها: "لا أعرف. والدي توفي منذ ثلاث سنوات، وأنا لم أره بعد ذلك. لكني أتذكر أن الملف كان يحمل اسم شارع... شارع المطر. نعم، شارع المطر."

سكتت ليلى. كان شارع المطر هو الشارع الذي كانت تسكن فيه عائلتها قبل اختفاء والدها. عادت الذكريات تتدافع إليها: المطر في تلك الليلة، باب المنزل المفتوح، صوت التلفاز وهو يصرخ في غرفة فارغة، والمفتاح النحاسي الذي وجدته لاحقاً في درج مكتبه.

بعد ربع ساعة، قالت رنا: "حسناً."

نظرت ليلى إلى الاسكتش. لم يكن شبيهاً بها تماماً: العينان كانتا أكبر، والفم يبتسم قليلاً، والشعر يبدو وكأنه يطير، مع أن الغرفة لا هواء فيها. لكن شيئاً في الرسم كان صادقاً: تعبير الحيرة، نظرة الغائب الحاضر.

"هل هذا أنا حقاً؟"

"هذا أنت في هذه اللحظة. بعد ساعة ستكونين مختلفة. كل رسم هو شهادة موت لحظة عابرة."

صمتت ليلى. كلمات رنا كانت تلامس شيئاً في أعماقها، شيئاً يتعلق بذاكرتها ووالدها وبكل لحظاتها التي شعرت فيها بأنها ليست في مكانها الصحيح. أمسكت بالمفتاح بقوة، وكأنه حبل نجاة.

نهضت فجأة، واعتذرت: "آسفة، يجب أن أذهب. عندي موعد."

لم يكن لديها موعد. لكنها شعرت برغبة في الهرب، كأن البقاء هناك سيكشف عنها أكثر مما تريد. خرجت إلى الشارع، والمطر بدأ من جديد لكنه كان أخف. مشت بلا هدف، تمر بمحلات الخياطة ومكتبات الأحياء، وتسمع صوت أذان العصر يخرج من مسجد قريب. وقفت تحت مظلة متجر أدوات منزلية قديم، ونظرت من الزجاج إلى الداخل. كان المحل صغيراً، مزدحماً بقطع من النحاس والخشب، وفي الزاوية الخلفية كان هناك رجل يجلس على طاولة، يحاول إصلاح ساعة قديمة.

توقف قلبها لحظة. الرجل لم يكن آدم. كان رجلاً عجوزاً، بشعر أبيض، ونظارة مكبرة على عينيه. لكن فكرة إصلاح الساعات جعلتها تتذكر آدم، وتتذكر قوله: "منذ سنتين أحاول أن أوقف وقتاً معيناً في دماغي." هل كان يعني ذلك حرفياً؟ هل كان يحاول إصلاح شيء في نفسه من خلال إصلاح الأشياء القديمة؟ تذكرت أيضاً الورقة الصفراء التي رأتها في كتابه. ربما كان يبحث عن شيء، ربما كان مرتبطاً باختفاء والدها أيضاً.

تابعت المشي، ومرت بجانب مقهى صغير يخرج منه صوت بيانو قديم، عزف منفرد، لحن حزين لكنه ليس حزيناً تماماً. وقفت هناك، تستمع، والمطر يبلل كتفيها لأن مظلتها لم تكن تغطيها جيداً. شعرت فجأة بذكرى تطرق بابها من الخلف، دون استئذان.

كانت طفلة، ربما في السابعة، تجلس في سيارة والدها، وهو يقود في طريق ممطر. كانت تنظر إلى قطرات المطر على الزجاج وتتسابق معها بأصبعها، محاولة تتبع واحدة

منها حتى النهاية. كان والدها يضحك ويقول: "المطر يحب أن يلعب مع الأطفال، لكن هو دائماً يربح."

لكن ليلى توقفت فجأة. هل هذا حقيقي؟ هل حدث هذا فعلاً؟ أم أنها شاهدت مشهداً مشابهاً في فيلم، وزرعته في ذاكرتها لأنه يمنحها دفئاً لم تحصل عليه؟ كانت تعرف أن والدها كان غائباً في معظم طفولتها، فكيف يمكن أن تتذكر رحلة بالسيارة معه تحت المطر؟ هل اختلقت الذكرى لتسد فراغاً؟ أم أنها حقيقية وطمستها سنوات الصمت؟ ثم تذكرت المفتاح، وتذكرت شارع المطر، وتذكرت الملف القديم. كل شيء كان يتشابك.

وقفت هناك، في الشارع، والمطر يبللها، والموسيقى تخرج من المقهى، وشعرت بأنها لن تعرف أبداً الإجابة. وهذا ربما كان الأصعب: ألا تعرف إن كانت ذكرياتها ملكها أم لا. أمسكت بالمفتاح في جيبها، وشعرت ببرودته تخترق قماش الكنزة. كان دليلاً مادياً، شيئاً حقيقياً، في عالم من الذكريات المشوشة.

عادت إلى شقتها في المساء، وقد توقف المطر تقريباً، لكن السماء كانت لا تزال داكنة. أغلقت الباب خلفها، وألقت حقيبتها على الأرض، وجلست على الأريكة. كانت تريد أن تكتب في دفترها الأسود، لكنها شعرت بتعب شديد.

ثم نظرت إلى الطاولة الصغيرة بجانب الأريكة. هناك، تحت كتاب قديم كانت استعارته من هدى (كتاب عن العمارة الإسلامية، لم تقرأ منه سوى الصور)، وجدت شيئاً.

بطاقة بريدية قديمة، مصفرة، حافتها متآكلة قليلاً. كانت مقلوبة، فقلبتها، ووجدت صورة لأحد أحياء الدار البيضاء القديمة، ربما في السبعينيات، الشوارع ضيقة والناس يرتدون ملابس من زمن مضى. على الظهر، بخط يد رقيق لكنه واضح، كُتبت جملة واحدة:

"في هذا الشارع، وعدتني بأنك ستنتظرينني. لكن الوقت لم ينتظر أحداً."

لم يكن هناك اسم، ولا توقيع، ولا تاريخ.

تأملت البطاقة طويلاً. ليست لها. ليست لهدى أيضاً، على الأرجح، فقد كانت هدى أصغر من أن تحمل بطاقة من السبعينيات. ربما كانت من ساكن سابق، أو سقطت من كتاب قديم اشترته هدى من مكتبة مستعملة. لكن الجملة كانت تعذبها. من كتبها؟ ولمن؟ وماذا حدث للوعد؟ شعرت وكأنها عثرت على سر لا يخصها، لكنه كان يهمس لها بأن كل الوعود تنتهي، وأن الوقت لا ينتظر أحداً، حتى أولئك الذين ينتظرون.

وضعت البطاقة على الطاولة، وأخرجت المفتاح النحاسي من جيبها، ووضعته بجانبها. نظرت من النافذة إلى المدينة التي بدأت تضيء بأنوارها البعيدة، وتساءلت:

هل كل الذكريات التي نحتفظ بها هي في الحقيقة ذكريات شخص آخر، تبنيناها لأننا عجزنا عن بناء ذكرياتنا الخاصة؟ أم أن هناك حقيقة مخفية، تنتظر من يفتح لها الباب بمفتاح نحاسي قديم؟

لم تجب نفسها. لكنها شعرت بأن هذه البطاقة الصغيرة ستظهر مجدداً، بطريقة ما، في وقت آخر، وكأنها مفتاح آخر لشيء لم تكن تعرف أنها تبحث عنه. أمسكت بالمفتاح النحاسي، وقبلته برفق، ووعدت نفسها بأنها ستبدأ البحث غداً. عن شارع المطر، عن الملف القديم، عن أبيها.

الفصل الرابع:

"ليس كل من يرحل يغادر، وليس كل من يبقى حاضرًا. بين البقاء والرحيل مسافات نعبرها دون أن نشعر، نصنع فيها حياة كاملة."

استيقظت ليلى على ضوء مختلف. لم يكن المطر، بل شمس خجولة تتسلل من بين الستائر، تصنع خطوطًا ذهبية على الأرضية الخشبية. جلست على حافة السرير، لكنها هذه المرة لم تنتظر. نهضت فورًا، وكأن جسدها قرر أن يسبق أي تردد.

ارتدت تنورة رمادية طويلة، وقميصًا أبيض بأكمام قصيرة، وربطت شعرها في كعكة عالية غير مرتبة. نظرت في المرآة، ورأت فتاة تنظر إليها بعينين مستيقظتين لكنهما لا تزالان تحملان سؤالًا من أمس: هل ذكرى المطر حقيقية؟ هزت رأسها، وخرجت.

في الطريق إلى الجامعة، اشترت كعكة من مخبز صغير، وأكلتها وهي تمشي. المدينة كانت تفيق برتابة جميلة: بائع الصحف يصرخ بعناوين اليوم، سيدة تفتح ستائر متجرها، قط أسود يجلس على جدار ويغسل وجهه ببطء. كل شيء طبيعي، كل شيء في مكانه، لكن ليلى شعرت أن هناك شيئًا تحت سطح هذا الصباح، شيء لا تستطيع تسميته.

وصلت إلى الجامعة، ودخلت من الباب الرئيسي هذه المرة. الممرات كانت مزدحمة، أصوات الطلاب تتعالى، ورائحة القهوة المرة تخرج من آلية في نهاية الردهة. مرت بجانب لوحة الإعلانات، ورأت إعلانًا عن "ندوة حول الاقتصاد السلوكي واتخاذ القرار تحت الضغط"، كتب عليه بخط أحمر: المكان محدود، سجل الآن. لم تهتم.

في قاعة المحاضرات (ج)، جلست في مقعدها. كان الأستاذ اليوم مختلفًا: رجل في الأربعين، نحيل، يلبس بدلة زرقاء بدون ربطة عنق، اسمه الدكتور رشيد. كان يشرح نظرية "الخيار العقلاني" في الاقتصاد، وكيف يفترض أن الإنسان يتصرف بعقلانية لتعظيم منفعته.

رفعت ليلى يدها بعد ربع ساعة، وقالت دون تردد:

- أستاذ، إذا كان الإنسان يتصرف دائمًا بعقلانية، فكيف نفسر قراراتنا التي نعرف أنها مضرة بنا؟ مثل الإدمان، أو البقاء في علاقة فاشلة، أو حتى اختيار تخصص لا نحبه لأننا خفنا من تغييره؟

صمتت القاعة. نظر إليها الدكتور رشيد بفضول، ثم قال:

- هذه النقطة تطرحها مدرسة "الاقتصاد السلوكي". لكن السؤال الأعمق: هل العقلانية هي ما نفعله، أم ما نعتقد أننا يجب أن نفعله؟

أجابت ليلى بسرعة: "ربما العقلانية مجرد وهم نصنعه لنبرر قراراتنا بعد وقوعها. نحن نتخذ القرارات عاطفيًا، ثم نبحث عن أسباب منطقية لتبريرها."

قال الدكتور رشيد مبتسمًا: "أنتِ في السنة الثالثة، صحيح؟ اسمك ليلى؟"

- نعم.
- أعتقد أنكِ ستجدين ندوة الاقتصاد السلوكي غدًا ممتعة. تسجلي الآن.

شعرت ليلى بأنها انكشفت مجددًا. لكنها هذه المرة لم تخف. قالت: "حسنا شكرا، أستاذ."

بعد المحاضرة، كانت تمشي في الممر، عندما سمعت صوتًا خلفها:

- ليلى!

التفتت، فرأت سوسن تجري نحوها بشعرها الأحمر المتطاير، ووراءها رنا تمشي ببطء، تحمل دفتر رسم كبير.

قالت سوسن: "رنا تريد ات ترسمك مرة اخرى. قالت لا تستطيع ان تنسى شكل ضوء المطر على وجهك. ستكونين في المكتبة بعد المحاضرة؟"

- يمكن. ليه؟
- سنكون هناك رنا تحتاج ان ترسم شخصا حقيقي، ليس مجرد مناظر.

نظرت ليلى إلى رنا، التي كانت تنظر إليها بعينيها الحزينتين الواسعتين، وابتسمت ابتسامة صغيرة. قالت: "حسنا لكن لا اريدان اتئأخر."

دخلت المكتبة المركزية للجامعة، وهي مبنى ضخم من ثلاث طوابق، جدرانه من الزجاج، وأرففه تمتد إلى السقف. رائحة الورق العتيق والغبار والخشب كانت تملأ المكان. جلست على طاولة قرب النافذة، وأخرجت كتابها "سيكولوجية الانتظار". لكنها لم تفتحه. بدلاً من ذلك، أخذت تراقب الناس.

كان هناك طالب في الزاوية البعيدة، شاب يرتدي نظارة سميكة، يقرأ كتابًا عن الفيزياء الكمية، لكنه كان يحدق في الصفحة نفسها منذ عشر دقائق. فكرت ليلى: "ربما هو مشغول بحب فاشل، أو ربما اكتشف أن كل ما يدرسه ليس له معنى، أو ربما هو فقط متعب." ثم رأت فتاة تجلس بمفردها، تكتب بسرعة في دفتر، وكل بضع دقائق ترفع رأسها وتنظر إلى الباب وكأنها تنتظر أحدًا. "ربما تنتظر رسالة، أو شخصًا لن يأتي." ثم رأت أستاذًا عجوزًا يدخل، يحمل كومة من الكتب، يسقط واحدًا، فيلتقطه طالب يمر بسرعة ويعيده إليه دون كلمة.

وفجأة، شعرت ليلى بالملل. ليس الملل العادي، بل الملل الذي يجعلها تريد فعل شيء غير متوقع، شيء يخرجها من النمط. نهضت من مقعدها، وتركت حقيبتها على الطاولة، ومشت إلى الباب. لم تكن تعرف إلى أين تتجه. خرجت من المكتبة، وعبرت الفناء، ودخلت إلى مبنى الكيمياء (الذي لم تضع قدمها فيه من قبل). صعدت الدرج إلى الطابق الرابع، وفتحت بابًا عشوائيًا، فوجدت نفسها في مختبر فارغ، فيه أنابيب اختبار ومجاهر ورائحة مواد كيميائية خفيفة.

جلست على كرسي المختبر، ونظرت إلى الأدوات من حولها، ثم ضحكت بصوت عالٍ. لم يكن هناك سبب. كانت تضحك لأنها فعلت شيئًا لا معنى له، لأنها دخلت مكانًا لا تخصه، لأنها أغرقت نفسها في عالم مختلف. جلست هناك لمدة خمس دقائق، تتخيل أنها عالمة كيمياء، تخلط موادًا خطيرة، وتصنع شيئًا يغير العالم. ثم نهضت وعادت إلى المكتبة، وكأن شيئًا لم يحدث.

عندما عادت، وجدت رنا جالسة على طاولتها، تنظر إليها بعينين مندهشتين.

- أين كنتِ؟ اختفيتِ فجأة.

قالت ليلى: "كنت في مختبر الكيمياء. أردت أن أرى كيف تبدو الحياة من هناك."

نظرت رنا إليها بفضول، وقالت: "أنتِ غريبة. أعجبني هذا. هل تعرفين أن معظم الناس يفعلون نفس الأشياء كل يوم، بنفس الطريقة، وكأنهم مبرمجون؟ أنتِ لستِ كذلك."

جلست ليلى، وشعرت فجأة بأنها مكشوفة. حاولت تغيير الموضوع: "ماذا كنتِ ترسمين؟"

أظهرت رنا دفترها. كانت ترسم طاولة المكتبة، والمقاعد، والنوافذ، لكنها كانت قد أضافت أشياء غير موجودة: طيور تحلق بين الرفوف، ضوء قادم من سقف زجاجي غير موجود، وشخصين يجلسان يتحدثان في الزاوية، رغم أن الزاوية كانت فارغة.

- من هذان الشخصان؟ سألت ليلى.

نظرت رنا إلى الرسم لحظة، ثم قالت بصوت خافت: "لا أعرف. ربما أشخاص لم أقابلهم بعد. أو ربما أشخاص فقدتهم، وأريد أن أتذكرهم في مكان جديد."

صمتت ليلى. شعرت أن رنا تحمل ثقلًا أكبر مما تبدو. أرادت أن تسأل عن الحادثة التي مرت بها، لكنها ترددت. بدلاً من ذلك، قالت: "رسمك عني من المرة الماضية... هل ما زلتِ تحتفظين به؟"

• نعم. هو معلق في الاستوديو. يذكرني بأن الضوء يمكن أن يأتي من أماكن غير متوقعة.

في تلك اللحظة، سمعت ليلى صوتًا مألوفًا من بعيد. رفعت رأسها ورأت آدم يمشي في الممر الزجاجي للمكتبة، يحمل كتابًا، ويرتدي سترة جلدية سوداء. لم يكن ينظر إليها. كان يمشي ببطء، وكأنه يقرأ عناوين الكتب وهو يسير. ثم توقف عند رف "الفلسفة"، وأخرج كتابًا، وقلبه بين يديه. كانت هناك لحظة، عندما كان يقلب الكتاب، أن نظرته توقفت على شيء ما في الصفحات، وعبوس خفيف رسم على وجهه.

نظرت إليه ليلى، وشعرت بشيء غريب: لم تكن ترغب في التحدث إليه، لكنها كانت تريد أن تعرف ماذا يقرأ، وماذا يفكر، ولماذا يبدو دائمًا وكأنه يحمل شيئًا لا يقوله أحد. ثم رأت شيئًا آخر: عندما كان آدم يضع الكتاب في مكانه، لاحظ فتاة صغيرة تقف بجانب الرف، تحاول الوصول إلى كتاب في الأعلى. كان طولها لا يكفي. نظر آدم إليها، ثم مد يده بسهولة، وأخذ الكتاب، وأعطاه لها. ابتسمت الفتاة ابتسامة واسعة وقالت: "شكرًا!" فقال آدم: "العفو"، ثم مشى دون أن ينظر إلى الوراء.

لاحظت ليلى شيئًا في حركته: يده اليمنى كانت تهتز قليلاً عندما أعطى الكتاب للفتاة، وكأنه يخفي شيئًا، أو كأنه متوتر. هذا كان جانبًا جديدًا: آدم لم يكن هادئًا تمامًا كما بدا. كان هناك شيء يرتجف تحته.

لم تقترب منه. عادت إلى طاولتها، ورأت رنا تنظر إليها بعينين فاحصتين.

• تعرفينه؟ سألت رنا.
• ليس حقًا. مجرد شخص أقابله أحيانًا.
• لكنكِ نظرتِ إليه طويلًا.
• أنظر إلى الجميع طويلًا. هذه عادتي السيئة.

ضحكت رنا، وقالت: "أنا أيضًا. لكني أنظر لأرسم، وأنتِ تنظرين لتفهمي. الفرق كبير."

بعد ساعة، غادرت رنا وسوسن (التي كانت قد ظهرت فجأة وأكلت نصف كعكة ليلى دون استئذان). بقيت ليلى في المكتبة. كانت الشمس قد بدأت تميل، والضوء الذهبي يتسلل من النوافذ الزجاجية. أخرجت دفترها الأسود، وكتبت:

"اليوم: دخلت مختبر كيمياء بدون سبب. آدم ساعد فتاة في الوصول إلى كتاب. رنا ترسم أشخاصًا لم تقابلهم. سوسن أكلت كعكتي. هل أنا أتصرف كما أريد، أم كما يتوقع الآخرون مني؟"

توقفت. ثم كتبت تحتها:

"وهل هناك فرق؟"

أغلقت الدفتر، ونهضت لتغادر. بينما كانت تمشي في الممر، نظرت من النافذة إلى الفناء الداخلي. وهناك، رأت شيئًا لم تنتبه له من قبل: كان هناك رجل يجلس على مقعد تحت شجرة التين كل يوم، في نفس المكان، في نفس الوقت، يرتدي نفس المعطف الرمادي. كانت قد رأته عدة مرات، لكنها لم تفكر فيه مطلقًا. اليوم، لاحظت أنه لا يقرأ، ولا يتحدث مع أحد، ولا ينظر إلى هاتفه. فقط يجلس وينظر إلى أمامه، كما لو كان ينتظر شيئًا.

لماذا لم تنتبه له من قبل؟ هل كان هناك دائمًا؟ شعرت بقشعريرة خفيفة. لم يكن الأمر مخيفًا، لكنه كان غريبًا. مثل الأغنية التي تسمعها مرارًا دون أن تلاحظها، ثم تدرك فجأة أنها كانت هناك طوال الوقت.

خرجت من المكتبة، وعبرت الفناء، ومرت بجانب الرجل. لم تنظر إليه مباشرة، لكنها رأت من زاوية عينها أنه كان يحمل شيئًا في يده: مفتاحًا قديمًا، نحاسيًا، صدئًا قليلاً. كان يقلبه بين أصابعه، كما لو كان ينتظر بابًا يفتحه.

لم تكن تعرف لماذا، لكنها شعرت أن هذا المفتاح سيظهر مجددًا. كان مجرد حدس.

في المساء، عادت ليلى إلى شقتها. كانت السماء قد تحولت إلى لون أرجواني غامق، وأنوار المدينة بدأت تتلألأ. أغلقت الباب، وألقت حقيبتها، وجلست على الأريكة. كانت تنظر

إلى البطاقة البريدية القديمة التي ما زالت على الطاولة. أخذتها بين يديها، وقرأت الجملة مجددًا:

"في هذا الشارع، وعدتني بأنك ستنتظرينني. لكن الوقت لم ينتظر أحدًا."

كانت تتساءل: من كتب هذا؟ ولمن؟ وماذا حدث بعد ذلك؟

ثم، وبينما كانت تضع البطاقة على الطاولة، لاحظت شيئًا لم ترَه من قبل: على ظهر البطاقة، في الزاوية السفلية اليمنى، كان هناك رقم مكتوب بقلم رصاص خفيف جدًا: 1973.

السنة. صارت البطاقة أكثر غموضًا. وقفت ليلى، وذهبت إلى النافذة، ونظرت إلى المدينة الليلية. كانت الأضواء تتلألأ، والسيارات تمر، والناس يمشون في الشوارع. وتساءلت:

كم عدد الأسرار التي تخفيها هذه المدينة؟ وكم عدد الأسرار التي أخفيها أنا عن نفسي؟

لم تجب. لكنها شعرت، في تلك اللحظة، أن الغد سيحمل شيئًا مختلفًا. شيء كان ينتظرها منذ زمن طويل.

الفصل الخامس:

"العمل الجماعي ليس أن تتفقوا، بل أن تختلفوا دون أن تكرهوا بعضكم"

بدأ اليوم بإعلان عالق على لوحة الجامعة الرئيسية، كتب عليه بخط أحمر عريض، وكأنه يصرخ في وجه كل من يمر:

"المعرض السنوي للعلوم والإنسان: مشاريع جماعية بين الأقسام. التسجيل إلزامي لطلاب السنة الثالثة. الالتقاء في قاعة الأنشطة الساعة التاسعة صباحاً. من يتخلف يحاسب."

وقفت ليلى أمام الإعلان، وهي تشعر بأن أمعاءها تتقلص كما لو أنها ابتلعت حجراً. إلزامي. جماعي. بين الأقسام. ثلاث كلمات تكرهها مجتمعة، ثلاث كلمات تجعلها تشعر بأنها محاصرة في غرفة ضيقة مع أناس لا تختارهم. كانت تحب العمل وحيدة، تحب أن تتحكم في كل زاوية من زوايا مشروعها، أن تعرف بالضبط أين يتجه كل شيء ولماذا. العمل الجماعي كان، في نظرها، أشبه بمحاولة قيادة سيارة بأربعة مقودات، كل واحد يسحب في اتجاه، والنهاية حتمية: إما حادث أو طريق مسدود.

نظرت إلى ساعتها. الثامنة وخمس وأربعون دقيقة. كان عليها أن تتجه إلى القاعة. لكنها توقفت لحظة أمام النافذة الكبيرة في بهو المبنى الرئيسي، ونظرت إلى الفناء الخارجي. رأت الرجل الغريب جالساً على مقعده المعتاد تحت شجرة التين، حتى في هذا الصباح الباكر. كان يرتدي معطفه الرمادي نفسه، وكانت يداه تتحركان بهدوء، يقلب المفتاح النحاسي القديم بين أصابعه. نظرت إليه، وتساءلت: هل ينام هنا؟ هل يغادر أبداً؟ لكنها لم تدم طويلاً في تأملها، لأنها كانت تتأخر.

دخلت قاعة الأنشطة، وهي قاعة واسعة في الطابق الأرضي من المبنى الإداري، جدرانها بيضاء ناصعة لدرجة أنها تؤذي العين، وأرضيتها من البلاط الرمادي اللامع الذي يعكس أضواء مزعجة، ونوافذها الكبيرة تطل على حديقة الجامعة الخلفية حيث يمكن رؤية أشجار النخيل تتمايل ببطء. كان المكان مزدحماً بالطلاب، يتجمعون في مجموعات صغيرة، يتحدثون بصوت مرتفع، والهواء مشبع برائحة القهوة من الآلة الأوتوماتيكية في

الزاوية، ورائحة العرق الخفيف من كثرة الأجساد، ورائحة الورق والطباعة التي تأتي من غرفة الإدارة المجاورة.

جلست ليلى في الصف الخلفي، وحاولت أن تصبح غير مرئية. لكن الدكتور رشيد كان يراقب، وكانت عيناه تبحثان بين الوجوه. جلس الدكتور يوسف بجانبه، يقلب قائمة الأسماء، وكأنهما قاضيان يوزعان الأحكام.

بدأ النداء، وبدأت تتشكل الفرق. كل فريق مكون من أربعة طلاب من أقسام مختلفة، مهمتهم: تصميم وتنفيذ مشروع يجمع بين تخصصاتهم، يعرض في المعرض بعد ثلاثة أسابيع. كان جو القاعة يشبه سوقاً صاخبة: طلاب يتفاوضون، آخرون يغيرون أماكنهم، وأستاذة شابة تحاول تنظيم الفوضى بصوتها المرتفع.

• ليلى، قسم الاقتصاد. الفريق السابع.

رفعت يدها، وشعرت بأنها طفلة في أول يوم مدرسي. نظرت حولها، فوجدت ثلاثة وجوه تنظر إليها، وجوه لم تكن تعرفها، لكنها ستعرفها قريباً جداً، ربما أكثر مما تريد.

منير كان أول من لفت انتباهها. رجل طويل، أشقر، يبدو في الخامسة والعشرين من عمره، يرتدي نظارة طبية دائرية تشبه نظارات الفلاسفة القدماء. يداه كانتا تغطيهما بقع من الحبر الأزرق، وكأنه يعيش وسط الرسوم الهندسية وخطط البناء. كان يرتدي قميصاً أزرق فاتحاً، وأكمامه مرفوعة إلى المرفقين، وابتسامته عريضة لكنها متوترة قليلاً.

نادين كانت عكس منير تماماً: فتاة صغيرة الحجم، بشعر قصير أسود كالغراب، وعيون واسعة خائفة كعيون ظبية. كانت ترتدي سترة بنية اللون كبيرة جداً عليها، وكأنها ترتدي ملابس أخيها الأكبر. كانت تحمل دفتر رسم كبير، وترسم دوائر متداخلة على غلافه، ربما دون وعي، ربما كطقوس تهدئ أعصابها.

والرجل الثالث...

آدم.

نظر إليها، ونظرت إليه. لم يقل شيئاً، لكنه أومأ برأسه، تحية قصيرة، لا أكثر. كان يرتدي جاكيتاً رمادياً فوق تي شيرت أسود، وشعره كان مرتباً بشكل غير معتاد، وكأنه بذل جهداً في الظهور بمظهر مختلف. جلس على الكرسي المعدني، ووضع حقيبته الجلدية السوداء على الأرض، وأخرج قلماً صغيراً، بدأ يدوره بين أصابعه، كما لو كان يحتاج إلى شيء يشغله.

قالت نادين بصوت خافت جداً، بالكاد مسموع: "أهلاً. أنا نادين، من قسم الفنون الجميلة. أنا متوترة جداً، هذا أول مشروع جماعي لي في الجامعة. ماذا سنعمل بالضبط؟ أعني، كيف نبدأ؟"

لم يجبها أحد. نظر منير إليها، ثم إلى ليلى، ثم إلى آدم، وكأنه ينتظر قائداً يظهر من بينهم.

قال منير أخيراً، بصوت واثق لكنه غير متعجرف: "المشروع ببساطة هو أن نربط بين تخصصاتنا حول موضوع واحد. عندي فكرة أولية: أبنية المدينة وتأثيرها على السلوك الاقتصادي. مثلاً، كيف يؤثر تصميم الأحياء السكنية، واتساع الشوارع، وارتفاع المباني، على قرارات الشراء، على حركة البضائع، على سلوك المستهلك؟ يمكننا قياس ذلك من خلال استبيانات وبيانات حقيقية."

نظرت ليلى إليه، وقالت بحدة، وكأنها تختبره: "وهل هذا يربط بعلم النفس والفنون؟ أنا أرى رابطاً واحداً فقط: أنت بحاجة إلى من يصدقك. لكن هذا لا يكفي لمشروع معرض."

تردد منير لحظة، ثم قال: "حسناً، يمكن نضيف جزءاً عن علم النفس المكاني، وكيف تؤثر التصاميم على المشاعر والسلوك، والفنون... ربما نرسم خرائط ذهنية للمدينة كما يراها السكان، وهذا جزء فني."

قال آدم بهدوء، وبدون أن يرفع نظره عن القلم الذي يدوره: "الفكرة واسعة جداً. نحتاج شيئاً محدوداً، شيئاً يمكننا تنفيذه في ثلاثة أسابيع دون أن نموت من التعب. أنا أعرف شيئاً عن المشاريع الكبيرة، تنتهي دائماً بكارثة."

نظرت إليه ليلى بدهشة. لم تكن تتوقع أن يتدخل بهذه الطريقة الواثقة. سألته، وهناك فضول في صوتها: "وما رأيك أنت؟ إذا كانت فكرته واسعة، فما هي فكرتك؟"

أجاب آدم، وهو ينظر إلى الطاولة كما لو أن الإجابة مكتوبة هناك: "شيء عن الزمن. كيف نرى الزمن في المدينة؟ كيف نتعامل مع الانتظار، مع التأخير، مع اللحظات التي تتوقف فيها الحياة فجأة؟ كلنا ننتظر شيئاً. في المواصلات، في الطوابير، أمام المؤسسات، أمام المدارس، أمام المستشفيات. الانتظار هو الإطار المشترك بيننا جميعاً."

صمتت المجموعة. كانت ليلى تشعر بأن آدم لمس شيئاً قريباً منها جداً، شيئاً عن الساعة المتوقفة في مقهى "أوراق"، عن البطاقة البريدية التي تحمل جملة عن الوقت، عن انتظارها لأبيها الذي لم يعد. لكنها لم ترد أن تظهر ذلك، خاصة أمام غرباء. قالت بسرعة، وكأنها تريد أن تطفئ شرارة الاعتراف: "الزمن موضوع واسع جداً أيضاً. نحتاج شيئاً عملياً، شيئاً له حدود واضحة."

نظرت نادين إلى الجميع، وقالت بصوت مرتعش لكنها حاولت أن تجعله مسموعاً: "ماذا لو... ماذا لو صنعنا معرضاً عن لحظات الانتظار في الدار البيضاء؟ أنا أستطيع أن ألتقط صوراً للناس وهم ينتظرون في المواقف، في محطات القطار، في الطوابير أمام المخابز، أمام المستشفيات. ثم نربط هذه الصور بإحصائيات عن الوقت المهدر يومياً، وعن تأثيره النفسي على الناس. وكأننا نقول: انظروا، هذا هو الوقت الذي لا يعود."

ساد صمت طويل. نظر منير إلى نادين، وقال بإعجاب واضح: "هذه فكرة جميلة جداً، نادين. أنتِ تفكرين بصرياً، وهذا ما نحتاجه. لكن كيف ننفذها في ثلاثة أسابيع؟ لدينا ثلاثة أسابيع فقط."

قالت ليلى، وكأنها تعرف الإجابة منذ البداية: "نقسم العمل. هذا هو الحل الوحيد. أنا أجمع البيانات والإحصائيات عن الوقت المهدر في الدار البيضاء، وأحللها. منير، أنت تصمم المساحة والمخططات للمعرض، كيف سنعرض الصور والبيانات بطريقة جذابة. نادين، أنتِ تلتقطين الصور وترسمين لوحات تعبيرية عن الانتظار، وتربطينها بالجمالي. وآدم.."

توقفت. نظرت إليه. لم تكن تعرف ماذا يمكنه أن يفعل.

قال آدم، وكأنه يقرأ تفكيرها: "أنا أصلح الأشياء القديمة، كما تعرفين. يمكنني أن أجمع أدوات قديمة مرتبطة بالزمن: ساعات متوقفة، تقاويم قديمة من سبعينات القرن الماضي، خرائط قديمة للمدينة توضح كيف تغيرت مع الوقت. أعرضها مع الصور والبيانات، وكأن كل قطعة تحكي قصة انتظار خاصة بها."

نظرت ليلى إليه بإعجاب خفي، لكنها لم تظهره على وجهها. قالت: "حسناً. هذا جيد، هذا جيد جداً. لكن يجب أن نضع جدولاً زمنياً محدداً لكل مرحلة، وإلا لن ننجز شيئاً. أنا لا أحب الفوضى."

كانت تتحكم، وكانت تعرف ذلك. لكنها لم تستطع التوقف. بدأت تكتب على دفترها الأسود خطة مفصلة: الأسبوع الأول جمع المواد، الأسبوع الثاني التنسيق والتصميم، الأسبوع الثالث التنفيذ النهائي. وزعت المهام، حددت مواعيد نهائية ضيقة. لاحظت نادين تنظر إليها، وتقول بخجل: "أنتِ منظمة جداً. كأنكِ تعملين في شركة منذ عشر سنوات."

قالت ليلى، دون أن ترفع عينيها عن الدفتر: "أن تكون منظماً هو أن تحترم وقت الآخرين. ليس أكثر."

نظر آدم إليها، وقال بهدوء شديد، لدرجة أن نادين ومنير لم يسمعاه، لكنها سمعته بوضوح: "أو أن تخاف من أن يضيع الوقت لأنك تعرف أنه لن يعود. الخوف أيضاً دافع."

صمتت ليلى. لم تجد رداً. شعرت بأن آدم قال شيئاً عن نفسه، وليس عنها، لكنه أصابها في مقتل، في نقطة لم تعرف أنها موجودة. قررت تجاهل ذلك، وواصلت التخطيط، وكأن شيئاً لم يحدث.

في اليوم التالي، التقوا مجدداً في قاعة الأنشطة. كان الضوء الصباحي يتسرب من النوافذ، يخلق خطوطاً ذهبية على البلاط الرمادي. نادين كانت قد أحضرت بعض الصور التي التقطتها في المدينة خلال الأيام الماضية: رجل عجوز ينتظر في موقف حافلات،

نظره ثابت على الأفق كأنه ينتظر سفينة لم تعد تأتي؛ طفل جالس على رصيف أمام مدرسة، ينظر إلى ساعته كل دقيقتين، وكأن الوقت عدو؛ سيدة مسنة تقف أمام باب مغلق، وتحمل حقيبة تسوق فارغة، وكأنها تنتظر أن يفتحه أحد لها.

كانت الصور جميلة، مؤثرة، مليئة بالقصص. لكن ليلى نظرت إليها، وبعد صمت قصير، قالت بحزم: "نادين، هذه الصور انفعالية جداً. هي جميلة كفن، لكننا نحتاج إلى شيء أكثر موضوعية، شيء يوضح الفكرة بوضوح. المشاهد هنا رومانسية وحزينة، لكنها لا تعكس الإحصاءات. أين صور المواصلات العامة المكتظة؟ أين صور الناس في طوابير البنوك؟ هذه المواقف اليومية هي جوهر المشروع."

تغير وجه نادين. نظرت إلى صورها، وكأنها تنظر إلى أطفالها وهم يتعرضون للنقد. قالت بصوت خافت، يكاد يختفي في ضجيج القاعة: "لكن الفن ليس موضوعياً، ليلى. الفن هو ما تشعر به. هذه الصور ليست مجرد توثيق، إنها ما شعرت به عندما رأيت هؤلاء الناس. كل واحد منهم يحمل قصة انتظار مختلفة."

قالت ليلى، بصوت لم ترفعه لكنه كان حاداً كالسكين: "هذا معرض أكاديمي، ليس معرضاً شخصياً. يجب أن يكون لديه رسالة واضحة. الجمهور الذي سيأتون ليسوا نقاداً فنيين، بل أساتذة وطلاب من تخصصات مختلفة. إذا لم يفهموا الرسالة من النظرة الأولى، فشلنا."

رفع آدم رأسه، وقال بلهجة أكثر حدة مما توقعت منه: "يمكن أن تكون الرسالة أن الانتظار ليس إحصاءات فقط، بل مشاعر أيضاً. أليس هذا ما تدرسينه في علم النفس والعواطف؟ لماذا نحتاج إلى تجريد الإنسانية من المشروع؟"

نظرت إليه ليلى بانزعاج واضح. لم تكن معتادة على أن يعترض عليها أحد بهذه الطريقة، خاصة آدم الذي كان دائماً هادئاً. قالت: "نعم، لكن المشاعر بدون بيانات هي مجرد انطباعات شخصية. نحتاج إلى توازن. أنا لا أطلب منها أن تحذف صورها، بل أن تختار صوراً أكثر تنوعاً، أكثر تمثيلاً للحقيقة اليومية للناس."

نظر منير إلى كليهما، وقال بصوت توفيقي: "ماذا لو جمعنا بين الاثنين؟ الصور التي التقطتها نادين، الجميلة والمؤثرة، مع إحصائيات الوقت التي سنجمعها، ونعرضها جنباً إلى جنب، بحيث يشعر الزائر بالرقم ويتأثر بالصورة معاً. وكأننا نقول: هذا الإنسان في الصورة هو واحد من ملايين، وكلهم ينتظرون."

نظرت ليلى إلى منير، وقالت بعد تفكير: "هذا قد ينجح فعلاً. لكن يجب أن نضبط التصميم بدقة، بحيث لا تطغى الصور على الأرقام ولا العكس. سنحتاج إلى تنسيق بصري دقيق."

في تلك اللحظة، دخلت سوسن إلى القاعة دون استئذان، وكعادتها تصنع دخولاً مدوياً. رأت ليلى، فجاءت إليها بسرعة، وقالت بصوت عالٍ كأنها تعلن خبراً عاجلاً: "أنا سمعت إنك في فريق مع آدم! يا إلهي، أنتِ محظوظة. هو وسيم، ولا تقل لي إنكِ لم تلاحظي. كل البنات في قسم الفلسفة يتحدثن عنه."

احمرت ليلى خجلاً، لكنها تظاهرت بأنها لم تتأثر. قالت بسرعة، محاولة إسكات سوسن: "هذا ليس وقت المزاح، سوسن. نحن نعمل على مشروع مهم. لدينا ثلاثة أسابيع فقط."

ضحكت سوسن ضحكتها العالية: "حسناً، حسناً، لا تغضبي. أنا فقط جئت لأقول إن رنا تحضر معرضاً صغيراً في الاستوديو اليوم، وكل الفرق مدعوة. يمكنكم أن تستلهموا منها، فهي تعمل على موضوع مشابه: 'الأشياء التي تنتظر'." ثم مشت بعيداً كما جاءت، تاركة خلفها رائحة النيكوتين والقهوة والفوضى.

نظر آدم إلى ليلى، وقال بنبرة هادئة لكن فيها فضول: "هي صديقتك؟"

قالت ليلى، دون أن تنظر إليه: "ليست صديقتي. مجرد شخص أعرفه من الجامعة."

قال آدم: "لكنها تعرفني باسمي. أنا لم أقدم نفسي لها قط. كيف تعرفني؟"

وقفت ليلى من مكانها، وكأنها تريد الهروب من السؤال. قالت: "لا أدري. ربما قرأتِ اللوحة الإعلانية. دعنا نركز في العمل، لدينا الكثير لنفعله."

لكنها كانت تعرف أن سوسن كانت تتحدث عن آدم منذ أيام، وأنها كانت تذكره كثيراً، وكأنها تختبر رد فعل ليلى. كانت تعرف أن سوسن فضولية بطبعها، وأنها تحب أن تحيك القصص حول الناس.

استمر العمل لمدة ساعتين ونصف. ليلى كانت تجمع البيانات على حاسوبها المحمول، تدخل أرقاماً في جداول إكسل، وتحسب المتوسطات والانحرافات. منير كان يرسم مخططاً ثلاثي الأبعاد للمعرض على ورق شفاف، بخطوط دقيقة كخطوط الجراح. نادين كانت ترتب الصور حسب تسلسل زمني، وتضيف تعليقات صغيرة بخط يدها الجميل. وآدم... كان جالساً على الأرض، في زاوية القاعة، يحاول إصلاح ساعة قديمة أحضرها من متجر الأدوات المنزلية الذي رأته ليلى فيه الرجل العجوز قبل أيام. كانت عقارب الساعة متوقفة عند الساعة الثالثة تماماً.

نظرت ليلى إليه، وشعرت برغبة في معرفة المزيد. سألته: "هل يمكنك إصلاحها حقاً؟"

قال آدم، وهو يركز على التروس الصغيرة: "لا أعرف. في بعض الأحيان أصلحها، وفي أحيان أخرى أفسدها أكثر. لكني أحاول. إصلاح الساعات يعطيني شعوراً بأن الزمن يمكن التحكم فيه، حتى لو كان ذلك وهمياً."

ثم نظر إليها، وقال بهدوء: "في بعض الأحيان، الأشياء المكسورة تحتاج فقط إلى شخص يمسكها لفترة، إلى أن تجد قوتها الخاصة."

شعرت ليلى بأن الكلمات كانت موجهة إليها شخصياً، ربما إلى ذكرى ، أو إلى شيء في داخلها لم تكن تعرف أنه مكسور. لكنها لم تستطع أن تسأل. بدلاً من ذلك، عادت إلى حاسوبها، وكتبت أرقاماً لم تكن تحتاجها، فقط لتشغل يديها.

بعد منتصف النهار، حدث شيء غير متوقع. كانت ليلى تعدل البيانات، عندما لاحظت خطأً فادحاً في التوزيع الإحصائي الذي يعتمده فريق آخر في المعرض. كان فريقاً من طلاب الهندسة، يقودهم شاب اسمه ريان، كان يتباهى بصوته العالي بأن مشروعه هو

الأفضل. لاحظت ليلى أنهم يستخدمون متوسطاً حسابياً بسيطاً لبيانات معقدة، مما يؤدي إلى نتائج مضللة.

نهضت من مكانها دون تفكير، وذهبت إلى طاولتهم، وقالت بصوت واضح، كأنها تعلن حقيقة علمية: "أنتم تستخدمون متوسطاً حسابياً بسيطاً، لكن البيانات التي تجمعونها تتطلب تحليلاً مرجحاً يأخذ في الاعتبار التوزيع الجغرافي والزمني. إن لم تصححوا هذا الخطأ، سيكون معرضكم خاطئاً من الناحية العلمية. قد تحرجون أنفسكم أمام اللجنة."

نظر إليها ريان بغضب واضح، وقال بصوت مرتفع: "من أنتِ حتى تصححي عملي؟ أنا أشتغل على هذا المشروع منذ أسبوع كامل، وأستاذي راجع البيانات معي."

قالت ليلى بثقة، دون أن تتراجع: "أنا ليلى، قسم الاقتصاد. وقد درست الإحصاء التطبيقي العام الماضي. خطؤك واضح لأي طالب في السنة الثالثة. لا أريد أن أحرجك، لكني لا أريد أن يخسر فريق كامل بسبب خطأ بسيط."

كانت تشعر بأنها على حق تماماً، وأنها تفعل خدمة للجميع. لكنها لاحظت، من زاوية عينها، أن نادين كانت تنظر إليها بخوف وتراجع، وأن منير كان يبتعد خطوة إلى الوراء وكأنه يتجنب عاصفة، وأن آدم... كان يحدق في الأرض، ولا يرفع رأسه.

عادت إلى طاولتها، وجلست، وقالت بصوت منخفض لكن مسموع: "كان يجب أن يقولوا شكراً، لا أن ينظروا إليّ كأنني عدو."

قال آدم، دون أن يرفع رأسه عن الساعة التي كان يصلحها، بصوت هادئ لكن حاد: "ربما كان يجب أن تخبريهم بهدوء، وليس أمام الجميع. ربما كان يجب أن تنتظري حتى نهاية الاجتماع، وتتحدثي معهم على انفراد."

نظرت إليه بانزعاج: "لماذا؟ الحقيقة هي الحقيقة. لماذا نلف وندور؟"

رفع آدم رأسه، ونظر إليها مباشرة، ولأول مرة رأت عينيه بوضوح: كانتا داكنتين، عميقتين، تحملان شيئاً من التعب والألم. قال: "الحقيقة بدون لباقة ليست حقيقة، بل إحراج.

أنتِ لم تصححي خطأهم فقط، أنتِ فضحتهم أمام زملائهم. هذا لا يخدم أحداً، لا هم ولا أنتِ."

شعرت ليلى بأن شيئاً ما انكسر داخلها، كزجاجة سقطت على الأرض. لم تكن معتادة على أن يشكك أحد في أسلوبها، خاصة شخص لا تعرفه جيداً. قالت بحدة، وصوتها ارتفع قليلاً: "أنا لم أتوقف عن العمل لأجل مشاعر أحد. هذا معرض أكاديمي، ونحن لدينا ثلاثة أسابيع فقط. إذا لم نكن دقيقين، سنخسر. أنا لا أريد أن أخسر."

قال آدم، وهو يضع الساعة جانباً وينظر إليها بتركيز: "نادين كانت تبكي بالأمس عندما عادت إلى البيت. بعد أن قلتِ إن صورها انفعالية. أنتِ لم تشعري بذلك، لأنكِ كنتِ مشغولة بأن تكوني على حق."

توقفت ليلى. نظرت إلى نادين، التي كانت تنظر إلى الأرض، تعبث بأصابعها، ووجهها شاحب. لم تكن قد لاحظت أنها أبكتها. لم تكن قد لاحظت أي شيء سوى أرقامها وخطتها. شعرت فجأة بأنها وحش، بأنها أصبحت شيئاً لا تريده. لكنها لم تستطع أن تعتذر، لأنها كانت لا تزال تعتقد بأنها على حق في جوهر الأمر.

قال منير، محاولاً تخفيف التوتر: "أنا جائع جداً. دعنا نأخذ استراحة، نأكل شيئاً. نادين، تعالي معي إلى الكافتيريا، سمعت أنهم يعملون شطائر جديدة اليوم."

مشى منير مع نادين، وكان يضع يده على كتفها بلطف، كأنه يحميها من مزيد من الجروح. تركا ليلى وآدم وحدهما في القاعة، والضجيج من الفرق الأخرى كان يملأ المكان، لكن بينهما كان هناك صمت ثقيل.

بعد دقيقة كاملة، قال آدم أخيراً، بصوت هادئ جداً، يكاد يكون همساً: "هل تعرفين ما هو أسوأ من أن تكون مخطئاً؟"

نظرت إليه، ولم تجب.

تابع: "أن تكون على حق تماماً، ولكن لا أحد يريد أن يسمعك. لأنك جعلت الحق سلاحاً، وليس جسراً."

صمتت ليلى. كلماته كانت تضربها كموجات، كل موجة تكشف شيئاً لم تكن تعرفه عن نفسها. قالت بصوت خافت، غير مؤكد: "وما الحل؟ أن أصمت بينما الجميع يرتكبون الأخطاء؟"

قال آدم: "الحل ليس أن تصمتي. الحل أن تختاري الوقت المناسب، والطريقة المناسبة. أن تتذكري أن وراء كل خطأ إنساناً، وراء كل إنسان قصة، وراء كل قصة جراح. ذكاؤك قوتك، ليلى. لكنه قد يكون نقطة ضعفك إذا استخدمته كسلاح بدلاً من أن تستخدمه كأداة."

صمتت ليلى طويلاً. كان هذا أول مرة يخبرها أحد بهذا بهذه الوضوح. شعرت بالغضب أولاً، ثم بالخجل، ثم بشيء آخر، شيء يشبه الاعتراف الصامت بأنه قد يكون محقاً. ليس في جوهر المسألة، بل في الطريقة. قالت أخيراً، بصوت يكاد لا يسمع: "أنا لا أعرف كيف أكون... لطيفة. لا أعرف كيف أقول الأشياء دون أن تؤذي."

نظر إليها آدم، ورأت ابتسامة خفيفة على شفتيه، ليست ساخرة، بل دافئة تقريباً: "لستِ بحاجة إلى أن تكوني لطيفة، ليلى. فقط بحاجة إلى أن تتذكري أن الآخرين يشعرون، مثلك تماماً. أنتِ لستِ وحدك التي تحمل أشياء ثقيلة."

لم تفهم تماماً ما يعنيه بقوله "تحمل أشياء ثقيلة"، لكنها شعرت بأنه يعرف شيئاً عنها، ربما أكثر مما تخبره. لم تسأل، فقط أومأت برأسها.

عاد منير ونادين بعد عشر دقائق، ومعهم أربع شطائر جبن وعلبتان من العصير. ابتسمت نادين لليلى ابتسامة صغيرة، خجولة، وقالت بصوتها الخافت: "شكراً لكِ على ملاحظاتك عن الصور، ليلى. حتى لو كانت قاسية بعض الشيء، لكنها جعلتني أفكر بشكل أعمق. ربما أنا بحاجة إلى تنويع الصور، ربما إلى تصوير مشاهد أكثر يومية."

شعرت ليلى بارتياح غريب يغمرها. لم تكن معتادة على أن يشكرها أحد بعد أن تكون قاسية. قالت، وكلماتها جاءت بصعوبة: "أنا آسفة إذا جرحت مشاعرك، نادين. لم أقصد ذلك. أنا فقط... أريد أن يفوز فريقنا."

قالت نادين، وابتسامتها أصبحت أكبر: "أعرف. أنتِ فقط... حماسية جداً. لكن صورتي المفضلة هي التي انتقدتيها بشدة. هي عن سيدة عجوز تنتظر في محطة القطار. التقطتها وهي تنظر إلى الساعة كأنها تنتظر شيئاً لن يأتي أبداً. كنتُ أبكي عندما صورتُها، لأنها ذكرتني بجدتي."

نظرت ليلى إلى الصورة. وكانت هذه المرة تراها بعيون مختلفة. رأت التفاصيل الصغيرة: تجاعيد اليدين، نظرة العينين البائسة، الساعة الكبيرة خلفها التي تشبه الساعة في مقهى "أوراق". قالت: "أنتِ محقة. هذه الصورة جميلة جداً. ربما هي أهم صورة في المعرض. يجب أن نضعها في المركز."

ابتسمت نادين، وعيناها لمعتا: "شكراً، ليلى."

بعد الظهر، قرر الفريق أن يزور استوديو رنا، كما اقترحت سوسن. مشوا عبر شوارع الجامعة الخلفية، التي كانت هادئة في هذا الوقت، والأشجار تظلل الرصيف، ورياح خفيفة تحمل رائحة الأزهار من الحديقة القريبة. كانت المدينة هادئة، كأنها تأخذ نفساً عميقاً قبل المساء.

كان استوديو رنا صغيراً، كما تتذكر ليلى، لكنها لاحظت هذه المرة تفاصيل لم تنتبه لها من قبل: رائحة الفحم والورق، أرضية خشبية تصدر صريراً خفيفاً تحت الأقدام، نافذتان تطلان على شارع ضيق حيث يمكن رؤية الناس يمرون ببطء. رنا كانت قد أعدت معرضاً صغيراً من رسوماتها حول "الأشياء التي تنتظر".

كانت هناك لوحة لشارع فارغ في الليل، والمصابيح تضيء الرصيف الخالي. وأخرى لنافذة مضاءة في مبنى قديم، خلفها ظل إنسان يقرأ. ولوحة لكرسي وحيد في غرفة واسعة، عليه كتاب مفتوح. لكن اللوحة التي لفتت انتباه ليلى بشدة كانت مختلفة: رسم دقيق لساعة

حائط معلقة في مقهى، وعقاربها متوقفة عند الساعة 11:07. كانت الساعة مرسومة بألوان داكنة، كأنها تلفت النظر إلى نفسها، كأنها تقول: "انظر إلي، أنا المفتاح."

توقفت ليلى أمام اللوحة، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها. نظرت إلى رنا، وسألتها بصوت حاولت أن تجعله طبيعياً: "هذه الساعة... من أين رسمتها؟ إنها تبدو مألوفة جداً."

قالت رنا، وهي ترتب فرشاتها على الطاولة: "رأيتها في مقهى صغير . اسمه 'أوراق'. كنتُ أمر هناك قبل شهر، ورأيت الساعة معلقة فوق الباب. كانت متوقفة منذ سنوات، كما أخبرني النادل. شيء في توقفها جعلني أرسمها. كأنها تقول إن الزمن يمكن أن يتوقف، إذا اخترنا ذلك."

لم تخبر ليلى أحداً أنها رأت هذه الساعة من قبل، وأنها جلست تحتها، وتحدثت مع آدم هناك قبل أسابيع. لكنها شعرت بأن المدينة كانت تترابط أمامها، وأن الأسرار كانت تتقاطع بخيوط غير مرئية. نظرت إلى آدم، الذي كان ينظر هو الآخر إلى اللوحة، ولم يقل شيئاً. كان وجهه جامداً، لكن عينيه كانتا تحكيان قصة مختلفة، قصة لم تشاركها معها بعد.

عاد الفريق إلى قاعة الأنشطة في المساء. كانت الشمس قد بدأت تغرب، والضوء البرتقالي يتسلل من النوافذ، يخلق ظلالاً طويلة على البلاط. كان الجميع متعبين لكنهم كانوا راضين. نادين كانت تبتسم وهي ترتب صورها، ومنير كان يعدل آخر تفاصيل المخطط، وآدم... كان قد أصلح الساعة القديمة أخيراً.

دقت الساعة فجأة، وأصدرت صوتاً خافتاً، رنيناً قديماً لم تسمعه منذ سنوات. ثم بدأت عقاربها تتحرك ببطء، وكأنها تستيقظ من نوم طويل. نظر الجميع إليها بدهشة وإعجاب.

قال آدم، وهو ينظر إلى الساعة وكأنه ينظر إلى طفله: "هي تتحرك الآن. لكنها لا تزال تعرض الوقت الخطأ. هي متوقفة على الساعة الثالثة، لكنها تتحرك بشكل صحيح داخلياً. وكأنها تعيش في زمانها الخاص، زمان موازٍ للزمن الحقيقي."

نظرت ليلى إليه، وقالت، وشعرت أن كلماتها تحمل أكثر مما تقوله: "مثل الأشخاص الذين يظلون عالقين في لحظة معينة، لكنهم يستمرون في العيش، في التحرك، في التظاهر بأن كل شيء طبيعي."

نظر إليها آدم، وقال بنبرة خافتة جداً، كأنه يتحدث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إليها: "تماماً. تماماً مثلهم."

في تلك اللحظة، وقبل أن يسود الصمت، دخل الدكتور رشيد إلى القاعة. كان يحمل ملفاً أزرق اللون، ويبدو عليه الإرهاق. وقف أمام جميع الفرق، ورفع صوته ليعلن:

"أريد أن أخبركم جميعاً بشيء مهم. الفريق الفائز في المعرض، الذي سيتم اختياره من قبل لجنة مكونة من أساتذة من أقسام مختلفة، سيحصل على فرصة تدريب استثنائية: شهر كامل في مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية في باريس، مع تغطية كاملة للتكاليف. الاختيار سيكون بناءً على ثلاثة معايير: الإبداع، الدقة العلمية، والتأثير العام للعرض على الزوار. أنصحكم بالعمل بجد، لأن المنافسة ستكون قوية."

ساد صمت في القاعة، ثم اندلعت همهمات. نظرت ليلى إلى فريقها، وشعرت بأن قلبها ينبض بسرعة أكبر. باريس. فرصة التدريب. هذا كان شيئاً لم تتوقعه، شيئاً يتجاوز حدود الجامعة، حدود الدار البيضاء. نظرت إلى نادين التي كانت تحدق في الأرض، وإلى منير الذي كان يحسب شيئاً على أصابعه، وإلى آدم الذي كان ينظر إلى الساعة المصلحة وكأنها تحمل الإجابة.

قالت ليلى بصوت عالٍ، وكأنها تعلن قراراً: "يجب أن نفوز. ليس لأنني أريد باريس فقط، بل لأن فريقنا يستحق ذلك. لدينا فكرة جيدة، ولدينا مواهب مختلفة. لكن يجب أن نعمل بجد أكثر."

نظر منير إليها وقال بابتسامة متعبة: "أنتِ لا تنامين أبداً، صحيح؟ أنتِ مثل روبوت يشتغل على الكهرباء."

ضحكت ليلى، لأول مرة منذ أيام، ضحكة عفوية خفيفة: "أنام قليلاً. لكن النوم مبالغ فيه. هناك الكثير لنفعله."

وبينما كانوا يغادرون القاعة، وتناثر الطلاب في الممرات المظلمة، توقفت ليلى للحظة. كانت تنظر إلى طاولة مجاورة، حيث كانت كومة من الملفات القديمة ملقاة، تنتظر من ينقلها إلى المخزن. على سطح الكومة، كان هناك ملف واحد مختلف، غلافه من الورق المقوى البني، ومكتوب عليه بخط يدوي متقادم: "مشاريع سابقة – 1998".

فتحت الملف بفضول، وهي تعلم أنها لا تملك الحق في ذلك. لكن أصابعها كانت أسرع من عقلها. وجدت بداخله صوراً قديمة للجامعة، حين كانت المباني أقل حداثة، والطلاب يرتدون ملابس من زمن مضى. وجدت رسومات لمشاريع طلابية، بعضها كان مشابهاً لفكرتهم عن الزمن والانتظار. وفي نهاية الملف، تحت طبقة من الغبار، كانت هناك ورقة مطوية.

فتحت الورقة، وقرأت:

"الزمن ليس خطاً مستقيماً، بل دائرة نلتقي فيها بأنفسنا مراراً. كلما تقدمنا، نعود إلى حيث بدأنا. وكلما انتظرنا، نكتشف أن ما كنا ننتظره كان هناك طوال الوقت."

توقف قلبها. الخط... كان مشابهاً بشكل مدهش لخط البطاقة البريدية التي وجدتها في شقتها. نفس الرقة، نفس الميلان الطفيف إلى اليمين، نفس الطريقة التي تُرسم بها حروف الألف كأنها تنحني برفق.

أغلقت الملف بسرعة، ووضعته في مكانه، وكأنها تلمس شيئاً محرماً. نظرت حولها، لكن القاعة كانت خالية. خرجت إلى الممر، ووقفت تحت ضوء البارد. كانت تسأل نفسها: هل هذا ممكن؟ هل هناك خيط يربط بين هذه الورقة، والبطاقة البريدية، وربما شيء آخر لم تكتشفه بعد؟

خرجت من المبنى إلى الهواء البارد. السماء كانت قد تحولت إلى اللون الأزرق الداكن، والنجوم بدأت تظهر كثقوب صغيرة في قماش الليل. وقفت ليلى للحظة، تشعر بأن خيوطاً

غير مرئية كانت تتشابك حولها، وأن كل شيء كان يقودها إلى مكان ما، لكنها لم تكن تعرف أين. ولا لماذا.

نظرت إلى يدها، وكأنها كانت تبحث عن شيء تمسكه. لم تجد شيئاً. لكنها تذكرت المفتاح النحاسي في يد الرجل الغريب، وتذكرت الساعة المتوقفة، وتذكرت جملة آدم: "الأشياء المكسورة تحتاج فقط إلى شخص يمسكها لفترة."

ربما كانت هي أيضاً شيئاً مكسوراً. وربما كانت تحتاج إلى شخص يمسكها لفترة، حتى تجد قوتها الخاصة.

لكن السؤال الأعمق، الذي لم تجرؤ على طرحه على نفسها: من سيكون ذلك الشخص؟ ومن كتب تلك الكلمات في الملف القديم؟ ولماذا بدأ كل شيء يتقاطع الآن؟

كان الغد سيحمل إجابات، أو ربما أسئلة جديدة. لكنها شعرت، لأول مرة منذ سنوات، بأنها ليست وحدها في هذا الانتظار الطويل.

الفصل السادس:

"ما تخفيه الأوراق أحياناً أثقل مما تحمله."

استيقظت ليلى قبل المنبه بدقيقتين، وكعادتها، جلست على حافة السرير تنظر إلى النافذة. لكنها هذه المرة لم تفكر في المطر، ولا في البطاقة البريدية، ولا في والدها. كانت تفكر في الملف القديم الذي وجدته في قاعة الأنشطة، في الورقة التي تحمل جملة عن الزمن الدائري، وفي خط اليد الذي يشبه خط البطاقة البريدية بشكل مريب.

ارتدت ملابسها بسرعة: سروالاً أسود ضيقاً، وقميصاً بيجاً فضفاضاً، وربطت شعرها في ذيل حصان مشدود. أمسكت بحقيبتها وخرجت، لكنها لم تتجه إلى قاعة المحاضرات. اتجهت مباشرة إلى مبنى الإدارة، حيث كان الدكتور رشيد يعمل في مكتبه الصغير في الطابق الأرضي.

طرقت الباب، ودخلت دون انتظار إذن.

نظر إليها الدكتور رشيد من خلف نظارته، وكانت القهوة ساخنة أمامه على المكتب المزدحم بالأوراق. قال بدهشة: "ليلى؟ أليست محاضرتك الآن؟"

جلست أمامه دون استئذان، وأخرجت الملف القديم الذي كانت قد أخفته في حقيبتها منذ ليلة الأمس. وضعته على مكتبه، وقالت: "وجدت هذا في قاعة الأنشطة، بين الملفات المهملة. أريد أن أعرف لمن ينتمي، ولماذا تركته الإدارة هنا."

نظر الدكتور رشيد إلى الملف، ثم إلى ليلى، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة لكنها لم تصل إلى عينيه: "هذا ملف من التسعينات. طلابية. ليس له أهمية الآن."

قالت ليلى، وشعرت بأن شيئاً ما فيها يتمرد: "لكن هناك ورقة بداخله، مكتوب عليها جملة عن الزمن. الخط يشبه خط شيء وجدته من قبل. أريد أن أعرف من كتبها."

صمت الدكتور رشيد لحظة، ثم قال بصوت هادئ لكنه حازم: "ليلى، الملفات القديمة ليست مجال اهتمامك. أنتِ طالبة اقتصاد، ولديك مشروع جماعي يجب أن تركز عليه. فقط أعد الملف إلى مكانه."

وقفت ليلى، وشعرت بإحباط شديد. لكنها لم تتراجع: "هل هناك مكان في الجامعة يحتفظون فيه بالمحفوظات القديمة؟ أرشيف قديم، غرفة تخزين، أي شيء؟"

نظر إليها الدكتور رشيد طويلاً، ثم قال، وكأنه يتخذ قراراً: "هناك غرفة في الطابق السفلي من مبنى المكتبة. فيها كل ما تركه الطلاب والأساتذة منذ السبعينات. لكن الباب مغلق، ولا أحد يدخلها منذ سنوات. المفتاح عند الحارس القديم، أحمد. لكنه لا يعطيه لأي شخص. لو كنتِ مكانك، لن أضيع وقتي هناك."

لم تسمع ليلى النصيحة. خرجت من المكتب، واتجهت مباشرة إلى مبنى المكتبة، ولكن بدلاً من أن تصعد إلى الطوابق العلوية، نزلت الدرج الحجري الضيق إلى الطابق السفلي. كان الهواء يصبح أكثر برودة ورطوبة مع كل خطوة. وصلت إلى باب حديدي صدئ، عليه لافتة صفراء مكتوب عليها: "أرشيف الجامعة الدخول ممنوع". كان هناك قفل كبير معلق عليه، وقديماً جداً.

بحثت عن الحارس أحمد، فوجدته جالساً في غرفة صغيرة بجوار الباب الخلفي للمكتبة، رجلاً عجوزاً في السبعينات من عمره، يرتدي سترة صوفية بالية، وينظر إلى التلفاز الصغير على مكتبه. كان وجهه مجعداً كخريطة قديمة، وعيناه زرقاوان شبه شفافتين.

قالت له بصوت لطيف، حاولت ألا يبدو متطلباً: "أستاذ أحمد، أريد أن أدخل غرفة الأرشيف القديم في الطابق السفلي. قيل لي إن عندك المفتاح."

نظر إليها الرجل ببطء، ثم ضحك ضحكة جافة: "يا بنتي، هذه الغرفة لم يدخلها أحد من عشر سنين. كل شيء فيها متعفن، والورق يأكله الفئران. ليس فيها شيء يستحق."

قالت ليلى بإصرار: "أنا باحثة، أحتاج إلى الاطلاع على مشاريع سابقة من التسعينات. ربما أجد فيها أفكاراً لمشروعي الجامعي."

نظر إليها أحمد، ثم قال بصوت خافت، وكأنه يقرأ فكرها: "أنتِ ليلى، صح؟ بنت عبد الرحمن؟"

توقف قلب ليلى للحظة. كيف يعرف اسم والدها؟ قالت بدهشة: "نعم، لكن كيف تعرف اسم والدي؟"

لم يجب أحمد، فقط مد يده إلى درج مكتبه، وأخرج مفتاحاً حديدياً كبيراً جداً، عليه صدأ خفيف. وضعه على الطاولة، وقال: "خذي المفتاح، لكن أرجوكِ، لا تلمسي أي شيء في الزاوية اليمنى الخلفية. هناك أوراق خاصة، ليست لكِ."

أخذت ليلى المفتاح، وشعرت بأن يديها ترتجفان. لم تسأل عن معنى كلماته، لكنها شعرت بأن شيئاً ما في هذه الغرفة ينتظرها، منذ سنوات طويلة.

فتحت الباب الحديدي بمشقة، وصدر صوت صرير طويل كأن الباب لم يفتح منذ حقبة. دخلت الغرفة الصغيرة، وكان الهواء داخلها كثيفاً، ممزوجاً برائحة الغبار والورق المتعفن ورائحة الخشب القديم الرطب. كان الضوء خافتاً، من نافذة صغيرة عالية جداً، تكاد تلامس السقف، يمر منها شعاع واحد رفيع من الضوء الصباحي يتلألأ مع جسيمات الغبار المعلقة في الهواء.

كانت الغرفة بحجم غرفة نوم صغيرة، مليئة برفوف حديدية تمتد من الأرض إلى السقف، عليها صناديق كرتونية ومجلدات جلدية وأكوام من الأوراق المتناثرة. كانت هناك طاولة خشبية في المنتصف، عليها مصباح صغير مغطى بالغبار، وكرسي مكسور الساقين.

بدأت ليلى تفتش الصناديق، بحذر شديد. كانت تبحث عن أي شيء من عام 1998، عن أي ملف يحمل خط اليد الذي بدأت تعرفه. وجدت صناديق من الثمانينات، والتسعينات، والألفينات. لكن في صندوق قريب من الزاوية اليمنى الخلفية، وجدت شيئاً.

كان دفتراً صغيراً، غلافه من الجلد الأسود، متآكلاً من الزوايا. على الغلاف، كتب بالذهب الباهت: "ملاحظات 1997-1998". فتحته، وكانت الصفحات صفراء اللون،

هشة كأوراق الخريف. كانت مكتوبة بخط يد أنيق، رقيق، يشبه خط البطاقة البريدية. بدأ قلب ليلى ينبض بشكل أسرع.

بدأت تقرأ الصفحات الأولى. كانت ملاحظات عن مشروع أكاديمي حول "الذاكرة الجماعية والمدينة". الكاتب كان طالباً، ربما في قسم الفلسفة أو علم النفس. تحدث عن كيف أن المدن تحتفظ بذكريات سكانها، وكيف أن الأماكن يمكن أن تكون شاهدة على أشياء لم يروها أحد.

ثم وصلت إلى صفحة، في منتصف الدفتر، كان فيها شيء مختلف.

كتب الكاتب:

"التقيت اليوم بعبد الرحمن. طالب جديد في قسم الاقتصاد. قال لي إنه يكتب رسالة عن الانتظار، عن كيف ننتظر أشياء لا تأتي أبداً. ضحكتُ، وقلتُ له إن الانتظار هو المدينة نفسها. قال لي إنه سيأتي إلى المكتبة غداً، وأنا سأريه بعضاً من ملاحظاتي. هو غريب، لكنه يطرح أسئلة لا يطرحها أحد."

توقفت ليلى. عبد الرحمن. هذا اسم والدها. والدها كان طالباً في هذه الجامعة؟ في التسعينات؟ والدتها لم تخبرها أبداً. كانت تعتقد أن والدها درس في الخارج، في فرنسا أو في كندا. لكنه كان هنا، في نفس المبنى، في نفس الممرات التي تمشي فيها هي الآن.

واصلت القراءة. في صفحة لاحقة:

"عبد الرحمن اختفى فجأة. لم يأتِ إلى المكتبة كما وعد. حاولت الاتصال به، لكن رقمه لم يعد يعمل. سألت عنه في قسم الاقتصاد، قالوا لي إنه ترك الجامعة فجأة، دون سبب. لا أعرف إن كان سيئاً أم لا. لكني أحتفظ بورقة كتبها لي، فيها جملة جميلة عن الزمن. لا أعرف إن كان سيعود."

انقلبت صفحة أخرى، لكنها كانت فارغة. ثم صفحة أخرى، وفيها شيء غريب: صورة صغيرة، ملصقة بالغراء القديم. كانت صورة جماعية لطلاب، ربما من عام 1998، يقفون

أمام مبنى الجامعة القديم. كان هناك حوالي عشرين طالباً. في الصف الأمامي، كان هناك رجل شاب، وسيم، بشعر أسود، وعيون داكنة، يبتسم ابتسامة خفيفة. تعرفت ليلى عليه فوراً: كان والدها. كان أصغر سناً، لكنه هو. بجانبه، كان هناك شاب آخر، طويل، نحيف، يرتدي نظارة دائرية، ويداه في جيبه. كانت ملامحه غريبة: شعر أشقر، وجه طويل، ونظرة عينيه حادة، كأنه يرى ما لا يراه الآخرون.

نظرت ليلى إلى الصورة طويلاً. من هذا الرجل؟ هل هو كاتب الدفتر؟ هل هو من كتب البطاقة البريدية؟ ولماذا اختفى والدها من الجامعة، ولم تخبرها أمها أبداً بذلك؟

قلبت الصفحة الأخيرة من الدفتر، وكانت مكتوبة بخط مختلف، أكبر، وأكثر عجلة. وكأن شخصاً آخر كتبها في وقت لاحق:

"عبد الرحمن عاد، لكنه لم يعد كما كان. تغيرت عيناه. قال لي إنه يجب أن يغادر المدينة، وإنه لا يستطيع أن يشرح السبب. أعطاني شيئاً ليحفظه، وقال إنني سأعرفه عندما أراه. لم أفهم، لكني وعدته أن أحتفظ به."

لم يكن هناك شيء آخر. الدفتر انتهى. شعرت ليلى بأنها تمسك بقطعة من حياة والدها لم تعرفها من قبل. لكنها شعرت أيضاً بأن هناك خيوطاً كثيرة لم تتصل بعد.

أخرجت هاتفها، والتقطت صوراً للصفحات المهمة، وللصورة الجماعية. كانت ستأخذ الدفتر معها، لكن شيئاً ما أوقفها. كلمات الحارس أحمد كانت ترن في أذنها: "لا تلمسي أي شيء في الزاوية اليمنى الخلفية." وضعت الدفتر في مكانه، وأغلقت الصندوق، وخرجت من الغرفة، وأعادت القفل كما كان.

عادت إلى الحارس أحمد، وأعادت له المفتاح. نظر إليها، وقال: "وجدتِ ما كنتِ تبحثين عنه؟"

نظرت ليلى إليه، وتجرأت على السؤال: "أستاذ أحمد، كيف تعرف والدي؟"

صمت الرجل طويلاً، ثم قال، وصوته غارق في الحنين: "عبد الرحمن كان طالباً هنا. كان يحضر إلى هذه المكتبة كل يوم، ويجلس في نفس الزاوية، ويكتب في دفتره. كان شاباً طيباً، كثير الأسئلة. ثم اختفى. لم يقل لأحد لماذا. لكنه ترك شيئاً هنا، عندي، وقال لي إنه قد يأتي أحد يسأل عنه. وها أنتِ قد جئتِ."

أخرج أحمد من درج مكتبه شيئاً صغيراً، ملفوفاً في قطعة قماش بيضاء. فتحها ببطء، وكان بداخلها مفتاح. مفتاح نحاسي، قديم جداً، يشبه المفتاح الذي رأته ليلى في يد الرجل الغريب تحت شجرة التين، لكنه ليس نفسه. كان أصغر حجماً، وأكثر تفصيلاً، عليه نقوش دقيقة.

قال أحمد: "هذا المفتاح، قال لي والدك إنه يفتح باباً في مكان لا أعرفه. وقال إنه سيأتي يوماً ويسترده. لكنه لم يأتِ أبداً. خذيه، ربما أنتِ من ستجد الباب الذي يفتحه."

أخذت ليلى المفتاح، وشعرت بثقله في يدها. كان بارداً، كأنه يحمل برد سنوات الانتظار. نظرت إلى أحمد، وقالت: "شكراً لك."

خرجت من المكتبة، وكانت الشمس في كبد السماء، والطلاب يملؤون الفناء. جلست على مقعد تحت شجرة التين، ونظرت إلى المفتاح الصغير في يدها. كانت تتساءل: أين يفتح هذا الباب؟ وما الذي كان يخفيه والدي؟ ولماذا لم تخبرها أمها بأي شيء عن هذه الفترة من حياته؟

في المساء، ذهبت ليلى إلى استوديو رنا، وكانت سوسن هناك بالفعل، تجلس على الأرض وتأكل فواكه مجففة. أخبرت ليلى رنا وسوسن بما وجدته، لكنها لم تخبرهما بكل شيء، خاصة عن والدها. قالت فقط إنها وجدت دفتراً قديماً عن مشروع جامعي.

قالت رنا، وهي تنظر إلى المفتاح الذي كانت ليلى تمسكه: "هذا المفتاح جميل. النقوش عليه تشبه نقوش الأبواب القديمة في المدينة العتيقة. ربما يفتح بيتاً قديماً، أو صندوقاً، أو أي شيء."

قالت سوسن: "أنا أعرف رجلاً يبيع أشياء قديمة في سوق الجمعة. يمكنه أن يخبرنا عن المفتاح، عن أصله، عن عمره. إذا كنتِ تريدين."

أومأت ليلى، دون أن تقرر. كانت تشعر بأنها تقترب من شيء، لكنها لم تكن تعرف ما هو.

في الطريق إلى البيت، مرت ليلى بمقهى "أوراق". توقفت، ودخلت. جلست على طاولتها المعتادة، بجانب النافذة، ونظرت إلى الساعة المتوقفة. كانت عقاربها لا تزال عند 11:07. طلبت كوباً من الشاي، وأخرجت هاتفها، وبدأت تنظر إلى الصور التي التقطتها من الدفتر.

وفجأة، لاحظت شيئاً لم تنتبه له من قبل.

في الصورة الجماعية، خلف والدها، في الصف الخلفي، كان هناك شخص يقف خلف الآخرين، جزء من وجهه مخفي، لكن عينيه كانتا ظاهرتين. كانت العينان تنظران مباشرة إلى الكاميرا، وكأنهما تعرفان أنها ستُرى بعد سنوات.

كبرت الصورة على شاشة الهاتف، وحاولت أن ترى ملامح ذلك الوجه. لم تكن واضحة، لكن شيئاً فيه كان مألوفاً. خط الفك، شكل الحاجبين، طريقة وقوفه وكأنه يختبئ خلف الآخرين.

ثم تذكرت.

الرجل الذي كان يجلس على مقعد تحت شجرة التين كل يوم. الرجل الذي يحمل المفتاح النحاسي الكبير. الرجل الغريب الذي لا يتحدث مع أحد.

كانت نفس العينين.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدها. هل هذا الرجل كان طالباً في الجامعة عام 1998؟ وهل كان يعرف والدها؟ وهل كان يراقبها كل هذه الأيام دون أن تعرف؟

نهضت من مقعدها بسرعة، وألقت نقوداً على الطاولة، وخرجت من المقهى. كانت السماء قد أظلمت، وأنوار المدينة بدأت تتلألأ. مشت بسرعة نحو شقتها، وكان قلبها يدق بسرعة. دخلت المبنى، وصعدت الدرج، ودخلت الشقة، وأغلقت الباب خلفها.

جلست على الأريكة، تنظر إلى المفتاح الصغير في يدها، وإلى صور الهاتف، وإلى البطاقة البريدية على الطاولة. كانت الأشياء تتجمع، لكنها لا تعرف كيف ترتبها.

ثم تذكرت شيئاً آخر. في الصورة الجماعية، إلى يمين والدها، كان الشاب الأشقر ذو النظارة الدائرية. الشاب الذي كتب الدفتر. كان وجهه يبدو مألوفاً أيضاً.

رن هاتفها فجأة، وكانت رسالة من سوسن:

"نسيت أن أخبرك. رنا قالت إنها رأت الرجل الغريب الذي يجلس تحت شجرة التين اليوم، وهو يمر بجوار الاستوديو. توقف ونظر من النافذة إلى لوحتها عن الساعة المتوقفة. ثم مشى. غريب، صح؟"

وقفت ليلى من الأريكة، وذهبت إلى النافذة. كانت المدينة مضاءة، والناس يمشون في الشوارع. نظرت إلى الأسفل، ورأت ظلاً بعيداً، يتحرك ببطء، وكأنه ينتظر شيئاً أيضاً.

لم تكن تعرف إن كانت تتخيل، أم أنها أصبحت ترى خيوطاً حيث لا توجد خيوط.

لكنها كانت تعرف شيئاً واحداً:

أنها لن تتوقف عن البحث.

الفصل السابع:

"أحياناً تكون الأسئلة أجمل عندما تبقى معلقة، لأن إجابتها قد تكسر ما نتمسك به."

استيقظت ليلى في الخامسة فجراً، وهو أمر لم تفعله من قبل. لم يكن منبهاً أيقظها، ولا قلقاً، بل شعور غريب بأن عليها أن تتحرك. جلست على حافة السرير، ونظرت إلى المفتاح النحاسي الصغير الذي وضعته على الطاولة الليلية. كان يعكس ضوء القمر الخافت الذي يتسلل من الستارة.

نهضت، وارتدت ملابسها: جينز أزرق داكن، وسترة صوفية سوداء، وحذاءً مريحاً. وضعت المفتاح في جيبها، وأمسكت بحقيبتها، وخرجت من الشقة دون أن تترك رسالة لهدى التي كانت لا تزال نائمة.

كانت المدينة باردة في هذه الساعة، والشوارع فارغة تقريباً، باستثناء بعض عمال النظافة وبائع فول سوداني مبكر. مشت ليلى بخطى سريعة نحو مركز المدينة، حيث كانت قد لاحظت من قبل متجراً لبيع التحف القديمة في نهاية شارع الحسن الثاني. لم يكن مفتوحاً بعد، فجلست على حجر رصيف قريب، وانتظرت.

كانت تنتظر ليس لأنها متحمسة، بل لأنها كانت تخاف أن تتراجع إذا عادت إلى البيت. كانت تعرف أن ما تفعله غريب، أن طالبة اقتصاد في عامها الثالث تذهب في الخامسة فجراً لتبحث عن باب يفتحه مفتاح قديم، لكنها لم تستطع التوقف. الأصابع التي تمسك بالمفتاح كانت ترتجف، ليس من البرد، بل من شيء آخر.

عند السابعة صباحاً، فتح الرجل العجوز صاحب المتجر، ونظر إليها باستغراب. كان رجلاً في الستين من عمره، يرتدي مريلة زرقاء، ويمسك بفنجان قهوة. قالت له: "أنا أبحث عن باب يفتحه هذا المفتاح."

أخرجت المفتاح من جيبها. نظر إليه الرجل طويلاً، ورفع نظارته، ثم قال: "هذا المفتاح ليس من متجري. أنا لا أبيع مفاتيح. لكني رأيت مثله مرة."

أين؟ سألت ليلى، وهي تقترب منه.

"في بيت قديم في المدينة العتيقة. عند باب خشبي منقوش. كنت أمشي هناك منذ سنوات، ورأيت رجلاً يفتح ذلك الباب بمفتاح يشبه هذا. لم أسأله عن شيء، لكني تذكرت المفتاح لأن نقوشه كانت غريبة، كأنها تحكي قصة."

أعطاها الرجل عنواناً تقريبياً، ووصفاً للزقاق. شكرته، واندفعت نحو المدينة العتيقة.

كانت المدينة العتيقة تفيق ببطء. الأزقة الضيقة كانت لا تزال فارغة، ورائحة الخبز الطازج تخرج من مخبز قديم. مشت ليلى بسرعة، تنظر إلى الأبواب الخشبية، تبحث عن النقوش التي وصفها الرجل.

بعد نصف ساعة من التيهان، وجدته. كان باباً خشبياً عتيقاً، ضخماً، منقوشاً بنقوش هندسية دقيقة، تشبه نقوش المفتاح تماماً. وقفت أمامه، وأخرجت المفتاح، وأدخلته في ثقب المفتاح الصدئ.

لم يدخل بسهولة. حاولت مرة، مرتين، ثلاث مرات. ثم أخيراً، انزلق المفتاح إلى الداخل، وأصدر صوتاً خافتاً. أدارته، وشعرت بمقاومة، ثم سمعت صوت قفل ينزلق. دفعت الباب ببطء، فأصدر صريراً طويلاً، وفتح على مصراعيه.

كان الباب يؤدي إلى فناء داخلي صغير، مكشوف للسماء، تتوسطه نافورة يابسة، وحوله أربعة أبواب خشبية أخرى تؤدي إلى غرف. كان الفناء مهجوراً، مليئاً بأوراق الشجر الجافة، والغبار، وشباك العنكبوت التي تغطي الزوايا.

وقفت ليلى في منتصف الفناء، تدور ببطء، تحاول أن تفهم أين هي. كان هناك شيء غريب في الهواء، كأن المكان يحتفظ بصوت أحدهم، بصوت قديم.

دخلت الغرفة على اليمين. كانت غرفة صغيرة، بها طاولة خشبية، وكرسي، ورفوف فارغة، وبعض الأوراق المتناثرة على الأرض. في زاوية الغرفة، كان هناك صندوق خشبي صغير، عليه طبقة سميكة من الغبار. جثت على ركبتيها، وفتحت الصندوق.

كان بداخله أغراضاً شخصية: ساعة جيب قديمة متوقفة، ونظارة شمسية مكسورة، ودفتر صغير مغطى بالغبار، وصورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود. أخذت الصورة، ونظرت إليها.

كانت صورة لامرأة شابة، في العشرينات من عمرها، ترتدي فستاناً أبيض، وتقف أمام باب هذا البيت نفسه. كانت تبتسم ابتسامة خفيفة، وعيناها تنظران إلى الكاميرا كأنها تعرف أن هذه الصورة ستُرى بعد سنوات طويلة.

نظرت إلى ظهر الصورة. كان مكتوباً بخط يد رقيق: "ليلى. 1985."

توقف قلبها. اسم ليلى. اسمها. لكنها لم تولد إلا في عام 1995. من هذه المرأة التي تحمل اسمها وتقف أمام هذا البيت قبل عشر سنوات من ولادتها؟

أخرجت هاتفها، والتقطت صوراً للصورة، وللساعة، وللدفتر الصغير، وللغرفة كلها. ثم وضعت كل شيء في مكانه، وأغلقت الصندوق، وخرجت من البيت، وأغلقت الباب خلفها.

وقفت في الزقاق الضيق، والمفتاح لا يزال في يدها، وصورة المرأة العائدة من زمن مضى ترن في رأسها. من أنتِ؟ ولماذا تحملين اسمي؟ وهل كان والدي يعرفكِ؟

عادت إلى الجامعة متأخرة عن محاضرتها الأولى. دخلت قاعة المحاضرات بهدوء، وجلست في مقعدها الخلفي، تحاول أن تركز على شرح الدكتور رشيد عن "نظرية الاختيار العام"، لكن عقلها كان في مكان آخر.

بعد المحاضرة، تقدمت إليها نادين، وكانت تبدو شاحبة أكثر من المعتاد. قالت: "ليلى، أريد أن أتحدث معكِ."

جلستا على مقعد في الفناء، بعيداً عن شجرة التين حيث يجلس الرجل الغريب. نادين كانت تعبث بحافة قميصها، وكأنها تبحث عن الكلمات.

قالت بصوت خافت: "أنا أفكر في ترك الجامعة. شعور زاد عندي منذ أسابيع، وكلما حضرت محاضراتي أحس بأنني لست في مكاني الصحيح. الرسم هو ما يمنحني الحياة، لكن دراستي للفنون هنا لا تشبه ما أردته. أريد أن أرسم بحرية، لا أن أحفظ تواريخ وتيارات فنية. أبي يريدني أن أكمل، لكنه لا يفهم أنني أعاني كل يوم."

نظرت ليلى إليها، ولم تقل ما كانت ستفعله قبل أسابيع: "لكن يجب أن تكوني عملية، يجب أن تفكري في مستقبلك." بدلاً من ذلك، تذكرت كيف شعرت هذا الصباح وهي تقف أمام البيت القديم، وكيف شعرت أن هناك شيئاً أكبر منها يدعوها. قالت: "لا أعرف ما القرار الصحيح. لكني أعرف أنك إذا شعرت بأن شيئاً يقتلك يوماً بعد يوم، فعليك أن تستمعي لذلك."

نظرت نادين إليها بامتنان: "شكراً لكِ. هذا أول شخص يقول لي ذلك دون أن يحاول إقناعي بالبقاء."

عند منتصف النهار، وجدت ليلى نفسها تمشي في ممرات مبنى العلوم الإنسانية، حيث رأت آدم جالساً على مقعد في نهاية الممر، وحده. كان يحمل ساعة يد قديمة، ويحاول إصلاحها بمجموعة أدوات صغيرة، لكن يده كانت ترتجف قليلاً، مما جعله يخطئ في وضع قطعة صغيرة فتسقط على الأرض.

نظر إليها آدم، وقال بابتسامة محرجة: "تعرفين، أحياناً أظن أنني أصلح الساعات لأثبت لنفسي أنني أستطيع إصلاح شيء واحد على الأقل."

جلست بجانبه، دون أن تطلب إذناً. قالت: "أنا أيضاً أحاول إصلاح أشياء لا أعرف كيف أصلحها."

نظر إليها، وصمت. ثم قال: "منذ فترة لاحظتكِ، ليلى. أنتِ تبحثين عن شيء. ليس فقط في الكتب، بل في الناس، وفي الأماكن، وكأنك تريدين أن تجدي إجابة لسؤال لم تطرحيه بعد."

لم تجبه. لكنها أخرجت صورة المرأة من جيبها، وأرتها له.

قال آدم: "من هذه؟"

"لا أعرف. وجدتها هذا الصباح. اسمها ليلى أيضاً."

نظر إليها طويلاً، ثم قال، وكل كلمة كانت مدروسة: "أحياناً نجد أشياء لا نفهمها، ليس لأنها غامضة، بل لأننا لسنا مستعدين لفهمها بعد."

نهض، ووضع الساعة التي لم يصلحها في جيبه، وقال: "إذا كنتِ تريدين، أعرف شخصاً يعرف المدينة العتيقة جيداً. يمكن أن يساعدكِ."

مشى بعيداً، تاركاً ليلى مع الصورة في يدها، وشعور بأن آدم يعرف أكثر مما يقول.

في وقت متأخر من الليل، عادت ليلى إلى شقتها. كانت متعبة جسدياً، لكن عقلها كان يقفز بين الصور: البيت القديم، صورة المرأة، المفتاح، والدها الذي اختفى، الرجل الغريب، دفتر الملاحظات، سوسن ورنا ونادين وآدم. كلهم كانوا يدورون حول شيء واحد، شيء لم تره بعد.

فتحت حقيبتها، وأخرجت الصورة التي التقطتها للصورة القديمة. نظرت إليها طويلاً، ثم إلى المفتاح الذي لا يزال في جيبها. قررت شيئاً: ستذهب إلى هناك مجدداً غداً، وستفتح الأبواب الأخرى في الفناء، وستكتشف ما تخفيه تلك الغرف.

لكن قبل أن تنام، كتبت في دفترها الأسود:

"اليوم وجدت امرأة تحمل اسمي، تقف أمام بيت لم أره من قبل، في عام لم أولد فيه.
سؤال واحد فقط يهمني الآن: من أنتِ، وما الذي يربطك بي؟"

نامت و المفتاح تحت وسادتها، كأنها تحمي شيئاً لا تعرف كيف تحميه.

الفصل الثامن: الأشياء التي لا نجدها... بل تجدنا

*"ليس كل ما تبحث عنه يحتاج إلى أن تجده. بعض الأشياء تنتظر أن تمر في طريقك."

عادت ليلى إلى البيت القديم في اليوم التالي. لكنها لم تذهب في الخامسة فجراً هذه المرة، بل في العاشرة صباحاً، بعد أن تأكدت أن الشوارع ستكون مزدحمة بما يكفي حتى لا يشعر أحد بمراقبته. حملت حقيبة صغيرة فيها هاتفها، وكاميرا رقمية صغيرة كانت تملكها من سنوات، وقلمين ودفتراً.

وقفت أمام الباب الخشبي المنقوش، وأخرجت المفتاح النحاسي من جيبها. لكنها توقفت. كان الباب مغلقاً، لكنه بدا لها مختلفاً. كان هناك خدش جديد على حافة الباب، وكأن أحداً فتحه منذ زيارتها الأخيرة. لكنها كانت متأكدة أنها أغلقه جيداً. نظرت إلى اليمين واليسار، لم تر أحداً. أدخلت المفتاح، وفتحت الباب، ودخلت.

الفناء كان كما تركته: الأوراق الجافة، النافورة اليابسة، الهواء الثقيل. لكن هناك شيئاً مختلفاً. الباب الثاني على اليسار، الذي كانت تنوي فتحه اليوم، كان مفتوحاً قليلاً، وكأن أحداً دخل منه مؤخراً.

شعرت ليلى بقشعريرة. تقدمت ببطء نحو الباب، ودفعته بأطراف أصابعها. فتح على مصراعيه، وكشفت عن غرفة كانت مختلفة عن الأولى. كانت هذه الغرفة أكبر، فيها سرير قديم مغطى بغطاء أبيض متسخ، وخزانة خشبية ضخمة، وطاولة مكتوب عليها بأقلام مختلفة. علقت أنفاسها للحظة، ثم دخلت.

على الطاولة، كان هناك كتاب مفتوح. كتاب كبير، صفحاته صفراء، وعنوانه بالفرنسية: "Les oubliés de la mémoire". انتقلت يدها فوق الصفحة المفتوحة، عندما لاحظت شيئاً ما. كانت هناك صورة صغيرة محشورة بين الصفحات، في منتصف الكتاب. سحبها ببطء، وخفق قلبها.

كانت صورة شخصين: رجل وامرأة، يقفان معاً في فناء هذا البيت نفسه. الرجل كان شاباً، في أوائل العشرينات، يرتدي قميصاً أبيض، شعره أسود كثيف، وابتسامة عريضة على وجهه. تعرفت عليه فوراً. كان والدها. عبد الرحمن. ولكن بجانبه كانت تقف المرأة التي رأت صورتها بالأمس. ليلى 1985. كانا يقفان معاً، يبتسمان للكاميرا وكأن الحياة كانت أسهل بكثير.

نظرت إلى ظهر الصورة. كان مكتوباً بخط يد رقيق: "عبد الرحمن وليلى – 1986. أمام المنزل الذي سيكون لنا يوماً ما."

أمام المنزل الذي سيكون لنا يوماً ما. جملة جعلت قلبها يتوقف. هذا المنزل. هذا البيت. كان منزل والديها. والدها وامرأة اسمها ليلى. واسمها ليلى. عيناها التقتا بالمرأة في الصورة، وبدأت تفهم شيئاً. ربما هذه المرأة كانت أمها. لكن اسمها ليلى أيضاً. هل كانت والدتها تدعى ليلى؟ لم تخبرها والدتها أبداً بذلك. كانت تعرف والدتها باسم فاطمة، وكانت تظن أن هذا اسمها منذ ولادتها.

أخرجت هاتفها، والتقطت صوراً للصورة، وللكتاب المفتوح، وللغرفة بأكملها. ثم جلست على الأرض، وحاولت أن ترتب أفكارها. والدها وامرأة اسمها ليلى، في هذا البيت عام 1986. هذا البيت سيكون لهما يوماً ما. ولكن من أين جاءت فاطمة؟ ولماذا أُخفت هذه الحقيقة عنها؟

نهضت، وعادت إلى الفناء. هناك ثلاثة أبواب أخرى لم تفتحها بعد. لكنها هذه المرة لم تكن مستعدة. شعرت أنها تقترب من شيء أكبر مما تتصور، وأنها بحاجة إلى مساعدة. لكن من؟ لا يمكنها أن تخبر أحداً بعد.

قررت أن تذهب إلى أرشيف البلدية. ربما هناك سجلات عن هذا البيت، عن مالكيه، عن تاريخه.

في أرشيف البلدية، في قاعة ضخمة مزدحمة برفوف الكتب والملفات، جلست أمام موظف شاب اسمه حميد، كان يرتدي نظارة سميكة ويبتسم طوال الوقت. عندما أخبرته أنها تبحث عن سجلات عقارية لبيت قديم في المدينة العتيقة، نظر إليها بحذر.

قال حميد: "الأرشيف الرقمي لا يغطي كل البيوت القديمة. بعضها لا يزال في الملفات الورقية في الطابق السفلي. هل لديكم أي معلومات عن الرقم العقاري أو اسم المالك؟"

أخرجت ليلى صورة البيت التي التقطتها بهاتفها. نظر إليها حميد، ثم تغيرت ملامحه قليلاً. قال: "هذا البيت... أعرفه. كان مسجلاً باسم عائلة واحدة منذ الخمسينات. لكنه بيع عام 1998 لشخص، ثم أُغلق ولم يفتح منذ ذلك الحين."

صاحبت ليلى: "لمن بيع؟"

نظر إليها حميد، وتردد: "عبد الرحمن. عبد الرحمن السعدي. هل تعرفينه؟"

شعرت ليلى بأن العالم يدور حولها. والدها اشترى هذا البيت عام 1998. نفس العام الذي اختفى فيه من الجامعة. كان لديه هذا البيت، وكان يعرف هذه المرأة التي تحمل اسمها، ولم تخبرها أمها بأي شيء.

شكرت حميد، وغادرت. لكنها في الخارج، توقفت لحظة، أخرجت هاتفها، وكتبت في ملاحظاتها:

"1998: أبي اشترى البيت. 1998: أبي اختفى من الجامعة. 1998: شيء بدأ، وشيء انتهى."

في طريق العودة إلى الجامعة، صادفت صدفة غريبة. كانت تمشي في شارع الحسن الثاني عندما رأت آدم جالساً في مقهى صغير، وحده. كانت أمامه فنجان قهوة بارد ولم يلمسه، وينظر من النافذة بملامح متعبة. دخلت المقهى، وجلست أمامه دون استئذان. نظر إليها، وقال: "أنتِ هنا؟"

قالت: "وأنت؟ تبدو وكأنك تحمل العالم على كتفيك."

لم يضحك، بل قال: "اليوم فقدت شيئاً. ساعة قديمة كانت عندي منذ سنوات، حاولت إصلاحها، لكني أضعتها في الشارع. كانت تخص جدي. كنت أحاول إصلاحها منذ سنتين، واليوم عندما كنت أمشي، سقطت من جيبي ولم أجدها."

شعرت ليلى بالأسف. قالت: "ربما تجدها."

نظر إليها، وقال: "أنا لا أصدق كثيراً أن الأشياء تجدنا. لكني أصدق أنها تختفي لأسباب."

صمتت. ثم أخرجت هاتفها، وأرته الصورة التي التقطتها للتو: والدها والمرأة في فناء البيت. نظر إليها طويلاً.

قال آدم: "هذه ليلى أيضاً؟"

أومأت: "نعم. وأعتقد أنها قد تكون أمي. لكن اسمها فاطمة. ليس ليلى. لا أعرف شيئاً. كلما بحثت، أصبحت أكثر حيرة."

نظر إليها آدم، وقال: "ربما ليس عليكِ أن تفهمي كل شيء اليوم. بعض الأشياء تستغرق وقتاً. أنا وجدت هذه الساعة التي فقدتها اليوم، في مكان غير متوقع. امرأة عجوز وجدتها في الطريق، وأعادتها إلي. قالت إنها رأتني أسقطها، وأنها كانت تنتظرني لأمر من هناك. أحياناً الأشياء التي نظن أننا فقدناها، تكون في انتظارنا."

ابتسمت ليلى. قالت: "أنت تبدو متعباً. هل تريد أن تتحدث؟"

قال: "لا. لكن شكراً لك. أنا فقط... أشعر أنني أحاول إصلاح ساعات كثيرة في حياتي، وكلها لا تعمل."

كان هذا الكلام بسيطاً، لكنه حمل ثقلاً كبيراً. ليلى لم تسأل عن ماذا كان يتحدث. فقط جلست معه في صمت لبعض الوقت. لم يكن هناك حاجة للكلمات.

في المساء، عادت ليلى إلى شقتها، ووجدت رسالة على هاتفها من سوسن: "رنا تلقت رسالة غريبة. تقول إنها تريد مقابلتك غداً في مقهى 'أوراق' عند الرابعة. قالت إنها مهمة. لا تسأليني أكثر، أنا لا أعرف شيئاً."

أغلقت ليلى هاتفها، ونظرت إلى المفتاح النحاسي الذي لا يزال على طاولتها. كان هناك سؤالان الآن: من هي المرأة في الصورة؟ ولماذا تريدها رنا أن تكون في مقهى "أوراق" غداً؟

قررت أن تذهب.

في اللحظة التي كانت تضع فيها المفتاح في درج الطاولة، لاحظت شيئاً غريباً. المفتاح كان يعكس الضوء بطريقة مختلفة، كأن هناك شيئاً محفوراً على جانبه لم تنتبه له من قبل. رفعته إلى الضوء، ورأت حروفاً صغيرة منقوشة على الجانب الداخلي: "11:07".

توقف قلبها. 11:07. نفس الوقت المتوقف على ساعة مقهى "أوراق". نفس الوقت الذي كتبته في دفترها عندما التقت بآدم هناك. هذه الساعة... والمفتاح... والبيت... كلها متصلة بشيء واحد.

سألت نفسها: لماذا كل هذه الخيوط تتقاطع في هذا المقهى الصغير؟ وما الذي تخفيه رنا؟

الفصل التاسع:

"أحياناً يكون المفتاح نفسه هو الباب."

كانت الساعة الثالثة إلا ربعاً عندما وصلت ليلى إلى مقهى "أوراق". وقفت أمام الواجهة الخشبية، ونظرت من الزجاج إلى الداخل. المكان كان شبه فارغ، كما في زيارتها الأولى. النادل الفتي كان يمسح طاولة في الزاوية، وسيدة عجوز كانت تقرأ كتاباً في الركن البعيد. لكن رنا لم تكن هناك بعد.

جلست ليلى على طاولتها المعتادة، بجانب النافذة، حيث يمكنها رؤية الباب والشوارع الخلفية في الوقت نفسه. طلبت كوباً من الشاي بالنعناع، ونظرت إلى الساعة المتوقفة فوق الباب. عقرب الدقائق عند 7، وعقرب الساعات عند 11، تماماً كما كانت في كل مرة. لكنها هذه المرة نظرت إليها بعيون مختلفة. عيون كانت ترى الرقم 11:07 محفوراً على المفتاح النحاسي الذي ينام الآن في جيبها.

دخلت رنا بعد خمس دقائق. كانت ترتدي جاكيتاً أسود طويلاً، وشعرها البني الفاتح منسدل على كتفيها، وعيناها تحملان شيئاً من التوتر والتردد. جلست أمام ليلى، ووضعت حقيبة الرسم على الكرسي المجاور، وقالت:

"آسفة على التأخير. كنتُ في الاستوديو، أحاول إنهاء لوحة جديدة، ولم أنتبه للوقت."

قالت ليلى: "لا بأس. أنا هنا منذ قليل. ماذا تريدين أن تخبريني؟"

نظرت رنا إلى كوب الشاي الذي أمام ليلى، ثم إلى الساعة المتوقفة، ثم عادت إلى ليلى. بدت وكأنها تبحث عن كلمات. أخرجت من جيب سترتها ورقة مطوية بشكل غير منتظم، ووضعتها على الطاولة.

قالت: "تلقيت هذه الأمس. كانت تحت باب الاستوديو عندما عدت إليه بعد الظهر. لم يكن هناك اسم، ولا عنوان، فقط ورقة مطوية."

فتحت ليلى الورقة ببطء. كانت مكتوبة بخط يد أنيق، رقيق، مألوف:

"ليلى التي تبحث عن الحقيقة. تعالي إلى مقهى 'أوراق' غداً عند الرابعة. سأخبرك بما تعرفه الساعة عن العام 1998."

رفعت ليلى عينيها من الورقة، ونظرت إلى رنا. قالت: "من أرسل هذا؟"

قالت رنا: "لا أعرف. لكني خفت. ليس خوفاً من الرسالة، بل لأني شعرت أن هذه الجملة موجهة إليكِ أنتِ تحديداً. 'ليلى التي تبحث عن الحقيقة'، ثم الساعة 11:07. أنتِ كنتِ تتحدثين عن الساعة في مقهى 'أوراق' مراراً. وأنا عندما رسمتها في الاستوديو، شعرت بأن هناك شيئاً يربطها بشخص ما. ثم عندما أتتني هذه الرسالة، عرفت أنها لكِ."

نظرت ليلى إلى النادل الفتي، الذي كان لا يزال يمسح الطاولة البعيدة. هل هو من ترك الرسالة؟ أم شخص آخر؟ ثم تذكرت الرجل الغريب، الذي رآته رنا يمر بجوار الاستوديو وينظر إلى لوحتها عن الساعة المتوقفة.

قالت: "هل رأيتِ أحداً غريباً في الاستوديو مؤخراً؟"

ترددت رنا لحظة، ثم قالت: "نعم. هناك رجل. ليس شاباً، في الخمسين تقريباً، يرتدي معطفاً رمادياً. رأيته مراراً في الشارع أمام الاستوديو، يقف وينظر إلى النافذة. لكنه لا يدخل أبداً. رأيته بالأمس، بعد أن وجدت الورقة. كان واقفاً في نهاية الزقاق، ينظر إلى الاستوديو، ثم مشى عندما رأيته."

شعرت ليلى بقشعريرة. الرجل الغريب. الرجل الذي يجلس تحت شجرة التين كل يوم. الرجل الذي يحمل المفتاح النحاسي الكبير، والذي كان في الصورة الجماعية لعام 1998 خلف والدها. هو من ترك هذه الرسالة. وهو يريد أن تقابله في هذا المقهى. لكنه لم يأتِ. أرسل رنا بدلاً منه.

نهضت ليلى فجأة، وذهبت إلى الباب، ونظرت إلى الشارع الخارجي. كان شارعاً ضيقاً، تكسوه أشجار قديمة، وعدد قليل من المارة. لم يكن هناك أحد يشبه الرجل الغريب. عادت إلى طاولتها، وجلست، وقالت برغبة جامحة: "هل تعرفين من هو هذا الرجل؟"

قالت رنا: "لا. لكني رأيته أيضاً في مكان آخر. منذ شهرين، كنتُ في معرض فني صغير قرب ساحة الأمم المتحدة. كان هناك رجل ينظر إلى لوحة قديمة، ولم يتحرك منها عشر دقائق. عندما اقتربت، رأيت أنه يبكي. كان يمسح دموعه بهدوء. ثم مشى. عندما نظرت إلى اللوحة التي كان ينظر إليها، كانت لوحة لبيت قديم، ومكتوب تحتها: 'البيت الذي يفتح بمفتاح النسيان'."

توقفت ليلى. قالت: "بيت قديم؟ في المدينة العتيقة؟"

قالت رنا: "نعم. أتذكر لأنه كتب تحتها عنواناً تقريبياً. كنتُ سأرسمه، لكني نسيت. حتى الآن."

أخرجت ليلى هاتفها، وأظهرت لرنا صورة البيت القديم الذي التقطته بالأمس.

نظرت رنا طويلاً، ثم قالت: "نعم. هذا هو البيت نفسه. لكن اللوحة كانت مرسومة قبل سنوات، الباب في اللوحة كان مفتوحاً. هنا في الصورة الباب مغلق."

جلست ليلى، وشعرت بدوار خفيف. الرجل الغريب كان يبكي أمام لوحة البيت الذي اشتراه والدها. وهو من ترك رسالة لرنا لتدعوها إلى هذا المقهى. وهو يعرف عن الساعة المتوقفة. كل شيء يتقاطع.

قالت رنا، ويدها ترتجف وهي تشير إلى الساعة: "هذه الساعة... هل تعرفين قصتها؟"

"قال النادل إنها توقفت منذ تسع سنوات، يوم مات صاحب المقهى."

قالت رنا: "لكن الرجل الذي يبكي أمام لوحة البيت... لاحظت شيئاً في ذلك اليوم. كان ينظر إلى لوحة البيت، لكنه كان يمسك في يده شيئاً آخر. كان يحمل صورة صغيرة، مطوية

في جيبه، وأخرجها ونظر إليها. كنتُ بعيدة، لكني رأيت أنها صورة امرأة. امرأة ترتدي فستاناً أبيض."

ليلى 1985. المرأة التي ترتدي فستاناً أبيض في الصورة التي وجدتها في البيت. المرأة التي كانت تقف بجانب والدها عام 1986. المرأة التي تحمل اسمها. الرجل الغريب يحمل صورتها.

نهضت ليلى مرة أخرى، وهذه المرة مشت إلى النادل الفتي، وقالت له: "من كان صاحب هذا المقهى؟ قبل أن يموت؟"

نظر إليها النادل بدهشة، ثم قال: "لم أعرفه شخصياً. لكني سمعت أنه رجل اسمه يوسف. كان يحبه الناس. كان يعزف على البيانو كل مساء."

"يوسف؟" قالت ليلى.

"نعم. يوسف. يوسف السعدي، أعتقد. أو السعيدي. لا أتذكر بالضبط."

السعدي. نفس لقب والدها. عبد الرحمن السعدي. صاحب المقهى الذي توفيت قبل تسع سنوات كان يحمل نفس لقب والدها. كان ربما أخاً، أو قريباً. وهذا يفسر لماذا الساعة متوقفة على توقيت معين، ولماذا الرجل الغريب يبكي أمام لوحة البيت، ولماذا كل شيء متصل.

عادت ليلى إلى الطاولة، وجلست، وقد امتلأت عيناها بالدموع من غير أن تشعر. قالت لرنا: "أعتقد أنني وجدت شيئاً. لكني لا أعرف كيف أجمعه معاً."

قالت رنا: "ربما لا تحتاجين إلى جمعه كل اليوم. فقط ابدئي بسؤال واحد. ما هو السؤال الذي تريدين إجابته الآن؟"

فكرت ليلى لحظة، ثم قالت: "من هو الرجل الغريب؟ ولماذا يريدني أن آتي إلى هنا؟"

أجابت رنا: "ربما لأنه يعلم أنكِ ستكتشفين شيئاً هنا. أنظري إلى الساعة مرة أخرى. هل لاحظتِ شيئاً آخر فيها؟"

نظرت ليلى إلى الساعة. 11:07. كانت عقاربها متوقفة. لكنها لاحظت هذه المرة شيئاً لم تنتبه له من قبل. تحت الساعة، على الحافة السفلية للإطار، كان هناك نقش صغير جداً، يكاد لا يُرى. اقتربت منه، ورأت حروفاً محفورة: "ليلى 1998".

الاسم. العام. نفس العام الذي اشترى فيه والدها البيت، ونفس العام الذي اختفى فيه من الجامعة. كانت الساعة تحمل اسمها، أو على الأقل اسم شخص ما يحمل اسمها.

جلست بجانب النادل الفتي، وقالت له: "هذه الساعة... من وضعها هنا؟ ومن كتب اسم ليلى عليها؟"

نظر إليها النادل، وقال: "لا أعرف. كنتُ صغيراً عندما جئت للعمل هنا. لكني سمعت أن صاحب المقهى السابق، يوسف، كان يحتفظ بهذه الساعة منذ وقت طويل، وأنها كانت خاصة بشخص يحبه. قالوا إنها كانت هدية من امرأة اسمها ليلى."

وقفت ليلى، وذهبت إلى الساعة، ورفعت يدها، ولمست الإطار الخشبي. كان دافئاً، رغم أنه لم يكن مشمساً. شعرت بأنها تلمس شيئاً حياً.

فجأة، سمعت صوتاً خلفها: "ليلى."

التفتت، ورأت آدم يقف عند باب المقهى. كان يرتدي سترة جلدية سوداء، وشعره غير مرتب، وعيناه تبدوان متعبتين. دخل، وجلس على طاولة قريبة، لكنه لم ينظر إليها مباشرة.

قالت: "ماذا تفعل هنا؟"

قال آدم، وهو ينظر إلى الساعة المتوقفة: "كنت أمشي في الشارع، ورأيتكِ تدخلين. ثم بقيتِ هنا أكثر من ساعة. شيء ما جعلني أتوقف. هل أنتِ بخير؟"

جلست ليلى أمامه، ووضعت رأسها بين يديها لحظة، ثم رفعته، وقالت: "لا أعرف. وجدت أشياء كثيرة اليوم. أشياء لا أفهمها."

قال آدم: "مثل ماذا؟"

أخرجت ليلى الصورة التي التقطتها للبيت القديم، وأظهرتها لآدم. نظر إليها، ثم قال: "هذا البيت... رأيته من قبل. في مكان ما. ربما في حلم. أو في صورة قديمة."

قالت: "إنه بيت والدي. اشتراه عام 1998، ثم اختفى."

صمت آدم طويلاً. ثم قال: "1998. نفس العام الذي..."

توقف. نظرت ليلى إليه، وقالت: "نفس العام الذي ماذا؟"

نظر إليها آدم، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الخوف، أو الذاكرة، أو كليهما معاً. قال بصوت خافت: "نفس العام الذي ماتت فيه والدتي."

توقفت ليلى. لم تتوقع هذا. كانت تعرف القليل عن آدم، ولم يكن قد تحدث عن عائلته من قبل. قالت: "أنا آسفة. لم أعرف."

قال آدم: "لا بأس. أنا لا أتحدث عن ذلك عادةً. لكن عندما رأيت البيت... تذكرت شيئاً. والدتي كانت تعمل في هذه المنطقة. كانت تأتي إلى هنا كثيراً، إلى مقهى صغير مثل هذا. لم أكن أعرف اسمها، لكني أتذكر أنها كانت تحمل ساعة، ساعة قديمة، تشبه تلك."

أشار إلى الساعة المتوقفة فوق الباب.

قالت ليلى: "ساعة؟ مثل تلك؟"

قال آدم: "نعم. كانت تحملها في يدها، وتقول إنها ستورثها لي يوماً ما. لكنها ماتت قبل أن تفعل. لم أجد الساعة أبداً."

نظرت ليلى إلى الساعة، ثم إلى آدم، وشعرت بأن كل شيء يتشابك. الساعة التي تخص امرأة اسمها ليلى. الساعة التي تخص والدة آدم. البيت الذي اشتراه والدها. الرجل الغريب الذي يبكي أمام اللوحة.

قالت: "آدم، هل والدتك... هل كانت تدعى ليلى؟"

نظر إليها آدم كما لو أنها ضربته. صمت طويلاً، ثم قال: "لا أعرف. لم أعرف اسمها الحقيقي أبداً. عاشت معي فترة قصيرة، ثم ماتت. كل ما أعرفه هو أنها كانت تسمى عند الجميع 'ليلى'. كان الناس ينادونها ليلى. لم أعرف إن كان اسمها الحقيقي أم لا."

وقف آدم فجأة، وقال: "أنا آسف. هذا كثير. لا أعرف لماذا أخبرتك بهذا."

لكن ليلى أمسكت بيده، وشعرت بيده ترتجف كما كانت من قبل. قالت: "أنا أيضاً لا أعرف لماذا، لكني أشعر أن كل شيء متصل. والدتي تدعى فاطمة، لكني وجدت صوراً لامرأة اسمها ليلى، تقف أمام هذا البيت مع والدي. وهذه الساعة تحمل اسم ليلى. ووالدتك تدعى ليلى أيضاً. وأنت تحاول إصلاح ساعات منذ سنوات. هذا ليس مصادفة."

نظر إليها آدم، وقال: "أنا لا أؤمن بالصدف."

قالت: "أنا أيضاً."

وقفا معاً، ونظرا إلى الساعة المتوقفة. ثم قالت ليلى: "لدي مفتاح. مفتاح يحمل نفس توقيت هذه الساعة. 11:07. أعطاني إياه حارس المكتبة، وكان يخص والدي. وكان يفتح الباب الذي رأيته في الصورة. لكني أشعر أن هذا المفتاح ليس لفتح باب واحد فقط. إنه... مفتاح شيء آخر."

أخرجت المفتاح النحاسي الصغير من جيبها، ووضعته على الطاولة. نظر إليه آدم، وقال: "هذا المفتاح... رأيته من قبل. عندما كنت صغيراً. كانت والدتي تحمل واحداً مثله. قالت لي إنه يفتح كل الأبواب التي فقدناها."

صمت طويل.

ثم، وبينما كانا واقفين، لاحظت ليلى شيئاً غريباً. تحت الساعة، كان هناك باب صغير غير واضح، كان جزءاً من الجدار الخشبي، ولم تنتبه له من قبل. كان صغيراً جداً، كباب خزانة، وبيده مقبض نحاسي صغير. اقتربت منه، ووضعت المفتاح في ثقب المقبض. دخل المفتاح بسهولة تامة.

نظرت إلى آدم. نظر إليها. أدارت المفتاح.

سمع صوت قفل ينزلق، وفتح الباب الصغير. كان بداخله صندوق خشبي صغير، مغطى بالغبار، عليه نقش: "لمن يبحث عن ليلى".

فتحت الصندوق. كان بداخله صورة صغيرة، ظهرها مكتوب عليه: "ليلى وعبد الرحمن – 1998 لحظة الوداع". وورقة مطوية، وفيها خط يد قديم: "من يجد هذه، يرجى الاتصال برقم 0612... لقد كنتُ أنتظرها منذ زمن. لكني لا زلت هنا."

وقفا معاً، ينظران إلى الصورة والورقة. كانت ليلى تبكي بهدوء.

قال آدم: "من هذه؟"

قالت ليلى، بصوت يرتجف: "هذه المرأة هي والدتي. ووالدي. لكن ليس باسم فاطمة. اسمها الحقيقي ليلى. وهذا رقم هاتف. ربما يكون هو من كتبه."

قال آدم، بعد صمت: "لا أعرف كيف، لكني أشعر أننا وجدنا شيئاً كنا نبحث عنه دون أن نعلم."

أغلقت ليلى الصندوق، ووضعت الصورة والورقة في جيبها.

نظرت إلى الساعة المتوقفة. كانت عقاربها لا تزال عند 11:07.

قالت: "أحتاج إلى الاتصال بهذا الرقم. الآن."

نظر إليها آدم، وقال: "ثقي بحدسك. لا تترددي."

أخرجت ليلى هاتفها، وبدأت تكتب الرقم.

الفصل العاشر:

"في اليوم الذي تعرف فيه الحقيقة، تدرك أنك كنت تعيش في غرفة لا تعرف أن لها باباً."

وقف آدم بجانب ليلى، ينظر إلى هاتفها وهو يرتجف بين يديها. كانت الساعة المتوقفة ترن فوق رأسهما، وعقاربها عند 11:07، كأنها تشهد اللحظة. أخرجت ليلى هاتفها، وبدأت تكتب الرقم ببطء، كأن كل رقم يزن أكثر من الذي قبله.

قال آدم: "هل أنتِ متأكدة؟"

نظرت إليه، وعيناها مليئتان بالتردد والحاجة: "لست متأكدة من أي شيء. لكني لا أستطيع التوقف الآن."

ضغطت على زر الاتصال. سمعت نغمة رنين من بعيد، كأنها تأتي من مكان آخر. رنت مرة، مرتين، ثلاث مرات. ثم انقطع الاتصال.

صوت مسجل، جاف، كأنه من زمن آخر: "الرقم الذي تتصل به غير متوفر حالياً. الرجاء المحاولة لاحقاً."

وقفت ليلى، وشعرت بثقل في صدرها. نظرت إلى الورقة، وإلى الرقم، وكأنها تخشى أن يختفي. قالت: "لم يرد."

نظر آدم إلى الساعة، ثم إلى الباب الصغير الذي فتحته ليلى. قال: "ربما ليس اليوم. ربما يحتاج الأمر إلى وقت. بعض الأشياء لا تُفتح بالضغطة الأولى."

جلست ليلى، وشعرت برغبة في البكاء، لكنها كتمتها. رنا كانت لا تزال جالسة، تنظر إليهما بصمت، وكأنها تشهد لحظة لا تعرف كيف تفسرها. قامت رنا، ووضعت يدها على كتف ليلى، وقالت: "سأترككما. لكن إن احتجتِ شيئاً، أنا هنا. في الاستوديو. دائماً."

خرجت رنا، تاركة ليلى وآدم مع الساعة المتوقفة والصندوق المفتوح.

في الصباح التالي، استيقظت ليلى على شعور غريب. لم يكن المطر يتساقط، بل كان هناك ضوء بارد يتسلل من النافذة، كأن السماء تنتظر شيئاً. جلست على حافة السرير، ونظرت إلى المفتاح النحاسي الذي وضعته على الطاولة الليلية، وإلى الصورة التي وجدتها في الصندوق: والدها ووالدتها في لحظة وداع، عام 1998. كانت والدتها ترتدي فستاناً أبيض، وكانت عيناها تبدو حزينة لكنها ثابتة.

أمسكت الهاتف، وحاولت الاتصال بالرقم مجدداً. نفس النغمة، نفس الصوت المسجل. أغلقت الهاتف، وقررت أن تذهب إلى الجامعة، لأن البقاء في الشقة كان يقتلها.

في الجامعة، كان الفناء أكثر ازدحاماً من المعتاد. طلاب يتجمعون حول لوحة الإعلانات، يتحدثون بصوت مرتفع. اقتربت ليلى، ورأت إعلاناً جديداً: "نتائج التقييم الأولي للمشاريع الجماعية غداً الساعة العاشرة صباحاً في قاعة الأنشطة."

نسيت أنها كانت جزءاً من فريق. نادين، منير، وآدم. المشروع الذي بدأ كواجب، أصبح الآن شيئاً آخر. مشت إلى قاعة الأنشطة، حيث كان منير يرتب أوراقه على الطاولة، ونادين تجلس في الزاوية، ترسم في دفترها بصمت.

جلست ليلى بجانب نادين، وقالت: "كيف حالكِ؟"

رفعت نادين عينيها من دفترها، وكانت عيناها منتفختين قليلاً، كأنها لم تنم. قالت: "اتخذت قراراً. سأتحدث مع والدي الليلة. سأخبره أنني أريد ترك الجامعة. أنني أريد الرسم فقط. ليس كدراسة، بل كحياة."

صمتت ليلى. كانت تريد أن تقول شيئاً حكيماً، شيئاً يغير رأيها أو يثبتها. لكنها تذكرت شعورها عندما وقفت أمام البيت القديم، وشعرت بأنها وجدت جزءاً من نفسها. قالت: "إذا كنتِ متأكدة، فافعلي. لكن تأكدي من أنكِ لن تندمي. ليس لأنكِ ستخسرين شيئاً، بل لأن الندم على ما لم نفعله أثقل من الندم على ما فعلناه."

نظرت نادين إليها، وابتسمت ابتسامة صغيرة: "شكراً لكِ.

في ذلك الوقت، دخل آدم إلى القاعة. كان يرتدي جاكيتاً رمادياً، وشعره غير مرتب، وعيناه تبدوان متعبتين. نظر إلى ليلى، وجلس على الطاولة المقابلة. قال: "هل اتصلتِ مجدداً؟"

قالت: "نعم. لم يرد. سأحاول مرة أخرى لاحقاً."

قال آدم: "ربما لا يريد الرد. ربما يريد منكِ أن تذهبي إلى مكان آخر."

نظرت إليه بدهشة: "ماذا تقصد؟"

أخرج آدم من جيبه شيئاً صغيراً. كان صورة مطوية، قديمة، من نفس نوع الصور التي وجدتها في الصندوق. فتحها، وأرتها لليلى. كانت صورة لامرأة شابة، ترتدي فستاناً أبيض، تقف أمام باب مقهى "أوراق" قبل سنوات، وكانت الساعة المتوقفة خلفها، وعقاربها عند 11:07.

قال آدم: "وجدت هذه في غرفة والدتي بعد وفاتها. كنتُ أحتفظ بها دون أن أعرف لماذا. الآن أعرف. هذه المرأة هي والدتي. وهي تقف أمام نفس المقهى، أمام نفس الساعة. وهي تحمل نفس المفتاح الذي لديكِ."

نظرت ليلى إلى الصورة، وإلى المفتاح في جيبها، وإلى آدم، وشعرت بأن الزمن كان يلتف حولها كحلقة مفرغة. قالت: "والدتك... كانت تعرف هذا المقهى. كانت تعرف هذه الساعة. وكانت تحمل مفتاحاً مشابهاً. هذا يعني... أنها كانت تعرف والدي. كانت تعرف ليلى، والدتي. كانوا جميعاً جزءاً من شيء واحد."

نظر آدم إليها، وقال: "أعتقد أننا بحاجة إلى الذهاب إلى هناك. إلى البيت القديم. معاً."

قالت ليلى: "الآن؟"

قال آدم: "الآن. قبل أن نتراجع."

وافق منير أن يأخذهم بسيارته إلى المدينة العتيقة. نادين قالت إنها ستذهب معهم، لأنها تريد أن ترسم البيت، وكأنها تشعر أنها جزء من هذه الرحلة. في الطريق، كان الجو في السيارة ثقيلاً بالصمت، والنوافذ مفتوحة قليلاً، والرياح الباردة تدخل من الشقوق.

عندما وصلوا إلى الزقاق الضيق، وقفوا أمام الباب الخشبي المنقوش. أخرجت ليلى المفتاح، وأدخلته، وأدارته. فُتح الباب بصوت صرير طويل، ودخلوا الفناء.

قال آدم، وهو ينظر إلى النافورة اليابسة والأوراق الجافة: "هذا المكان... أشعر بأنني أتيته من قبل. في حلم، أو في ذكرى بعيدة."

قالت نادين: "أنا أراه كما لو أنه جزء من لوحة قديمة. كل شيء هنا يحمل لوناً خاصاً، لون الحنين."

دخلوا الغرفة التي كانت تحتوي على الصور. لكن هذه المرة، لاحظت ليلى شيئاً لم تنتبه له من قبل. على الحائط الخلفي، خلف خزانة خشبية قديمة، كان هناك باب صغير آخر، مطلي بلون الجدار نفسه، يكاد لا يُرى. اقتربت منه، ووضعت المفتاح في ثقبه. دخل المفتاح مرة أخرى.

فتح الباب الصغير، وكان بداخله درج حجري صغير ينزل إلى مكان أعمق. نظرت إلى الآخرين، وقالت: "هل ننزل؟"

قال آدم: "نحن هنا. لن نتراجع الآن."

نزلوا الدرج الحجري ببطء، وكان الجو يصبح أكثر برودة ورطوبة. وصلوا إلى غرفة تحت الأرض، صغيرة، مضاءة بمصباح وحيد معلق من السقف. كان هناك طاولة خشبية، وعليها مجموعة من الأغراض: صور قديمة، رسائل، دفتر كبير مغطى بالغبار، ومفتاح آخر، أكبر حجماً، من نفس النحاس.

فتحت ليلى الدفتر. كان مكتوباً بخط يد والدها، بداية من عام 1996:

"اليوم التقت بي في المكتبة. قالت إنها تبحث عن كتاب عن الانتظار. ضحكتُ، وقلتُ لها إن الانتظار ليس كتاباً، بل حياة. اسمها ليلى."

"1998: قررنا أن نشتري البيت. سيكون لنا. سنعيش فيه معاً. لكن الحياة كانت لها خطط أخرى."

"يوسف، أخي الأكبر، يعرف كل شيء. يحاول أن يمنعني من فعل ما سأفعله. لكني لا أستطيع. يجب أن أرحل. ليلى تعرف السبب. لقد أخبرتها. وهي وافقت على أن تنتظرني."

"لكنني لم أعد. لم أعد لأنني عندما عدت، كان كل شيء قد تغير. ليلى اختفت. وقالوا إنها ماتت. لكني لا أصدق. هي وعدتني أنها ستنتظر. وسأبحث عنها دائماً."

توقفت ليلى، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع. والدها كان يبحث عن والدتها. والدتها اختفت. وقالوا إنها ماتت. لكنه لم يصدق. وهذا المفتاح... المفتاح الكبير الذي كان على الطاولة، كان يحمل نفس نقوش المفتاح الذي رأته في يد الرجل الغريب.

قالت بصوت يرتجف: "أعتقد أن الرجل الغريب... هو يوسف. أخو والدي. عمي. وهو الذي كان يحمل المفتاح الآخر. وهو الذي كان يبكي أمام لوحة هذا البيت."

نظر آدم إليها، وقال: "إذا كان عمك، فهو يعرف كل شيء. وهو الذي ترك الرسالة لرنا. وهو الذي يريدكِ أن تجديه."

خرجوا من الغرفة، وعادوا إلى الفناء. كانت الشمس قد بدأت تغرب، والضوء البرتقالي يتسلل بين الأوراق الجافة.

قالت نادين: "أنا سأرسم هذا المشهد. الفناء في الغروب. سأسميه 'البيت الذي عاد إليه المفتاح'."

قال منير، الذي كان صامتاً طوال الرحلة: "أنا سأصمم نموذجاً لهذا البيت في المعرض. كجزء من مشروعنا. سيكون هديتنا لهذا المكان."

نظرت ليلى إلى آدم، وقالت: "أشعر بأنني وجدت جزءاً من عائلتي. لكني ما زلت لا أعرف لماذا اختفت والدتي. ولماذا يُقال إنها ماتت. ولماذا لم يعد والدي."

قال آدم: "ربما الإجابة في هذا المفتاح الكبير. المفتاح الذي يحمله عمك. ربما يفتح شيئاً آخر. ربما يفتح الحقيقة التي لم نعرفها بعد."

عادوا إلى الجامعة في المساء. كان الجو هادئاً، والنجوم بدأت تظهر. وقفت ليلى أمام مبنى المكتبة، حيث كان الحارس أحمد لا يزال في غرفته الصغيرة. دخلت، وجلست أمامه.

قالت: "أستاذ أحمد، أخبرني عن يوسف. عن عمي."

نظر إليها أحمد طويلاً، ثم قال بصوت خافت: "يوسف كان أخاً لعبد الرحمن. كان أكبر منه بعشر سنوات. كان يحب ليلى، والدتك، حباً أخوياً. عندما اختفت ليلى عام 1998، وعندما غادر عبد الرحمن، بقي يوسف هنا. كان يبحث عنها، وعنه، طوال السنوات. مات قبل تسع سنوات، لكنه ترك وصية: أن تُحفظ الساعة في المقهى، وأن يُحفظ المفتاح عندي، لمن يسأل."

قالت ليلى: "إذا مات يوسف، فمن الرجل الغريب الذي يجلس تحت شجرة التين؟ ومن ترك الرسالة لرنا؟"

نظر إليها أحمد، وقال: "يوسف لم يمت حقاً. مات اسمه، لكنه لا يزال هنا. ينتظر. لقد أخبرني أنه سيأتي يومٌ ما شخص يسأل عن المفتاح، وسيكون ذلك الشخص هو الذي يحمل الحقيقة."

وقفت ليلى، وقالت: "أنا ذلك الشخص. أريد أن أراه. أريد أن أعرف كل شيء."

قال أحمد: "اذهبي إلى مقهى 'أوراق' غداً عند الفجر. سيكون هناك. وسيكون لديه كل الإجابات."

خرجت ليلى من غرفة الحارس، وكانت السماء مظلمة بالكامل. وقفت في الفناء، ونظرت إلى شجرة التين حيث اعتاد الرجل الغريب الجلوس. لم يكن هناك. لكنها شعرت بأن عينيه كانتا تراقبانها من مكان ما.

في صباح اليوم التالي، عند الفجر، وقفت ليلى أمام مقهى "أوراق". كان المكان لا يزال مغلقاً. جلست على المقعد الخشبي الخارجي، وانتظرت. كانت السماء زرقاء رمادية، والشارع فارغاً، باستثناء بائع خضار يعد بضاعته.

بعد عشر دقائق، فتح الباب. خرج رجل في الخمسين من عمره، يرتدي معطفاً رمادياً، وعيناه زرقاوان شاحبتان. كان هو. الرجل الغريب.

نظر إليها، وقال بصوت خافت، مليء بالحنين: "كنت أعرف أنك ستأتين. أنتِ تشبهينها كثيراً. تشبهين ليلى، أمك."

وقفت ليلى، وقالت: "أنا ليلى. ابنة عبد الرحمن وليلى. وأنت يوسف، عمي."

نظر إليها طويلاً، ثم قال: "نعم. أنا يوسف. وأنا هنا لأخبرك بالحقيقة التي كنتِ تبحثين عنها."

جلسا على المقعد الخشبي، وبدأ يوسف يحكي:

"والدك، عبد الرحمن، كان شاباً طموحاً. التقى بوالدتك، ليلى، في هذه الجامعة عام 1996. أحبا بعضهما. كانت حباً كبيراً، لكنه كان محفوفاً بالأسرار. والدتك كانت ابنة عائلة كانت تعارض الزواج من خارج العائلة. لكنهما تزوجا سراً عام 1997، واشتروا هذا البيت ليعيشوا فيه. لكن في عام 1998، حدث شيء. والدتك كانت مريضة، مريضة جداً. لم تخبر عبد الرحمن لأنها كانت تخاف أن يترك كل شيء لأجلها. اختفت. قالت له إنها ستذهب للعلاج، ووعدته بأنها ستعود. لكنها لم تعد. عبد الرحمن بحث عنها طوال سنوات، ولم يجدها. غادر المدينة، وترك كل شيء. المفتاح، البيت، الساعة... تركني لأحتفظ بها، لأنه كان يعلم أنني سأنتظر حتى يأتي يوم تعود فيه الحقيقة."

صمت يوسف، ونظر إلى ليلى، وقال: "والدتك لم تمت. هي لا تزال على قيد الحياة. لكنها تعيش في مكان آخر، ولا تستطيع العودة. ووالدك... لا يزال يبحث عنها. ولا يعرف أنها حية."

وقفت ليلى، وشعرت بأن العالم يدور حولها. والدتها لم تمت. كانت حية. والدها كان يبحث عنها. وكل هذه السنوات كانت تعتقد أنها ماتت.

قالت بصوت يرتجف: "أين هي؟ أخبرني أين هي."

نظر إليها يوسف، وقال: "هذا ما لا أعرفه. لكن ما أعرفه هو أنها تركت لكِ شيئاً. رسالة. في البيت. في الغرفة التي وجدتِ فيها الصور. في الصندوق الذي فتحتِه. كان هناك رسالة أخرى، في أسفل الصندوق، لم تريها."

نهضت ليلى، وركضت إلى البيت القديم، ويوسف يتبعها ببطء. وصلت إلى الفناء، ودخلت الغرفة، وفتحت الصندوق الخشبي مجدداً. هذه المرة، لاحظت شيئاً لم تنتبه له من قبل: أسفل الصندوق، كانت هناك طبقة مزدوجة من الخشب. رفعتها، ووجدت ظرفاً أبيض، مختوماً بشمع أحمر، مكتوب عليه: "لابنتي ليلى، حين تكبر وتقرأ هذا."

فتحت الظرف بيدين مرتجفتين، وقرأت:

"ابنتي العزيزة،

إذا كنتِ تقرئين هذا، فأنا على قيد الحياة. لكني لست هنا. اضطررت إلى المغادرة، ليس لأنني لم أحبك، بل لأنني أحببتكِ كثيراً. كان يجب أن أحميكِ من حقيقة لا تزال تخيفني. والدي، جدكِ، كان جزءاً من أشياء لا أريد أن تعرفيها. لكنني أعرف أنكِ ستسألين. دائماً كنتِ فضولية. ولذلك، سأترك لكِ هذه الرسالة لتخبركِ أنني أنتظركِ. في مكان آمن. في بيت آخر، في مدينة أخرى. عندما تكونين مستعدة، اتبعي الخيط. تذكري المفتاح. 11:07. سيُظهر لكِ الطريق.

أحبكِ،

أمكِ، ليلى."

وقفت ليلى، والدموع تتساقط على خديها. كان كل شيء واضحاً الآن. والدتها كانت حية. كانت تنتظرها. وكان المفتاح والساعة هما الطريق.

نظرت إلى يوسف، الذي كان يقف عند باب الغرفة. قال: "هي تنتظركِ. في مراكش. في بيت صغير قرب باب دكالة. هذا كل ما أعرفه."

وقفت ليلى، وابتسمت ابتسامة مليئة بالدموع، وقالت: "سأذهب إليها."

وقف آدم، الذي كان يتبعها من بعيد دون أن تدري، وقال: "أنا سآتي معكِ."

نظرت إليه، وقالت: "لماذا؟"

قال آدم، وهو يمسك صورة والدته التي كانت تحمل الساعة: "لأن والدتك هي من تعرف الحقيقة. عن والدتي. عن السبب الذي جعلها تغادر، وعن الساعة التي كانت تحملها، وعن كل شيء. أعتقد أن والدتي ووالدتك كانتا تعرفان بعضهما. وهذا هو السبب الذي يجعل كل شيء متصلاً."

وقفت ليلى، ونظرت إلى الصباح الذي بدأ يتفتح، وإلى المدينة التي بدأت تفيق. كان كل شيء على وشك التغير. كانت تعرف ذلك.

قالت: "غداً. سنذهب غداً إلى مراكش."

صدى
الماضى

الفصل الحادي عشر:

"أكبر التغييرات تأتي في صباحات تشبه كل الصباحات."

استيقظت ليلى الساعة الخامسة. لم يكن المنبه قد دق، لكن جسدها كان قد تعلم أن يوقظها قبل المواعيد المهمة. كانت حقيبتها الصغيرة معبأة منذ الليلة الماضية: قميصان، بنطلون جينز، كتاب صغير، المفتاح النحاسي، ورسالة أمها المطوية بعناية في ظرف بلاستيكي شفاف.

كان القطار المتجه إلى مراكش يغادر في السابعة. خرجت من الشقة بصمت، تاركة هدى نائمة كما كانت دائماً. في الشارع، كان الفجر لا يزال شاحباً، والأضواء البرتقالية للمصابيح العمومية تخلق ظلالاً طويلة على الرصيف.

وصلت إلى محطة القطار قبل آدم بخمس دقائق. كان واقفاً عند المدخل، يحمل حقيبة صغيرة، وسترة جلدية سوداء على كتفه، ونظراته تبحث في الوجوه. عندما رآها، مشى نحوها.

"أنتِ هنا. كنتُ أخشى أن تغيري رأيك."

قالت: "وأنا كنتُ أخشى ألا تأتي."

ابتسم ابتسامة خفيفة. "وعدت. وسأفي."

صعدوا إلى القطار، وجلسا في مقعدين متقابلين بجانب النافذة. كان العربة شبه فارغة، ورائحة القهوة تأتي من العربة المجاورة. أخرجت ليلى كتابها الصغير، لكنها لم تفتحه، بل نظرت من النافذة إلى المشهد الذي بدأ يتحرك ببطء: أبنية الدار البيضاء تتلاشى، وتظهر الحقول الخضراء والمنازل المتواضعة.

جلس آدم على الجانب الآخر، يحدق في يده، حيث كان يمسك صورة والدته المطوية. قال بصوت هادئ: "لم أسألكِ: كيف تشعرين؟"

نظرت إليه، وفكرت للحظة. "كأنني أحمل شيئاً لا أعرف وزنه. كأنني على وشك أن أجد شيئاً فقدته دون أن أعرف أنني أملكه."

"أفهم ذلك. أشعر به منذ أن وجدت صورة أمي أمام المقهى. كلما اقتربت من الحقيقة، أصبحت أثقل. ليس بسبب الخوف، بل بسبب كل السنوات التي عشتها دونها."

صمتا، وأصوات القطار تخترق الصمت. كانت الشمس قد بدأت ترتفع، وأشعة ذهبية تتسلل من النافذة.

في مراكش، نزلا من القطار في محطة ضخمة، مزدحمة بالمسافرين والباعة المتجولين. الهواء كان مختلفاً: أكثر دفئاً، وأكثر حياة. مشيا عبر الساحة الكبيرة، حيث العربات الخشبية التي تجرها الحمير تتزاحم مع السيارات، ورائحة التوابل والزعفران تفوح من المحلات الجانبية.

وجدا العنوان الذي أعطاه يوسف: بيت صغير في زقاق ضيق قرب باب دكالة. كان الباب خشبياً، أصغر من الباب في الدار البيضاء، مرسوماً باللون الأزرق الفاتح. وقفت ليلى أمامه، ويدها ترتجف وهي تطرق.

فتحت الباب امرأة في الخمسين من عمرها، شعرها أبيض جزئياً، وعيناها زرقاوان شاحبتان، تشبهان عيني ليلى تماماً. نظرت إلى ليلى، ثم إلى آدم، ثم عادت إلى ليلى، وانفجرت عيناها بالدموع.

"أنتِ..." قالت بصوت مرتعش. "أنتِ ليلى. ابنتي."

أومأت ليلى، ولم تستطع الكلام. انهارت الأم في حضن ابنتها، وبدأت تبكي بصوت منخفض، كما لو كانت تنتظر هذه اللحظة سنوات. وقف آدم جانباً، وتركهما معاً.

دخلوا البيت، وكان بسيطاً: غرفة صغيرة تستقبلهم، ومطبخ ضيق، وغرفة نوم واحدة. على الطاولة، كانت هناك شاي بالنعناع وبعض الحلويات. جلست الأم على كرسي مقابل ليلى، وبدأت تروي قصتها:

"كنتُ أخاف كثيراً، ليلى. كنتُ أعرف أن عائلتي لن تتقبل زواجنا. كانوا يريدونني أن أتزوج ابن عمي، ورفضت. عندما تزوجتُ عبد الرحمن سراً، كنتُ أخشى أن يجدوني، وأن يؤذوه. ثم أصبتُ بالمرض. ليس مرضاً عادياً. كان والدي هو من دبر الأمر. وضع سمّاً بطيئاً في طعامي، لكي لا تحملين، أو لكي نموت. اكتشفتُ ذلك متأخراً. قررتُ أن أختفي، لأحميكِ أنتِ ووالدك. ذهبتُ إلى مراكش، وحيداً، وتعالجتُ. نجوتُ، لكنني لم أعد أستطيع العودة."

نظرت ليلى إلى والدتها، وعيناها مغرورقتان بالدموع. قالت: "لكن والدي... كان يبحث عنكِ. لسنوات. لم يخبرني أحد بهذا. والدي... لماذا لم يجدكِ؟"

قالت الأم، ونظراتها تائهة: "لأنني كنتُ أخشى أن يبحث عنه والدي أيضاً. تركتُ رسالة أخبرته فيها أنني ذاهبة للعلاج، وأنني سأعود. لكنني لم أعُد، لأنني كنتُ أخاف عليه. وبعد سنوات، عندما علمتُ أنه غادر الدار البيضاء، ظننتُ أنه نسي. لكنني كنتُ مخطئة."

صمتت الأم، ثم أخرجت صورة من درج الطاولة: صورة لعبد الرحمن وهي معاً في شبابهما. نظرت إليها ليلى، وكان قلبها ينفطر.

قالت الأم: "أنا لم أنسَ يوماً. طوال السنوات، كنتُ أجلس هنا، أنتظر. ثم سمعتُ أنكِ بدأتِ تبحثين. أرسلتُ الرسائل من خلال يوسف، أخيه. كان يعرف كل شيء. كان هو حلقة الوصل بيني وبين الماضي. وهو من أخبرني أنكِ وجدتِ المفتاح."

نظرت ليلى إلى آدم، ثم إلى والدتها، وقالت: "هذا هو آدم. ابن ليلى."

نظرت الأم إلى آدم، واتسعت عيناها. "أمك... ليلى... أين هي؟"

قال آدم بصوت خافت: "ماتت. منذ زمن. كنتُ صغيراً. لكني لم أعرف اسمها الحقيقي حتى وقت قريب. عاشت معي سنوات قليلة، ثم تركتني.، لكن الآن... لا أعرف."

نظرت الأم إلى آدم، وقالت بصوت يرتجف: "أمك كانت صديقتي المفضلة. كنا نلتقي في مقهى 'أوراق' كل يوم. كانت تحب الساعة هناك، الساعة التي لا تعمل. قالت لي ذات مرة: 'هذه الساعة تشبه قلبي، متوقفة منذ أن تركتني أمي.' كنا نتبادل الأسرار. كنتُ أعرف أنها حامل بك. أخبرتني أنها ستسميك آدم، لأنها تريد منك أن تكون بداية جديدة. عندما اختفت، ظننتُ أنها عادت إلى عائلتها. لكنها... ماتت."

جلس آدم على الكرسي، ووجهه متجمد، وعيناه شبه جافتين. قال بصوت مكسور: "لم تخبرني بأي شيء عن هذا. عشت طفولتي وأنا أتساءل لماذا تركتني. وكل هذا الوقت، كانت تعرف الحقيقة."

قالت الأم، ووضعت يدها على كتفه: "الحقيقة كانت أنها كانت تحبكِ أكثر مما تظن. لكنها كانت تخاف أن تجلب لكِ الألم. ربما هي أيضاً كانت تحارب شيئاً لا تعرفه. ربما مرت بما مررت به."

صمت طويل، ثم نهض آدم فجأة، وخرج من الغرفة إلى الفناء الصغير. وقف هناك، ينظر إلى الجدار. تبعته ليلى ببطء.

وقفت بجانبه، وقالت: "أنا آسفة. لم أكن أعرف."

نظر إليها، وعيناه حمراوان: "لستِ أنتِ من عليها أن تعتذر. أنا عشت حياتي كلها أعتقد أن والدتي تركتني لأنها لم تكن تحبني. والآن أجد أنها كانت تحاول حمايتي. كيف يمكن أن تموت وتترك كل هذا دون أن تخبرني؟"

قالت ليلى: "ربما كانت تخاف أن تخبركِ بالحقيقة وهي لا تعرفها كاملة. ربما كانت تنتظر الوقت المناسب، لكن الوقت لم يحن."

نظر إليها طويلاً، ثم قال: "أنتِ تشبهين والدتك كثيراً. ليس فقط الشكل، بل الطريقة التي تختارين بها الكلمات."

لم تجب. وقفا معاً في الفناء الصغير، تحت شمس مراكش التي بدأت تصبح حارة، والمشاعر تتصاعد.

عادوا إلى الغرفة، وجلست الأم أمامهما. قالت: "أنا سأخبركما كل ما أعرفه. لكن يجب أن تعرفا أن بعض الأشياء قد تكون مؤلمة. ليلى، والدك... لم يغادر لأنه نسي. بل لأنه كان يبحث عني. ظل يبحث عني كل هذه السنوات. لكنه لم يجدني أبداً. وهو الآن في مكان قريب. في الرباط."

نظرت ليلى، وقالت: "في الرباط؟"

أومأت الأم: "نعم. هو يعيش هناك منذ عشر سنوات. يبحث. ولم يتوقف أبداً."

وقفت ليلى، وقالت: "أريد أن أراه. الآن."

قالت الأم: "ليس الآن. يجب أن تستعدي. الحقيقة التي يخفيها قد تكون صادمة. ليس لأنه سيء، بل لأنه يخاف. يخاف أن تخسركِ كما خسرني."

جلست ليلى، وأمسكت بيد والدتها: "أنا مستعدة."

في تلك الليلة، نامت ليلى في غرفة الأم الصغيرة، على سرير ضيق، بينما نام آدم على أريكة في الغرفة المجاورة. كانت المدينة خارج النافذة مظلمة، وهدوء الليل يغمر المكان. لكن في قلب ليلى، كان هناك عاصفة.

قبل أن تنام، كتبت في دفترها الأسود:

"وجدت أمي. فقدت سنوات من حياتي دونها. والدي ينتظرني في الرباط. آدم وجد جزءاً من ماضيه. لكن السؤال الذي يرن في رأسي الآن: لماذا كل هذه الأسرار؟ ولماذا لم تخبرني أمي بكل شيء عندما كبرت؟ وماذا سيحدث عندما ألتقي بوالدي؟"

أغلقت الدفتر، ونظرت من النافذة إلى النجوم، وأحست أن الغد سيحمل أكثر مما تتوقع.

في صباح اليوم التالي، استيقظوا على صوت الأذان. قامت الأم بإعداد الفطور: خبز وزيت زيتون وشاي بالنعناع. جلسوا على الطاولة، والأجواء كانت هادئة لكنها مشحونة.

قالت الأم: "ليلى، هناك شيء يجب أن تعرفيه عن والدك. هو لم يغادر بسببي فقط. كان يحاول حماية شيء آخر. كان يعرف أشياء عن عائلتي، عن والدي، عن الأسباب التي جعلتني أختفي. هو خاف. خاف أن يخسركِ كما خسرني."

نظرت ليلى إلى والدتها، وقالت: "ماذا تعنين؟"

قالت الأم: "والدي، جدكِ، كان ليس مجرد رجل غاضب. كان متورطاً في أشياء لا أريد أن أخبركِ بها الآن. لكن عندما تكبرين، ستعرفين. لقد دفع ثمناً كبيراً لما فعله. لكنه ندم. في السنوات الأخيرة، حاول التواصل معي. لكنني رفضت. لقد آذاني كثيراً."

صمتت ليلى. كانت تتساءل عن الجد الذي لم تعرفه قط، وعن الأسباب التي جعلت العائلة تتشرذم إلى هذه الدرجة.

قال آدم، وهو يضع كوب الشاي على الطاولة: "إذا كان والدك في الرباط، فماذا تنوين أن تفعلي؟"

نظرت ليلى إلى والدتها، وقالت: "سأذهب إليه. لكن سأعود إليكِ. أنتِ الآن جزء من حياتي. لا أريد أن أفقدكِ مجدداً."

احتضنتها الأم، وبكت بصمت.

في وقت الظهيرة، غادر ليلى وآدم بيت الأم. وقفا أمام الباب الأزرق، والأم تقف في المدخل، تلوح لهما.

قالت ليلى: "سأعود. قريباً. أعدكِ."

قالت الأم: "أنا أعرف ذلك. أنتِ ابنتي، وأنا أثق بكِ."

مشيا عبر الزقاق، وعادا إلى ساحة باب دكالة، حيث كانت الشمس حارقة والمكان مزدحماً. وقفا للحظة، ينظران إلى الحشود، ثم نظر أحدهما إلى الآخر.

قال آدم: "إلى الرباط، إذن."

قالت ليلى: "إلى الرباط. لكن أولاً... نحتاج إلى خطة. لا يمكننا أن نذهب ونطرق بابه فجأة. يجب أن نعرف ما إذا كان يريد رؤيتي."

نظر إليها آدم، وقال: "لقد بحث عنكِ طوال السنوات. أعتقد أنه سيريد رؤيتكِ."

في طريق العودة إلى محطة القطار، توقفا في مقهى صغير في زقاق جانبي، وجلسا يشربان عصير البرتقال الطازج. كان الجو حاراً، والمروحة تدور ببطء فوق رأسهما.

قال آدم: "هل أنتِ خائفة؟"

قالت ليلى: "نعم. خائفة من أن يكون مختلفاً عما تخيلته. خائفة من أن يرفض رؤيتي. خائفة من أن يعرف الحقيقة ولا يحبها."

"لكنكِ ستذهبين على أي حال."

"نعم. لأنه لا يوجد خيار آخر."

نظر إليها، وقال: "أنا سأأتي معكِ. إذا أردتِ."

نظرت إليه بدهشة: "لماذا؟"

"لأني أريد أن أعرف أيضاً. عن أمي. عن العلاقة بينها وبين والدتك. ربما هناك شيء آخر لم نكتشفه بعد. ربما الساعة والمفتاح ليسا كل شيء. ربما هناك سر آخر."

صمتت ليلى، ثم أومأت.

وقفا، ودفعا ثمن العصير، ومشيا إلى محطة القطار. في القطار، جلست ليلى بجانب آدم هذه المرة، ونظرا من النافذة إلى المناظر المتغيرة.

قالت ليلى، وهي تشير إلى نافذة القطار: "هل تعتقد أننا سنجد الإجابات؟"

قال آدم: "أعتقد أننا سنجد ما يكفي لمواصلة البحث."

وفي تلك اللحظة، بينما كان القطار يتحرك عبر السهول الخضراء، شعرت ليلى بأنها ليست وحدها. شعرت أن هناك شخصاً يشاركها هذا البحث، حتى لو لم يكن يعرف السبب بعد.

كانت رحلة إلى الرباط، لكنها كانت أيضاً رحلة إلى شيء أكبر

الفصل الثاني عشر: ا

"كم من الوقت يمر قبل أن ننسى صوت من نحب؟"

كانت عجلات القطار تصدر إيقاعاً منتظماً على القضبان الحديدية، صوتاً يشبه دقات قلب هادئ، يرافق تحرك العربات عبر السهول الخضراء التي بدأت تتحول تدريجياً إلى تضاريس متموجة. جلست ليلى بجانب النافذة، وخدها يكاد يلامس الزجاج البارد. كانت المناظر تمر بسرعة: أشجار زيتون، حقول قمح، منازل طينية، وأطفال يلوحون من بعيد. لكنها لم ترَ شيئاً مما أمامها. كانت تنظر إلى الداخل، إلى ما لا تراه العيون.

في يدها، كانت تمسك وشاحاً من حرير ناعم، لونه زهري باهت، أهدتها إياه والدتها قبل أن تغادر. كانت رائحته قد تلاشت مع السنين، لكنها كانت لا تزال تحتفظ به كأنه جواز سفر إلى زمن لم يعد موجوداً.

آدم جلس مقابلها، ينظر إليها بين الحين والآخر، لكنه لم يقل شيئاً. كان يعرف أنها بحاجة إلى الصمت، وأن الكلمات في هذه اللحظة ستكون ثقيلة جداً. كان هو الآخر يحمل في جيبه صورة والدته، تلك الصورة التي كانت تقف فيها أمام مقهى "أوراق"، والساعة المتوقفة خلفها.

انحنت الشمس قليلاً، وبدأ ضوء المساء الذهبي يتسلل من النافذة، مرسماً ظلالاً طويلة على وجه ليلى. شعرت فجأة بأن الزمن يتوقف، كما لو أن القطار يسير في نفق طويل، غير مرئي، يأخذها إلى مكان آخر.

كانت في السادسة من عمرها.

تتذكر ذلك الصباح بوضوح غريب: ضوء الشمس يتسلل من الستائر البيضاء، وصوت أمها وهي تغني في المطبخ. كانت أغنية قديمة، عن طائر وحيد يحلق فوق البحر. لم تفهم الكلمات حينها، لكنها حفظت اللحن، وكأنه سيصبح يوماً ما يربطها بشيء لا تستطيع شرحه.

نامت ليلى على السرير، وعيناها نصف مفتوحتين، تشم رائحة الخبز التي تأتي من المطبخ، وتسمع صوت الماء وهو يغلي في القدر. فتحت عينيها ورأت أمها تقف عند باب الغرفة، مبتسمة، وتحمل صينية صغيرة عليها كوب من الحليب الدافئ وشريحة خبز محمصة.

قالت أمها: "انهضي يا نائمة. الشمس طلعت وأنتِ ما زلتِ في السرير."

نهضت ليلى، وفركت عينيها، ثم أمسكت بالكوب. كان الحليب دافئاً، وحلواً قليلاً، لأن أمها كانت تضع ملعقة صغيرة من العسل فيه كل صباح، تقول إن العسل يجعل القلوب قوية.

جلستا على الطاولة الصغيرة في المطبخ. كانت أمها ترتدي فستاناً أزرق فاتحاً، وشعرها الأسود الطويل منسدل على كتفيها. كانت عيناها زرقاوين، تشبهان البحر في يوم صاف.

قالت ليلى، وهي تغمس الخبز في الحليب: "ماما، لماذا اسمي ليلى ؟"

ضحكت أمها، وجلست أمامها: "لأنكِ تشبهيني، يا صغيرتي. وأنتِ أجمل هدية أعطاني إياها القدر."

"وأبي؟ لماذا اسمه عبد الرحمن؟"

تغير وجه أمها قليلاً. لكنها ابتسمت بعد لحظة، وقالت: "لأنه يحمل الرحمة في اسمه. وهو بعيد الآن، لكنه يحبكِ كثيراً."

نظرت ليلى إلى والدتها، وشعرت بأن هناك شيئاً في كلماتها لم تفهمه. لكنها لم تسأل. كانت صغيرة، والحليب كان دافئاً، والصباح كان جميلاً.

في مشهد آخر، كانت ليلى في السابعة، تقف على كرسي في المطبخ، بينما أمها تمسك بيديها الصغيرتين وتوجههما لعجن العجين. كانت الدقيق يتطاير على وجهيها، وأمها تضحك: "أنتِ أصبحتِ مثل قطعة خبز من كثرة الدقيق!" كانت ليلى تضحك أيضاً، وتحاول مسح الدقيق عن أنفها، لكنها تزيد الأمر سوءاً.

في المساء، كانت تجلسان معاً على الأريكة، وتقرأ لها أمها قصة عن فتاة صغيرة تجد مفتاحاً يفتح باباً إلى عالم آخر. كانت ليلى تنام ويدها ممسكة بيد أمها، وتستيقظ في الصباح لتجد يدها لا تزال هناك، دافئة، واثقة، كأنها تعدها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

كانت السماء تمطر، وركضتا معاً إلى الحديقة الخلفية، وأمها تمسك بيدها، وتقفزان فوق البرك المائية. كانت أمها تضحك كطفلة، وتقول: "المطر غسول السماء، يغسل كل شيء، حتى الأحزان!" ثم كانت ترفع وجهها إلى السماء، وتترك قطرات المطر تتساقط على وجهها، وعيناها مغمضتان، وكأنها تهمس بشيء لا تريد أن تسمعه ليلى.

كانت ليلى تنظر إلى أمها في تلك اللحظات، وتشعر بأنها تحمل سراً كبيراً، سراً جميلاً ومؤلماً في آنٍ واحد. لكنها لم تفهمه.

ثم بدأ شيء يتغير.

في يوم من الأيام، في السنة الثامنة من عمر ليلى، لاحظت أن أمها تبدو متعبة أكثر من المعتاد. كانت تجلس لفترات أطول على الكرسي في المطبخ، وعيناها نصف مغمضتين. سعالها أصبح أكثر تواتراً، وأكثر عمقاً، كأنه يأتي من مكان بعيد داخل صدرها.

قالت ليلى ذات مساء: "ماما، أنتِ متعبة؟"

ابتسمت أمها، لكن الابتسامة كانت أخف، كأنها تنطوي على شيء تحاول إخفاءه. "لا يا حبيبتي. أنا بخير. فقط نومي قليل هذه الأيام"

لكن ليلى لاحظت أن أمها كانت تضع يدها على صدرها أحياناً، وكأنها تحمي شيئاً داخلها. ولاحظت أن أمها كانت تنظر إليها أطول من المعتاد قبل أن تنام، وكأنها تريد أن تخزن ملامحها في ذاكرتها.

في أحد الأيام، كانت ليلى تلعب في غرفتها، فسمعت صوتاً خافتاً من المطبخ. كانت أمها تتحدث في الهاتف، بصوت منخفض، لكن بعض الكلمات تسللت إلى أذنيها:

"... لا، لا أستطيع أن أقول لها. هي صغيرة جداً... إن عرفت، ستخاف... سأجد طريقة... سأخبرها عندما يحين الوقت..."

لم تفهم ليلى شيئاً. لكنها شعرت بأن شيئاً ما يتشكل تحت سطح الأشياء، كصخرة تظهر ببطء من تحت الماء.

في المساء، جلست أمها بجانبها على السرير، وربتت على شعرها، وقالت: "ليلى، هل تحبين أن تعرفي قصة عن رجل كان يعيش في منارة، وينتظر عودة سفينة لم تأتِ أبداً؟"

"نعم يا ماما."

بدأت أمها تروي القصة. لكن ليلى، وهي تستمع، شعرت بأن القصة لم تكن عن المنارة فقط، بل عن شخص ما. عن شخص كان ينتظر، دون أن يعرف إن كان من ينتظره سيأتي يوماً.

نامت ليلى، وفي يدها وشاح أمها الحريري الزهري، الذي كانت قد أهدتها إياه في ذلك المساء، وقالت لها: "احتفظي بهذا، فهو يحمل كل حبي لكِ."

في السنة التاسعة، أصبحت أمها أضعف.

كانت تمشي ببطء، وتستريح كثيراً، وتنام في منتصف النهار. كانت لا تزال تبتسم، لكن الابتسامة كانت تأخذ جهداً أكبر مما كانت تفعل. في أحد الأيام، جلست ليلى بجانبها، وقالت: "ماما، هل سنذهب إلى الحديقة مرة أخرى؟ إلى حيث المطر؟"

نظرت أمها إليها، وعيناها تحملان حزناً عميقاً لم ترَه ليلى من قبل. قالت: "قريباً يا حبيبتي. قريباً جداً. لكني أحتاج إلى أن أستريح قليلاً."

في ذلك المساء، دخلت امرأة إلى البيت، كانت ترتدي معطفاً أسود، وتحمل حقيبة طبية. كانت طبيبة. تحدثت مع أمها بصوت منخفض، وخرجت بعد ساعة. ليلى كانت تراقب من زاوية الباب، ورأت أمها تبكي بصمت بعد أن غادرت الطبيبة.

لم تقترب منها. شعرت بأنها لا تستطيع. وقفت هناك، تنظر إلى أمها التي كانت تحاول إخفاء دموعها، وشعرت بشيء يتكسر داخلها، شيء لا تعرف اسمه.

في اليوم التالي، جاءت امرأة أخرى، عجوز، تدعى خالة فاطمة. قالت لأمها: "يجب أن تأخذي راحة. سأعتني بليلى لبضعة أيام."

نظرت ليلى إلى أمها، خائفة. قالت: "ماما، أين تذهبين؟"

جثت أمها على ركبتيها أمامها، وأمسكت بيديها الصغيرتين. كانت دموعها تتساقط على خديها. قالت: "سأذهب إلى مكان بعيد يا حبيبتي. لأتحسن. سأعود قريباً. أعدكِ."

"لكن ماما، أنا لا أريدكِ أن تذهبي."

"أنا لا أريد أن أذهب أيضاً. لكن يجب أن أذهب لأعود إليكِ أقوى. سأعود، ليلى. سأعود لأحميكِ دائماً."

احتضنتها، واحتضنتها ليلى بقوة. ثم وقفت أمها، ونظرت إلى البيت الأخير، وأخذت حقيبتها، ومشت نحو الباب.

وقفت ليلى في المدخل، تشاهد أمها تمشي بعيداً. كانت أمها تنظر إلى الخلف بين الحين والآخر، وتلوح بيدها، وتبتسم. ثم اختفت خلف زاوية الشارع.

لم تعد.

مرت الأيام. مرت الأسابيع. مرت الشهور.

كانت ليلى تعيش مع خالة فاطمة، التي كانت طيبة لكنها صامتة. كانت تطعمها وتغسل ملابسها وتذهب بها إلى المدرسة. لكنها لم تكن أمها.

في كل مساء، كانت ليلى تجلس عند النافذة، تنظر إلى الشارع، تنتظر صوت خطوات أمها على الرصيف. كانت تتخيل أنها تسمع صوتها، وتجري إلى الباب، فتجدها واقفة هناك، مبتسمة، وتحمل كيساً من الحلويات.

لكنها لم تأتِ.

في بعض الليالي، كانت ليلى تبكي في سريرها، وتضم وشاح أمها إلى صدرها، وتحاول تذكر رائحتها. لكن الرائحة كانت تتلاشى. وتذكر صوتها كان يبهت. وتحاول تذكر شكل عينيها، لكن الصورة كانت تصبح ضبابية.

ذات مساء، سألت خالة فاطمة: "خالة، متى ستعود أمي؟"

نظرت إليها خالة فاطمة، وصمتت طويلاً، ثم قالت: "قريباً يا بنيتي. هي في مكان بعيد، لكنها تفكر فيكِ كل يوم."

"لماذا لا تتصل بي؟"

"الهاتف مقطوع هناك. لكنها ترسل لكِ حبها من بعيد."

كانت ليلى تسمع هذه الكلمات، وتشعر بأنها غير حقيقية. لكنها كانت تريد أن تصدق. كانت تريد أن تصدق أكثر من أي شيء في العالم.

في ليلة أخرى، سمعت خالة فاطمة تتحدث مع شخص ما في الهاتف: "نعم، هي لا تزال تنتظر. كل يوم. تجلس عند النافذة. لا أعرف كم ستتحمل. لا أعرف متى ستعود. هم يقولون إنها... لا، لا يمكنني أن أخبرها بذلك. ليس الآن. هي ما زالت صغيرة."

لم تفهم ليلى كل الكلمات، لكنها فهمت أن هناك شيئاً لا يخبرونها به.

كبرت ليلى. في العاشرة، بدأت تفهم أن أمها لن تعود. في الثانية عشرة، توقفت عن الجلوس عند النافذة. في الخامسة عشرة، توقفت عن البكاء ليلاً.

لكنها لم تتوقف عن التساؤل رغم نسيانها لمعظم فترات حياتها

كانت تسأل نفسها: أين أمي؟ لماذا تركتني؟ هل كانت مريضة حقاً؟ هل ماتت؟ هل تخلى عنها أحد؟ و اين ابي

كانت خالة فاطمة ترد عليها بإجابات غامضة: "أمك كانت مريضة جداً يا بنيتي. لكنها أحبتكِ كثيراً. أكثر مما تتخيلين. ستعرفين الحقيقة يوماً ما. عندما تكونين كبيرة بما يكفي."

وكانت ليلى تحاول أن تكون كبيرة بما يكفي. لكن كلما كبرت، أصبحت الأسئلة أكبر.

في السادسة عشرة، وجدت صورة قديمة لأمها في درج خالة فاطمة. كانت أمها واقفة أمام بيت قديم، مبتسمة، وتحمل في يدها شيئاً صغيراً بدا كمفتاح. سألت خالة فاطمة عنها، فقالت: "هذه صورة قديمة. البيت... بيت لا يهم الآن."

لم تصدق ليلى. لكنها احتفظت بالصورة في مكان آمن، ونظرت إليها كل ليلة، محاولة أن تتذكر صوت أمها، شكل عينيها، دفء يديها. لكن الذاكرة كانت تخونها. كان وجه أمها يبهت، كصورة تتعرض للشمس.

في الثامنة عشرة، دخلت الجامعة، وبدأت حياة جديدة. كانت تقابل الناس، وتدرس، وتكتب في دفترها الأسود. لكنها كانت تحمل دائماً سؤالاً في داخلها، سؤالاً لم تجرؤ على طرحه بصوت عالٍ: "هل يمكن للفتاة أن تصبح بالغة إذا كانت لا تزال تنتظر عودة أمها؟"

فجأة، اهتز القطار قليلاً، وعادت ليلى إلى الحاضر.

كانت تنظر إلى الوشاح الزهري في يدها، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع، لكنها لم تبك. كانت قد تعلمت أن تبكي بصمت، كما كانت أمها تفعل في المطبخ قبل سنوات.

نظرت إلى آدم، الذي كان يراقبها دون أن يتكلم. نظرت إلى النافذة، حيث كان المساء يبدأ في الاحتلال، والسماء تتحول إلى لون برتقالي داكن. كانت المناظر التي تمر أمامها لا تبدو كما كانت من قبل. كانت تبدو أكثر وضوحاً، كأنها تراها لأول مرة.

سألت بصوت خافت، يكاد لا يُسمع فوق صوت عجلات القطار: "هل يمكن للإنسان أن يشتاق إلى وجه لم يعد يتذكره؟"

صمت آدم طويلاً.

ثم قال بصوت هادئ، خافت: "نعم. يمكنه أن يشتاق إلى ما لا يتذكره. لأن الشوق ليس للشكل، بل للشعور. للدفء الذي كان يعرف أنه موجود."

نظرت إليه. كان وجهه في ضوء الغروب يبدو مختلفاً: أكثر نضجاً، أكثر إنسانية. قالت: "كيف تعرف ذلك؟"

قال: "لأنني كنتُ أشتاق إلى أمي طوال حياتي، ولم أكن أعرف شكلها حقاً. كنتُ أشتاق إلى شيء لا أملك صورته. فقط الشعور بأنها كانت هناك."

صمتا معاً، يتقاسمان ما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

ثم سمع صوت المذيع عبر مكبرات الصوت: "المحطة القادمة... الرباط. المحطة القادمة... الرباط."

نهضت ليلى ببطء، وأخذت حقيبتها، ووضعت الوشاح في جيبها بالقرب من قلبها. وقفت، ونظرت من النافذة إلى المدينة التي بدأت تظهر في الأفق: أبنية بيضاء، وأشجار نخيل، ونهر يلمع تحت ضوء الغروب.

قالت بصوت هادئ: "إنه هنا. أبي. في هذه المدينة."

وقف آدم بجانبها، وقال: "هل أنتِ مستعدة؟"

نظرت إليه، وقالت: "لستُ متأكدة مما يعنيه أن تكون مستعداً. لكني سأذهب."

توقف القطار ببطء، وصدر صوت صفير طويل. وقفت ليلى عند باب العربة، والهواء المسائي يداعب وجهها. كانت الرباط تنتظرها. كان والدها ينتظرها. كانت الحقيقة تنتظرها.

لكنها لم تكن تعرف إن كانت الحقيقة ستحمل لها السلام، أم المزيد من الأسئلة.

نزلت من القطار، وخطت خطوتها الأولى على رصيف محطة الرباط، وشعرت بأن كل خطوة كانت تحمل وزن كل السنوات التي انتظرتها.

كانت هناك.

الفصل الثالث عشر:

"ليس كل من يحمل اسماً يصبح أبا. وليس كل من ينتظر طويلاً يعرف كيف يستقبل."

توقف القطار بصوت صفير طويل، أشبه بتنهد عملاق يطلق أنفاسه بعد رحلة شاقة. وقفت ليلى عند باب العربة، ونظرت إلى رصيف المحطة من خلال الزجاج المتسخ. كان المكان يفيض بالحركة: مسافرون يجرون حقائبهم، عائلات تتجمع، أطفال يركضون، وباعة متجولون يعرضون العصائر والمكسرات. رائحة الحديد الرطب والغبار والقهوة المرة تملأ الهواء.

نزلت من القطار خطوة، ثم توقفت.

أمسكت بحقيبتها الصغيرة بقوة، وشعرت بأن قدميها أصبحتا ثقيلتين كالصخر. آدم وقف بجانبها، ولم يقل شيئاً، فقط وضع يده برفق على كتفها لحظة، كأنه يقول: "أنا هنا."

نظرت إلى الوجوه. كل رجل في الأربعين أو الخمسين كان يبدو وكأنه ربما يكون والدها. رجل يرتدي قبعة، آخر يحمل حقيبة جلدية، ثالث يقف وحيداً وينظر إلى ساعته. لكنها لم تعرف أياً منهم.

ثم رأته.

وقف بعيداً قليلاً، عند عمود حديدي قرب مخرج المحطة. كان يرتدي معطفاً بيجاً قديماً، وشعراً أسود يخالطه البياض عند الصدغين. كان نحيلاً، أطول مما توقعت، ووجهه يحمل تجاعيد عميقة لم تكن في الصورة التي احتفظت بها. كان ينظر إليها مباشرة، لكنه لم يتحرك. كان واقفاً هناك، كأنه ينتظر منها أن تقرر.

خطت ليلى خطوة نحو الأمام، ثم توقفت مجدداً. كان هناك مسافة لا تزيد عن عشرة أمتار تفصل بينهما، لكنها شعرت بأنها تمتد لعشرين عاماً.

تحرك الرجل أخيراً، خطوة، ثم أخرى. كان يمشي ببطء، كما لو أن كل خطوة كانت تحمل وزناً لا يطاق. توقف على بعد خطوتين منها، ونظر إليها، ولم يستطع أن يقول أي شيء.

كانت عيناه زرقاوين، مثل عينيها تماماً.

قالت ليلى، وصوتها يكاد لا يُسمع فوق ضجيج المحطة: "أبي؟"

أومأ برأسه، ولم يستطع أن يرفع عينيه عن وجهها. كان ينظر إليها كأنها معجزة، أو كأنه يرى شبحاً لا يصدق وجوده. فتح فمه ليتكلم، لكنه لم يخرج أي صوت. ثم حاول مرة أخرى:

"رحلتك... كانت متعبة؟"

قالها وكأنها كانت الجملة الوحيدة التي تمكن من حفظها في رأسه منذ أيام. سألها هذا السؤال البسيط، عن رحلة القطار، وكأن عشرين عاماً من الغياب يمكن اختصارها في سؤال عن التعب.

ابتسمت ليلى ابتسامة صغيرة، غير مؤكدة: "كانت طويلة. لكنني وصلت."

وقفا هناك، ينظران إلى بعضهما، ولا يعرفان أين يضعان أيديهما. كان الناس يمرون بجانبهما، يدفعونهم قليلاً، لكنهما لم يتحركا. كان هناك شيء في الهواء بينهما، شيء لا يمكن لمسه، ثقيل ومؤلم وحنون في آن واحد.

آدم وقف على بعد خطوات، يراقب، ولم يتدخل. كان يعرف أن هذه اللحظة ليست له، وأن وجوده هو مجرد ظل في الخلفية، شاهد على شيء لا يستطيع فهمه كاملاً.

قال عبد الرحمن أخيراً، وهو ينظر إلى آدم: "هذا... صديقكِ؟"

قالت ليلى: "هذا آدم. هو... رافقني."

نظر إليه عبد الرحمن، وأومأ برأسه تحية، ثم عاد إلى ليلى: "هل تريدين... أن نذهب إلى مكان هادئ؟ هناك مقهى صغير قريب، على الكورنيش. يمكننا الجلوس هناك."

أومأت ليلى، وتبعته.

خرجوا من المحطة إلى شارع واسع، حيث كانت أشجار النخيل تصطف على جانبي الطريق، والرياح البحرية الخفيفة تحمل رائحة الملح واليود. مشوا ببطء، وعبد الرحمن كان يشير بين الحين والآخر إلى مبانٍ أو شوارع، يحاول أن يملأ الصمت بكلمات لا معنى لها: "هذا المبنى جديد... هذه الحديقة كانت أصغر..." لكن كلماته كانت تختفي في الهواء كالدخان.

وصلوا إلى مقهى صغير على الكورنيش، كانت طاولاته الخشبية تطل على المحيط الأطلسي. جلسوا على طاولة قرب الحاجز، حيث يمكنهم رؤية الأمواج وهي تتكسر على الصخور البعيدة. الجو كان معتدلاً، والشمس بدأت تغرب، تاركة أثراً ذهبياً على سطح الماء.

طلب عبد الرحمن قهوة، وطلبت ليلى شاياً، وجلس آدم على الطاولة المجاورة، بعيداً بما يكفي ليمنحهما الخصوصية، وقريباً بما يكفي ليشعر بأنه ليس وحيداً.

صمت طويل.

نظر عبد الرحمن إلى كأس القهوة بين يديه، ثم رفع عينيه إلى ليلى. قال بصوت خافت: "أنتِ تشبهينها كثيراً. أمك. نفس العيون، نفس الطريقة التي تمسكين بها كأسك."

ابتسمت ليلى، لكن الابتسامة كانت مرة. قالت: "لم أعد أتذكر وجهها جيداً. كلما حاولت، أصبحت الصورة أكثر ضبابية."

نظر إليها، وكانت عيناه تحملان ألماً عميقاً: "أنا آسف. أنا آسف لأنكِ كبرتِ بدوني. لأنني لم أكن هناك. لأنكِ عشتِ كل هذه السنوات تسألين، ولم يأتِكِ جواب."

قالت، وصوتها يرتجف قليلاً: "لماذا؟ لماذا لم تأتِ؟ لماذا لم تبحث عني؟"

وضع كأس القهوة على الطاولة، وأخذ نفساً عميقاً. بدأت يداه ترتجفان، فأخفاهما تحت الطاولة.

قال: "لقد حاولت، ليلى. حاولت كثيراً. لكنهم منعوني. عائلتها. كانوا يهددونني، يقولون إنهم سيؤذونكِ إن اقتربتُ. كنتُ أخاف. خفتُ أن أفقدكِ كما فقدتها."

"من هم 'هم'؟"

تردد لحظة، ثم قال: "والدها. جدكِ. كان رجلاً خطيراً. كان يتحكم في كل شيء. عندما تزوجنا سراً، كان غاضباً جداً. ثم عندما مرضتْ أمكِ، اتهمني بأنني سبب مرضها. هددني. قال إنه سيبعدكِ عني إلى الأبد إن لم أبتعد. أنا... أنا صدقته. كنتُ خائفاً. وكنتُ أبحث عن علاج لها في نفس الوقت. حاولت أن أجدها، أن أعرف أين هي. لكنهم أخفوها عني تماماً."

قالت ليلى، وعيناها تدمعان: "وهل توقفت عن المحاولة؟"

"لا. لم أتوقف أبداً. كنتُ أكتب لكِ رسائل كل أسبوع. كنتُ أحاول إرسالها عبر يوسف، أخي. لكنه أخبرني أنها لم تصل. قال إنهم يعترضون كل شيء. ثم... عندما كبرتِ، كنتُ أنتظر اللحظة المناسبة. لكن الخوف كان يمنعني. كنتُ أخاف أن أراكِ، أن تخافي مني، أن تكرهيني."

وقفت ليلى فجأة، وذهبت إلى حاجز الكورنيش، ونظرت إلى البحر. كانت الأمواج تتكسر بصوت هادئ، والنسيم يعبث بشعرها. وقف عبد الرحمن، ومشى إليها ببطء، ووقف بجانبها.

قالت، وهي لا تنظر إليه: "طوال حياتي، ظننتُ أنك تخلّيت عني. ظننتُ أنك لم تردني. ظننتُ أنني كنتُ عبئاً."

نظر إليها، وقال بصوت مكسور: "أنتِ لم تكوني عبئاً أبداً. أنتِ الشيء الوحيد الذي ظللتُ أحلم به كل ليلة. كنتُ أنظر إلى صورتكِ كل يوم، الصورة التي التقطتها لكِ وأنتِ طفلة. كنتُ أحتفظ بها في جيبي. كنتُ أتحدث إليها في الليل، وأخبرها أنني سأراكِ يوماً."

التفتت إليه، ودمعة تتساقط من عينها: "لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تكتب لي مباشرة؟"

نظر إليها، وقال: "كتبتُ. ألف رسالة. كلها ضاعت. بعضها أعادوها إليّ. وبعضها اختفى. لكنني لم أتوقف. كتبتُ لكِ رسالة في عيد ميلادكِ العاشر، وفي الخامس عشر، وفي العشرين. كلها في ذلك الصندوق. الصندوق الذي في بيتي. كنتُ أنتظر أن تكبري بما يكفي لأعطيه لكِ."

ساد صمت بينهما، صمت مليء بكل الكلمات التي لم تُقل. ثم قال: "هل تريدين أن تأتي إلى البيت؟ لأريكم الصندوق. ليس الآن، بل عندما تكونين مستعدة."

نظرت إليه، وقالت: "أنا مستعدة الآن."

عادوا إلى المقهى، حيث آدم كان لا يزال جالساً، ينظر إلى الأفق. وقفت ليلى بجانبه، وقالت: "سأذهب معه إلى منزله. هل تريد أن تأتي معي؟"

نظر إليها آدم، وقال: "إذا كنتِ تريدينني أن آتي، سآتي. لكني أشعر أن هذا اللقاء يجب أن يكون لكِ أنتِ."

نظرت إليه، وشعرت بالامتنان: "شكراً لكِ. سألتقي بكِ لاحقاً في الفندق."

مشى عبد الرحمن وليلى عبر الشوارع الهادئة في الرباط، حيث كانت المباني البيضاء تتلألأ تحت ضوء الغروب. كان يمشي ببطء، كأنه يريد أن تطول الرحلة، وكأن كل خطوة كانت ثمينة.

وصلوا إلى منزل صغير في حي هادئ، بواجهة بيضاء ونافذة تطل على شارع ضيق. فتح الباب، ودخلت ليلى.

كان المنزل بسيطاً، نظيفاً، مليئاً بالكتب والأوراق. على الجدران، كانت هناك صور. صور لأشخاص لم تعرفهم، وصور قديمة، وصورة واحدة كانت مألوفة: صورة لأمها، مبتسمة، في إطار خشبي على طاولة صغيرة.

أشار إلى غرفة في نهاية الممر: "هناك. في تلك الغرفة. الصندوق هناك."

وقفت ليلى عند باب الغرفة. كانت غرفة صغيرة، تحتوي على مكتب خشبي قديم، وكرسي، ومجموعة من الصناديق والدفاتر. في الزاوية، كان هناك صندوق خشبي متوسط الحجم، مغطى بالغبار، ومغلق بقفل صغير.

نظرت إلى عبد الرحمن: "هل يمكنني فتحه؟"

وقف بجانبها، وقال بصوت هادئ، خائف تقريباً: "كنت أنتظر أن تكبري... قبل أن أفتحه. والآن أنتِ هنا. افتحيه متى شئتِ. لكن اعلمي أن ما بداخله... ليس كله جميلاً. بعضه مؤلم. بعضه قد يغير نظرتكِ إلى أشياء كثيرة."

جلست ليلى على ركبتيها أمام الصندوق، ونظرت إلى القفل الصغير. ثم نظرت إلى والدها، وقالت: "أنا مستعدة."

أمسكت القفل، وفتحته، ورفعت غطاء الصندوق ببطء. كان بداخله كومة من الأظرف الصفراء، والصور، والدفاتر، وشيء صغير ملفوف بقطعة قماش بيضاء.

رفعت أول ظرف، وكان مكتوباً عليه بخط يد رقيق: "إلى ليلى، في عيد ميلادها العاشر."

نظرت إلى والدها، وعيناها تدمعان: "أنت كتبت هذا؟"

أومأ، وهو لا يستطيع الكلام.

فتحت الظرف، وبدأت تقرأ بصمت. كانت الكلمات تتساقط على قلبها كالمطر. كلمات عن حب لا يتوقف، عن أمل لا يموت، عن انتظار لا ينتهي.

أغلقت الظرف، ووضعته في حجرها. ثم رفعت عينيها إلى والدها، وقالت: "لماذا أخفيت هذا عني كل هذه السنوات؟"

جلس على الأرض بجانبها، ونظر إلى الصندوق، وقال: "لأنني كنتُ أخاف أن تكرهيني. أن ترى كل هذه الرسائل وتتساءل لماذا لم تأتِ. كنتُ أخاف أن تكون الإجابة: لأنني كنتُ جباناً."

صمتت ليلى، ثم مدت يدها، ووضعتها على يده. كانت يده باردة ومرتجفة. قالت: "أنا لا أكرهك. أنا لا أعرف ما أشعر به بعد. لكني لا أكرهك."

نظر إليها، وعيناه مغرورقتان بالدموع، لكنه لم يبكِ. قال: "هذا يكفيني. هذا أكثر مما تمنيت."

جلست ليلى هناك، في الغرفة الصغيرة، محاطة برسائل لم تقرأها بعد، وصور لم ترها من قبل، وأسئلة لم تجب عنها بعد. كانت تعرف أن الغد سيكون مختلفاً. لكنها في هذه اللحظة، كانت تشعر بشيء لم تشعر به منذ سنوات طويلة: أنها لم تكن وحدها أبداً.

الفصل الرابع عشر:

"ما تخفيه الصناديق ليس الأشياء، بل السنوات التي انتظرت فيها."

كان الصمت في الغرفة الصغيرة ثقيلاً، كأن الجدران تمتص الأصوات قبل أن تولد. وقفت ليلى أمام الصندوق الخشبي، راكعة على ركبتيها، ونظرت إلى القفل المفتوح بين يديها. كانت يدها ترتجف قليلاً، ليس من البرد، بل من ثقل كل السنوات التي كانت تنتظر هذه اللحظة.

قال عبد الرحمن، وهو يقف على بعد خطوات، لا يجرؤ على الاقتراب: "لا تفتحيه الآن إذا لم تكوني مستعدة. يمكن أن ننتظر. يمكن أن نأخذ وقتنا."

لم ترفع ليلى عينيها عن الصندوق. قالت بصوت هادئ، لكنه كان يحمل إصراراً غريباً: "لقد انتظرت عشرين عاماً. لا أريد الانتظار أكثر."

رفعت الغطاء ببطء، وصدر صوت خشبي قديم، كأن الصندوق يتنفس بعد نوم طويل. كانت الرائحة التي تصاعدت منه تشبه رائحة الزمن نفسه: مزيج من الورق القديم والغبار والخشب المتآكل، مع أثر خفي من شيء حلو، ربما من عطر قديم.

جلست ليلى على الأرض، وبدأت تخرج المحتويات واحدة تلو الأخرى، كما لو كانت تنتشل أجزاء من حياة لم تعشها.

الطبقة الأولى كانت رسائل. عشرات الأظرف الصفراء، بعضها مختوم بشمع أحمر، وآخر مغلق بشريط لاصق عادي. كل ظرف كان يحمل اسمها بخط يد أبيها، وتاريخاً مختلفاً: أول ظرف كان بتاريخ 15 مارس 1999، وآخرها بتاريخ 3 يناير 2023. دق قلبها. كان يكتب لها حتى قبل أشهر.

أخرجت أول ظرف، وفتحته ببطء. كانت الورقة بداخله رقيقة، صفراء، مكتوب عليها بخط أنيق: "ليلى العزيزة، اليوم حاولت الاتصال بكِ، لكن خالة فاطمة قالت إنكِ مشغولة.

ربما هذا صحيح، أو ربما هي تحميكِ مني. لا أعرف. لكني أكتب لكِ هذا لأخبركِ أنني لا زلت هنا. أنتظر. أرسلت لكِ هدية صغيرة، لعبة قطار، لعلكِ تتذكرين أننا كنا نحلم بالسفر معاً. ربما تصل إليكِ يوماً."

لم تصلها اللعبة أبداً. أغلقت ليلى الظرف، وشعرت بشيء يتكسر في صدرها.

تحت الرسائل، وجدت مجموعة من الصور. التقطت الصورة الأولى، وكانت لأمها وأبيها معاً، يقفان أمام بيت صغير، وكلاهما يبتسمان. أمها كانت ترتدي فستاناً أبيض، وأبيها كان يضع يده على كتفها. كانا يبدوان سعيدين، صغيرين، مليئين بالأمل. قلب الصورة، وقرأت على ظهرها بخط أمها: "عبد الرحمن وليلى 1996 قبل أن يخاف العالم"

سألت بلا صوت: "ماذا يعني 'قبل أن يخاف العالم'؟"

نظر إليها عبد الرحمن، وقال، وصوته خافت: "يعني قبل أن يتغير كل شيء. قبل أن يصبح الحب شيئاً نخاف منه."

وضعت الصورة جانباً، ورفعت الصورة التالية. كانت لأمها وحدها، جالسة على حجر، تنظر إلى الأفق بملامح حزينة. كانت تحمل في يدها ساعة جيب صغيرة. كتب على الظهر: "ليلى 1998 "

تحت الصور، وجدت دفتراً صغيراً، غلافه من الجلد الأسود. فتحته، وكانت الصفحات الأولى مملوءة بخط يد أمها: كلمات عن الحب، عن الخوف، عن رغبتها في أن تعيش طويلاً لأجل ابنتها. لكن الصفحات الأخيرة كانت فارغة، وكأن الكلمات توقفت فجأة.

ثم وجدت شيئاً صغيراً ملفوفاً بقطعة قماش بيضاء. فتحته، وكانت ساعة جيب قديمة، من النحاس الأصفر، تشبه إلى حد كبير الساعة في مقهى "أوراق"، لكنها أصغر. كانت عقارب الساعة متوقفة عند الساعة 11:07 أيضاً.

رفعت الساعة إلى ضوء النافذة، ونظرت إليها طويلاً. كانت نفس الساعة التي كانت في صورة أمها، والتي ذكرتها رسائل آدم عن والدته.

قالت، وصوتها يرتجف: "هذه الساعة... لماذا هي متوقفة عند 11:07؟"

جلس عبد الرحمن على الأرض بجانبها، ونظر إلى الساعة بعينين حزينتين: "لأنها توقفت في اللحظة التي غادرت فيها أمك. كنتُ أحملها معي عندما ذهبت إلى المستشفى لآخر مرة. عندما عدت، كانت قد توقفت. لم أستطع إصلاحها. وكأنها كانت تقول إن الزمن توقف هناك."

صمتت ليلى، ووضعت الساعة في حجرها. شعرت بأن كل شيء كان يتقاطع، وأن كل خيط كان يقودها إلى هذه الساعة، وهذه اللحظة، وهذا الرقم.

ثم، في قاع الصندوق، وجدت شيئاً مختلفاً. ظرفاً أبيض، مختوماً بشمع أحمر، لكن الشمع مكسور وكأنه فُتح من قبل. كان مكتوباً عليه بخط مختلف، أكثر حدة: "إلى من يقرأ هذا، بعد زمن طويل."

رفعت الظرف، ونظرت إلى عبد الرحمن. نظر إليها، وقال بصوت خافت، متردد: "هذا... هذا ليس مني. وجدته في الصندوق بعد سنوات. لا أعرف من وضعه هناك."

فتحت ليلى الظرف، وأخرجت ورقة مطوية، قديمة جداً. كان الخط مختلفاً تماماً عن خط أبيها وأمها. كان أكثر جفافاً، أكثر رسمية.

قرأت بصمت:

"إذا كنتِ تقرئين هذا، فقد حان الوقت لتعرفي الحقيقة. هناك أشياء لا يمكن للكلمات أن تحميها. أمك لم تغادر فقط بسبب المرض. لقد كانت تخاف من شيء أكبر. هناك من كان يتحكم في حياتها، وفي حياتكِ، دون أن تعرفي. ابحثي عن الرجل الذي يحمل مفتاحاً آخر. سيفتح لكِ الأبواب التي أغلقتها عائلتك. لا تثقي بكل ما ترينه. بعض الصور تخفي أكثر مما تظهر."

لم يكن هناك توقيع.

رفعت ليلى عينيها عن الورقة، ونظرت إلى أبيها بعينين واسعتين. قالت: "من كتب هذا؟"

نظر إليها عبد الرحمن، وكان وجهه شاحباً. قال: "لا أعرف. وجدته في الصندوق قبل سنوات، عندما نقلت ممتلكات أمك من بيت خالة فاطمة. لم أخبركِ به لأنني لم أكن أعرف إن كان صحيحاً. لكن مع كل ما اكتشفته، أعتقد أن شخصاً ما كان يراقبنا. شخصاً ما كان يعرف أكثر مما أخبرونا به."

وقفت ليلى فجأة، وبدأت تمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً. كانت تحمل الورقة في يدها، وتقرؤها مراراً، وكأنها تبحث عن كلمة مخفية بين السطور.

قالت: "هذا يعني أن هناك شيئاً آخر. شخصاً آخر. شخصاً كان يتحكم في كل شيء. ربما الجد. ربما شخص آخر. لكن من الذي كتب هذا؟ ومن وضعه في الصندوق؟"

قاطعها صوت من الباب. كان آدم واقفاً هناك، وقد عاد من جولته في المدينة. نظر إليها، ثم إلى الورقة في يدها، وقال: "هل أنتِ بخير؟"

نظرت إليه، وقالت: "لقد وجدت شيئاً. شيئاً لا أفهمه."

دخل آدم، وجلس على الكرسي القريب. نظر إلى الصندوق ومحتوياته المتناثرة على الأرض، ثم إلى وجه ليلى الشاحب. قال: "هل تريدين أن تشاركيني؟"

أعطته الورقة بصمت. قرأها ببطء، ثم رفع عينيه إليها: "هذا يعني أن هناك شخصاً آخر في القصة. شخصاً كان يعرف كل شيء. ربما هو من اعترض الرسائل، وربما هو من كان يخفي الحقيقة عنكِ."

قال عبد الرحمن: "لقد حاولت أن أعرف من كتبها. سألت يوسف، سألت خالة فاطمة، حتى سألت بعض أقارب عائلتها. لكن لا أحد يعرف شيئاً. أو لا يريد أن يقول."

جلست ليلى على الأرض مجدداً، وأغلقت عينيها لحظة. كانت تحاول أن ترتب كل شيء في رأسها: الساعة، المفتاح، الرسائل، الصور، الورقة الغامضة. كلها كانت تشير إلى شيء واحد: أن الحقيقة لم تُكشف بعد.

قالت بصوت خافت: "إذا كان هناك من يتحكم في كل هذا، فلماذا ترك هذا الظرف في الصندوق؟ ولماذا الآن؟"

نظر إليها آدم، وقال: "ربما لأن الوقت قد حان. ربما لأن الشخص الذي كتبه يعرف أنكِ ستجدينه الآن."

في تلك اللحظة، وقف عبد الرحمن، وذهب إلى خزانة صغيرة في زاوية الغرفة، وأخرج شيئاً صغيراً من درجها. كان ظرفاً آخر، أبيض أيضاً، لكنه غير مختوم. أعطاه لليلى، وقال: "هذا ليس في الصندوق. هذا مني. وجدته في صندوق البريد قبل يومين، وكان مكتوباً عليه 'إلى ليلى' بخط لا أعرفه. لم أفتحه. انتظرتكِ لتفتحيه."

أخذت ليلى الظرف، ونظرت إليه. كان مكتوباً عليها، في الزاوية اليمنى السفلى، كلمات صغيرة: "من شخص يعرف أكثر مما يقول."

نظرت إلى أبيها، ثم إلى آدم، ثم إلى الظرف في يدها. كانت تعرف أنها إذا فتحته الآن، قد ينهار كل شيء، أو قد يبدأ كل شيء من جديد.

وضعت الظرف في جيبها، وقالت: "سأفتحه عندما أكون وحدي. عندما أكون مستعدة."

وقف آدم، وقال: "ربما حان وقت المغادرة. يمكننا العودة إلى الدار البيضاء غداً."

أومأت ليلى، ونظرت إلى أبيها: "سأعود. سأعود لأقرأ بقية الرسائل. ولأعرف المزيد. لكني أحتاج إلى وقت."

نظر إليها عبد الرحمن، وقال بصوت يرتجف: "سأنتظر. كما انتظرت كل هذه السنوات."

خرجت ليلى من المنزل مع آدم، وكانت السماء قد أظلمت بالكامل، والنجوم بدأت تظهر فوق الرباط. مشيا في الشوارع الهادئة، ولم يتحدثا كثيراً. عندما وصلا إلى الفندق، توقفت ليلى أمام الباب، ونظرت إلى آدم.

قالت: "شكراً لكِ. على وجودك هنا."

نظر إليها، وقال: "أنا هنا. دائماً."

صعدت إلى غرفتها، وأغلقت الباب، وجلست على السرير، وأخرجت الظرف من جيبها. نظرت إليه طويلاً، ثم وضعته على الطاولة جانباً.

لم تفتحه.

لأنها كانت تعرف أنه بمجرد أن تفتحه، لن يكون هناك طريق للعودة.

نامت والظرف تحت وسادتها، كأنها تحمي سراً لم تعرفه بعد.

.

الفصل الخامس عشر:

"بعض الكلمات تسافر أبطأ من غيرها، لكنها تصل في اللحظة التي تحتاجها."

استيقظت ليلى على ضوء الصباح البارد المتسلل من شق الستارة. كانت غرفة الفندق الصغيرة في الرباط لا تزال غارقة في الظلام، لكن شريطاً رفيعاً من النور الأبيض كان يرسم خطاً على الأرضية الخشبية، يقترب ببطء من السرير حيث كانت مستلقية.

لم تنم جيداً. كانت تدور وتتقلب طوال الليل، وكلما أغمضت عينيها، رأت محتويات الصندوق تتجمع أمامها كفسيفساء لا تكتمل: رسائل الأب، صورة أمها تحمل الساعة، الورقة الغامضة بخط الجاف، والظرف الأبيض الذي كان لا يزال موضوعاً على الطاولة الجانبية، كأنه يراقبها.

جلست على حافة السرير، ونظرت إليه. كان الظرف بسيطاً، أبيض اللون، غير مختوم، ومكتوب عليه بخط غريب: "إلى ليلى." رفعته بين يديها، وشعرت بثقل ورقة واحدة بداخله. كانت تعرف أنها تستطيع فتحه الآن، أن تنهي هذا التردد الذي استمر طوال الليل.

لكنها لم تفعل.

نهضت، وذهبت إلى النافذة، وفتحت الستارة على مدينة الرباط التي كانت تستيقظ ببطء. كانت المباني البيضاء تتلألأ تحت ضوء الصباح، وأصوات المدينة البعيدة تبدأ في التسلل: بائع خضار ينادي، سيارة تمر، أذان الفجر من مسجد قريب.

أغلقت عينيها لحظة، وتنفست بعمق. كان الهواء بارداً ونقياً، يحمل رائحة البحر من بعيد.

ثم عادت إلى الطاولة، وجلست، وأمسكت الظرف مجدداً. هذه المرة، فتحته ببطء، دون تردد.

كانت هناك ورقة واحدة مطوية، صفراء قليلاً من الزمن، مكتوبة بخط يد أنثوي، رقيق، لكنه حازم. بدأت تقرأ بصمت، وشعرت بأن قلبها يتباطأ مع كل كلمة:

"إلى ليلى،

إذا كنتِ تقرئين هذه الرسالة، فهذا يعني أن الحقيقة وصلت متأخرة، لكنها وصلت.

لا أعرف من أنتِ الآن. لا أعرف إن كنتِ كبيرة، صغيرة، سعيدة، أو حزينة. لكني أعرف شيئاً واحداً: أنكِ تستحقين أن تعرفي لماذا تركتكِ أمكِ، ولماذا لم يعد أبوكِ.

لطالما أخبروكِ أن جدكِ هو من كان يتحكم في كل شيء. وهذا صحيح، لكن ليس كاملاً. كان هناك شخص آخر، أقرب مما تتصورين، كان يعرف كل خطوة تخطونها. كان يفتح رسائل أبيكِ قبل أن تصل إليكِ. كان يخفي صور أمكِ. كان يقرر متى ترين ومتى لا ترين.

هذا الشخص لا يزال على قيد الحياة. وهو يعرف أنكِ بدأتِ تبحثين.

لا تخافي. لكن لا تثقِي بسهولة.

هناك مفتاح آخر، ليس المفتاح الذي تحملينه. ذلك المفتاح يفتح باباً في الدار البيضاء، في زقاق خلف ساحة الجامعة، عند بيت قديم لا اسم له. ابحثي عن الرجل الذي يعرف قصة الساعة.

ستعرفينه حين ترينه

لن أقول لكِ من أنا. ليس لأنني لا أريدكِ أن تعرفي، بل لأن الوقت لم يحن بعد. لكني أحببتكِ، وسأظل أحبكِ، حتى لو لم تعرفي اسمي.

أمكِ."

توقفت ليلى عن القراءة، ورفعت عينيها عن الورقة. كانت يداها ترتجفان. هذه الرسالة... كانت من أمها. لكن أمها قالت لها في مراكش إنها كانت تختبئ، وإنها لم تستطع التواصل. فكيف كتبت هذه الرسالة؟ ومتى؟ ولماذا لم تخبرها بها عندما التقتها؟

قرأت الجملة الأخيرة مجدداً: "أمكِ." كان الخط مختلفاً عن خط أمها في الدفتر الذي وجدته في الصندوق. لكنه كان يشبهه، وكأنه كتب بيد متعبة، أو في عجلة من أمرها.

وقفت ليلى، وبدأت تمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً. كانت تحاول أن توفق بين ما قالته أمها في مراكش وما كتبته في هذه الرسالة. في مراكش، قالت الأم إنها تركتها لحمايتها، وإنها لم تستطع التواصل. لكن هذه الرسالة تشير إلى أنها كانت تعرف كل شيء، وأنها كانت تحاول حمايتها بطريقة مختلفة.

في تلك اللحظة، سمعت طرقة خفيفة على الباب. فتحته، وكان آدم واقفاً هناك، يحمل كوبين من القهوة الساخنة. نظر إليها، ورأى الورقة في يدها، وقال: "فتحتِها؟"

أومأت، ودعته للدخول. جلس على الكرسي، وأعطاها أحد الكوبين، وجلس في صمت ينتظر.

جلست ليلى على حافة السرير، ونظرت إلى الورقة مجدداً، ثم رفعت عينيها إليه: "إنها من أمي. لكنها ليست مثل ما قالته لي في مراكش. هذه الرسالة تشير إلى أن هناك شخصاً آخر كان يتحكم في كل شيء. شخصاً غير الجد. وكانت تعرف ذلك. ولم تخبرني."

أخذ آدم الورقة، وقرأها ببطء. عندما انتهى، رفع عينيه إليها، وقال: "إذا كانت والدتك كتبت هذه الرسالة، فهذا يعني أنها كانت تعرف أنكِ ستجدينها يوماً. لكنها لم تخبركِ بكل شيء عندما التقتِ بها."

"لماذا؟"

فكر آدم لحظة، ثم قال: "ربما لأنها كانت تخاف. أو لأنها لم تكن متأكدة من أن الوقت قد حان. أو لأنها كانت تنتظر أن تكتشفي هذا بنفسكِ."

صمتت ليلى، ثم قالت: "هناك شيء آخر في الرسالة. ذكرت 'الرجل الذي يعرف قصة الساعة' والمفتاح الآخر في الدار البيضاء. هذا يعني أن الرحلة لم تنتهِ بعد."

وقف آدم، وقال: "إذا كنتِ تريدين، يمكننا العودة إلى الدار البيضاء اليوم. ويمكننا أن نبحث عن هذا البيت في الزقاق خلف ساحة الجامعة."

نظرت إليه، وأحست بالامتنان: "شكراً لكِ. على كل شيء."

"لا داعي للشكر. أنا أيضاً أبحث عن إجابات."

نهضت ليلى، وبدأت تحزم حقيبتها الصغيرة. بينما كانت تطوي الوشاح الزهري لأمها، توقفت للحظة، وأعادت قراءة الجملة الأخيرة من الرسالة: "أحببتكِ، وسأظل أحبكِ، حتى لو لم تعرفي اسمي."

لم تفهم هذه الجملة تماماً. لماذا تقول "حتى لو لم تعرفي اسمي"؟ إنها أمها، إنها تعرف اسمها. لكنها شعرت بأن هناك شيئاً أعمق، شيئاً لم تقله الرسالة.

خرجت من الفندق مع آدم، واتجها إلى منزل عبد الرحمن لتوديعه. كان الأب واقفاً عند الباب، وكأنه كان ينتظرهما. عندما رأى ليلى، ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال: "أظن أنكما ستغادران اليوم"

قالت ليلى: "نعم. لكنني سأعود. سأزوركِ كثيراً."

احتضنها، وقال: "أنا هنا. دائماً."

في الطريق إلى المحطة، توقفت ليلى للحظة. نظرت إلى شارع الرباط الصباحي، إلى الناس الذين كانوا يبدأون يومهم، وإلى الضوء الذهبي الذي كان يغطي كل شيء. شعرت بأنها مختلفة. لم تعد الفتاة التي كانت تبحث عن إجابات فقط. أصبحت شخصاً يعرف أن بعض الإجابات تولد أسئلة جديدة.

في القطار، كانت تجلس بجانب النافذة، تنظر إلى المناظر التي تمر بسرعة. كانت تفكر في الرسالة، في كلمات أمها، في البيت الذي لا اسم له في الدار البيضاء، وفي المفتاح الآخر الذي قد يفتح باباً جديداً.

نظرت إلى آدم، الذي كان يقرأ كتاباً صغيراً. سألته: "هل تعتقد أننا سنجد ما نبحث عنه؟"

رفع عينيه عن الكتاب، وقال: "أعتقد أننا سنجد ما نحتاجه. وليس بالضرورة ما نبحث عنه."

صمتت ليلى، واستمرت تنظر من النافذة.

عندما وصلوا إلى الدار البيضاء، كان الوقت قد حلَّ الظهيرة. غادرا المحطة، واتجها إلى حي الجامعة. وقفت ليلى أمام مبنى كلية الاقتصاد، حيث كان الطلاب يتجمعون في الفناء الداخلي. كان المكان كما تركته، لكنها شعرت بأنها لم تعد كما كانت.

نظرت إلى شجرة التين، حيث كان يوسف يجلس ذات يوم، لكن المقعد كان فارغاً الآن. سألت نفسها: أين هو يوسف الآن؟ وهل يعرف شيئاً عن البيت الذي لا اسم له؟

توجهت إلى الاستوديو، حيث وجدت رنا تجلس على الأرض، وترسم لوحة كبيرة. عندما رأت ليلى، نهضت وقالت: "أنتِ عدتِ! سوسن أخبرتني أنكِ ذهبتِ إلى مراكش. كيف كانت؟"

جلست ليلى، وبدأت تحكي لها، ليس كل شيء، لكن ما استطاعت: لقاء أمها، رسائل الأب، الصندوق، والرسالة الغامضة التي وجدتها في الظرف.

استمعت رنا باهتمام، ثم قالت: "هذا البيت في الزقاق خلف ساحة الجامعة... أنا أعرفه. رأيته مرة عندما كنتُ أبحث عن أماكن لرسمها. كان قديماً جداً، وبابه خشبي ومغلق. لم أفتحه. لكني تذكرت أنه كان هناك رجل يجلس قربه أحياناً."

نظرت ليلى إليها بدهشة: "رجل؟ كيف يبدو؟"

"كان كبيراً في السن. يرتدي قبعة قديمة. كنتُ أظن أنه بائع متجول، لكنه لم يبيع شيئاً. كان يجلس فقط وينظر إلى الباب. ثم يغادر."

وقفت ليلى، وقالت: "هل يمكنكِ أن تأخذيني إلى هناك؟"

أومأت رنا، ونهضت.

خرجوا من الاستوديو، ومشوا عبر شوارع الجامعة الخلفية حتى وصلوا إلى زقاق ضيق. كان الجو هادئاً، والشمس تخترق بين المباني القديمة. في نهاية الزقاق، كان هناك بيت صغير، بابه خشبي، مغلق، ومغطى بالغبار.

وقفت ليلى أمام الباب، ونظرت إليه. كان هناك شيء مألوف فيه، كأنها رأته في حلم. أخرجت المفتاح النحاسي من جيبها، لكنها ترددت. قالت: "هذا ليس المفتاح المناسب. الرسالة قالت إن هناك مفتاحاً آخر."

نظرت رنا حولها، وقالت: "لعل الرجل الذي كان يجلس هنا يعرف شيئاً."

في تلك اللحظة، سمعت ليلى خطوات خلفها. التفتت، ورأت رجلاً عجوزاً يقف في نهاية الزقاق، يرتدي قبعة قديمة، وينظر إليها. كان هو نفسه الرجل الذي وصفته رنا.

وقفا ينظران إلى بعضهما في صمت. ثم تحرك الرجل ببطء، واقترب منها. كان عمره يبدو في السبعينات، وعيناه زرقاوان شاحبتان، ووجهه مجعد كخريطة قديمة.

قال بصوت أجش: "أنتِ ليلى، صح؟"

تراجعت ليلى خطوة، وقالت: "نعم. ومن أنت؟"

نظر إليها، وقال: "أنا الشخص الذي كنتِ تبحثين عنه. الرجل الذي يعرف قصة الساعة."

أخرج من جيبه مفتاحاً نحاسياً كبيراً، يشبه المفتاح الذي رأته في يد يوسف ذات يوم، لكنه مختلف. كان أكبر، وأقدم، وعليه نقوش دقيقة.

قال: "هذا المفتاح يفتح هذا الباب. وأنا الوحيد الذي يعرف ما بداخله."

نظرت ليلى إلى المفتاح، ثم إلى الباب، ثم إلى الرجل. قالت: "من أنت؟ ولماذا تنتظرني هنا؟"

ابتسم ابتسامة حزينة، وقال: "لأنني كنتُ أنتظركِ منذ عشرين عاماً. أنا خادم أمكِ القديم. كنتُ معها في آخر أيامها قبل أن تغادر. وهي طلبت مني أن أنتظركِ هنا، وأن أعطيكِ هذا المفتاح عندما تأتين."

توقفت ليلى، وشعرت بأن الزمن يتوقف حولها. قالت بصوت يرتجف: "آخر أيامها؟ أمي... لم تمت. هي على قيد الحياة في مراكش."

نظر إليها الرجل بحزن، وقال: "أنا لا أعرف ما الذي قالته لكِ في مراكش. لكني أعرف أن ليلى التي كنتُ أخدمها... ماتت قبل خمس سنوات. في هذا البيت. قبل أن تذهب إلى مراكش، كانت تعيش هنا. كانت مريضة، وكانت تعلم أنها لن تعيش طويلاً. طلبت مني أن أنتظركِ، وأن أعطيكِ هذا المفتاح، وأن أخبركِ بالحقيقة كاملة."

وقفت ليلى، وشعرت بأن الأرض تتهاوى تحتها. أمها في مراكش ، إنها على قيد الحياة. لكن هذا الرجل يقول إنها ماتت قبل خمس سنوات. من يقول الحقيقة؟ ومن كان يكذب؟

نظرت إلى المفتاح، ثم إلى الباب، وقالت بصوت خافت: "أريد أن أدخل. أريد أن أرى."

أدخل الرجل المفتاح في قفل الباب، وأداره ببطء. سمع صوت قفل قديم ينزلق، ودفع الباب فتح على مصراعيه.

كان البيت من الداخل مظلماً، مليئاً بالغبار، ورائحة الزمن القديم. وقفت ليلى عند المدخل، تنظر إلى الممر الضيق الذي يؤدي إلى غرفة صغيرة. كانت تعرف أنها على وشك اكتشاف شيء سيغير كل شيء.

دخلت البيت، وبدأت رحلتها الجديدة.

الفصل السادس عشر:

"البيوت ليست جدراناً. إنها ذاكرة تتنفس."

خطت ليلى فوق عتبة الباب، وشعرت بأنها تعبر حدوداً غير مرئية بين عالمين. كان الهواء داخل البيت مختلفاً: أكثر برودة، أكثر كثافة، كأنه محمل بأنفاس لم تغادر المكان قط. وقفت في المدخل الضيق، وعيناها تتكيفان مع الظلام الخافت الذي كان يتسلل من نافذة صغيرة مغبرة في نهاية الممر.

سمعت صوت آدم خلفها وهو يدخل، وصوت الرجل العجوز وهو يغلق الباب خلفهم، بمزلاج حديدي يصدر صريراً طويلاً. التفتت إليه للحظة، ثم عادت إلى الممر.

قال الرجل العجوز، وصوته يتردد بين الجدران: "لم يدخل أحد هذا البيت منذ خمس سنوات. منذ أن غادرت... منذ أن توقفت."

سألت ليلى، وهي تتحرك ببطء نحو الغرفة الأولى: "توقفت ماذا؟"

لم يجب، فقط تبعها بصمت.

كانت الغرفة الأولى صغيرة، تشبه غرفة معيشة متواضعة. فيها أريكة قديمة مغطاة بغطاء أبيض، طاولة خشبية صغيرة عليها مصباح زيتي، وخزانة جانبية مليئة بالكتب والأغراض المتناثرة. كان الغبار يغطي كل سطح، وكأن الزمن توقف هنا فعلاً.

وقفت ليلى في وسط الغرفة، تدور ببطء. كانت تحاول أن تتخيل والدتها هنا، تجلس على تلك الأريكة، تقرأ أحد تلك الكتب، تنظر من النافذة إلى الزقاق الضيق. كانت تحاول أن تشعر بحضورها.

مشى آدم إلى الخزانة، وبدأ ينظر إلى الكتب بعناية. قال، دون أن يرفع عينيه: "هذه الكتب... بعضها عن الساعات القديمة. وبعضها عن صناعة الزمن. هل كانت والدتك مهتمة بالساعات؟"

نظرت ليلى إلى الرجل العجوز، الذي كان يقف عند باب الغرفة، لا يدخل. قال: "كانت تحب الوقت. كانت تقول إن الوقت ليس خطاً، بل دائرة. وإننا نلتقي بأنفسنا مراراً."

شعرت ليلى بقشعريرة. هذه الكلمات كانت تشبه ما قرأته في دفتر عام 1998. اقتربت من الخزانة، وأخذت أحد الكتب، وقلبت صفحاته. كانت هناك ملاحظات مكتوبة بخط يد والدتها على الهوامش، كلمات عن الصبر، عن الانتظار، عن الأمل.

قالت بصوت خافت: "لقد كانت تعرف. كانت تعرف أنني سأأتي يوماً."

فتحت آدم درجاً صغيراً في الخزانة، وأخرج شيئاً. كان دفتراً صغيراً، غلافه جلدي أسود، مشابهاً للدفتر الذي وجدته في أرشيف الجامعة. فتحه، وقلب صفحاته، ثم رفع عينيه إلى ليلى: "هذا ليس دفتر والدتك. هذا... هذا دفتر شخص آخر. انظري إلى الخط."

اقتربت منه، ونظرت إلى الصفحات المفتوحة. كان الخط مختلفاً عن خط والدتها، وأقل أناقة من خط والدها. كان خطاً رجولياً، حاداً، وكثير من الكلمات مشطوبة أو معدلة.

قرأت أول سطر: "اليوم رأيتها للمرة الأولى. كانت تقف عند باب البيت، تنظر إليه كأنها تودعه. لم أعرف أنها ستغادر بهذه السرعة."

رفعت عينيها إلى الرجل العجوز، وقالت: "من كتب هذا؟"

نظر إليها، وتردد للحظة، ثم قال: "أنا. كنتُ أكتب ملاحظاتي عن الأيام التي قضيتها معها. عن كل ما قالته لي، عن كل ما طلبت مني أن أفعله."

صدمت ليلى. كانت تتوقع أن يكون الدفتر لأمها أو لأبيها، لكنه كان لهذا الرجل الغريب الذي لم تعرفه إلا قبل ساعات. سألته: "لماذا تكتب عن أمي؟ ومن أنت حقاً؟"

جلس الرجل العجوز على الأريكة، ونظر إلى الأرض، ثم رفع عينيه إليها: "اسمي مصطفى. كنتُ سائقاً لأبيكِ، ثم أصبحت خادماً لأمكِ بعد أن غادر هو. كنتُ أحضر لها الطعام، وأنظف البيت، وأستمع إلى قصصها. كنا نجلس هنا، في هذه الغرفة، وتتحدث عنكِ، عن عبد الرحمن، عن كل ما فقدته. طلبت مني أن أكتب، حتى لا تنسى. وحتى تعرفي أنتِ يوماً ما."

جلست ليلى على الكرسي المقابل له، وكانت يدها ترتجف وهي تمسك بالدفتر. قالت: "إذا كنتَ تعرفها جيداً، فأخبرني: لماذا تركتني؟ لماذا لم تعد؟"

نظر إليها مصطفى، وكانت عيناه تحملان حزناً قديماً: "لأنها كانت تخاف. ليس من المرض فقط، بل من أن تصبح عبئاً عليكِ. كانت تعلم أن عائلتها ستبحث عنها، وأنهم قد يؤذونكِ إن عرفوا أنها ما زالت على قيد الحياة. كانت تحميكِ بأغلى ما تملك: بوجودها في حياتكِ."

صمتت ليلى، ثم نهضت وبدأت تتجول في الغرفة. كانت تنظر إلى كل زاوية، كل غرض، وكأنها تبحث عن رسالة مخفية.

آدم، الذي كان لا يزال يقلب دفتر مصطفى، قال فجأة: "هناك صفحة ممزقة هنا. في منتصف الدفتر."

اقتربت ليلى، ونظرت إلى الدفتر. كانت هناك صفحة ممزقة بعناية، تاركة أثراً من الورق على الحافة. سألت مصطفى: "ماذا كان مكتوباً في هذه الصفحة؟"

تردد مصطفى، ثم قال: "كانت تكتب عن شخص كان يزورها في السر. شخص لم تخبرني من هو. قالت إنه يعرف كل شيء، وإنها تخاف منه. لكنها لم تذكر اسمه. مزقت الصفحة بنفسها، وقالت لي: 'بعض الأسرار يجب أن تموت معي.'"

وقفت ليلى، وشعرت بأن خيطاً آخر يتشابك مع خيوطها. كان هناك شخص ثالث، شخص كان يزور أمها في السر. ربما كان هو الشخص الثالث في الصورة الممزقة، ربما كان هو من كان يتحكم في الأحداث.

قالت: "هل تعرف شيئاً عن هذا الشخص؟ أي تفصيل صغير؟"

فكر مصطفى لحظة، ثم قال: "كانت تقول إنه يحمل مفتاحاً. مفتاحاً يشبه مفتاحكِ، لكنه مختلف. كانت تقول إنه الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة كاملة."

نظر آدم إلى ليلى، وقال: "يوسف. ربما هو يوسف. فهو الوحيد الذي كان يعرف كل شيء."

هزت ليلى رأسها: "لكن يوسف كان في الدار البيضاء. كان يراقبني من بعيد. لماذا كان يزور أمي في السر دون أن يخبرني؟"

قال مصطفى: "ربما لأنه كان يحميها أيضاً. أو لأنه كان يحمي شيئاً آخر."

في تلك اللحظة، سمعوا صوتاً من الغرفة المجاورة. كان صوت خفيفاً، كشيء يسقط على الأرض. نظر الجميع نحو الباب.

قال آدم: "هل هناك أحد آخر هنا؟"

وقف مصطفى بسرعة، وقال: "لا. لا يمكن. الباب مغلق منذ خمس سنوات."

لكن ليلى كانت قد تحركت بالفعل نحو الباب، وفتحته ببطء. كانت الغرفة المجاورة أصغر، تشبه غرفة نوم. كان هناك سرير حديدي، وخزانة ملابس قديمة، ومرآة كبيرة على الحائط، متشققة من المنتصف، كأنها ضربت بقوة.

لكن ما جذب انتباهها كان شيئاً آخر: على الأرض، كان هناك كتاب مفتوح، كأن أحداً أسقطه للتو. اقتربت منه، ورأت أنه كان مفتوحاً على صفحة تحمل رسمة لساعة قديمة، وتحتها جملة بخط يد والدتها:

"الوقت لا ينتظر، لكنه يترك آثاراً."

رفعت الكتاب، ونظرت إلى الغرفة. كان كل شيء في مكانه، لكن الكتاب كان مفتوحاً على صفحة لم تكن لتفتح وحدها.

قال آدم، وهو يقف عند الباب: "ربما كان مفتوحاً منذ زمن. أو ربما الرياح... أو شيء آخر."

لكن ليلى لم تصدق. شعرت بأن هناك شخصاً آخر في هذا البيت. شخصاً كان يتابعها منذ دخلت.

عادت إلى الغرفة الأولى، وفتحت دفتر مصطفى مجدداً. كانت تبحث عن أي شيء، أي تفصيل صغير. ثم لاحظت شيئاً: في الصفحة الأخيرة من الدفتر، كانت هناك جملة مكتوبة بخط مختلف تماماً، كأن شخصاً آخر كتبها في وقت لاحق:

"إذا كنتِ تقرئين هذا، فاعلمي أن الحقيقة ليست في الكلمات، بل في الصور التي لم تُرَ بعد."

رفعت رأسها، ونظرت إلى مصطفى: "من كتب هذه الجملة؟"

نظر إلى الدفتر، واتسعت عيناه: "هذه ليست كتابتي. ولم أرها من قبل. يجب أن يكون أحدهم قد دخل وتركها هنا."

وقفت ليلى، وشعرت بالخوف والفضول معاً. كان هناك شخص آخر، شخص كان يعرف أنها ستأتي، وكان يترك لها رسائل في أماكن مختلفة.

قال آدم: "ربما حان وقت المغادرة. يمكننا العودة غداً مع المزيد من الوقت."

نظرت ليلى إلى الغرفة، ثم إلى مصطفى، ثم إلى الدفتر. قالت: "سأعود. لكنني سآخذ هذا الدفتر معي. لأقرأه ببطء."

أومأ مصطفى بصمت.

خرجوا من البيت، وأعاد مصطفى قفله بالمفتاح الكبير. وقفوا في الزقاق الضيق، والشمس كانت قد بدأت تغرب، تاركة ظلالاً طويلة على الحجارة القديمة.

قالت ليلى لمصطفى: "هل يمكنني أن أسألك سؤالاً واحداً؟"

نظر إليها: "أي سؤال."

"في الصورة التي وجدتها خلف الأدراج... كانت هناك ثلاثة أشخاص: أمي، أبي، وشخص آخر. لكن وجه الشخص الثالث ممزق. هل تعرف من هو؟"

نظر إليها مصطفى طويلاً، ثم قال بصوت خافت، يكاد لا يُسمع: "نعم. أعرف. لكني لا أستطيع أن أخبركِ. ليس الآن."

"لماذا؟"

"لأنه إذا أخبرتكِ الآن، ستفقدين القدرة على رؤية الحقيقة كاملة. بعض الأشياء يجب أن تُكتشف ببطء."

صمتت ليلى، وهي تنظر إليه بعينين محملتين بالأسئلة. قالت: "سأكتشفها بنفسي. وعدني أن تكون هنا عندما أحتاجك."

أومأ: "سأكون هنا. كما كنتُ دائماً."

عادت ليلى وآدم إلى شقة ليلى في الدار البيضاء. كانت السماء قد أظلمت بالكامل، وأنوار المدينة بدأت تتلألأ. جلست ليلى على الأريكة، وفتحت دفتر مصطفى، وبدأت تقرأ من البداية.

كانت كل صفحة تحمل جزءاً من حياة والدتها، جزءاً من أيامها الأخيرة. قرأت عن كيف كانت تستيقظ كل صباح وتجلس عند النافذة، تنظر إلى الزقاق، كأنها تنتظر أحداً. عن كيف كانت تغني لنفسها أغاني قديمة، وكيف كانت تبكي في الليل وهي تحمل صورة ليلى بين يديها.

كانت كل كلمة تزيد من شعورها بأن والدتها كانت تحبها أكثر مما تتخيل، وأنها كانت تعاني بصمت لحمايتها.

في الصفحة الأخيرة، وجدت شيئاً لم تنتبه له من قبل: كان هناك ظرف صغير ملتصق بالغلاف الخلفي، مختوم بشمع أحمر، مكتوب عليه: "ليلى. لا تفتحيه إلا عندما تكونين وحدكِ."

نظرت إلى الظرف، وشعرت بأن قلبها ينبض بسرعة أكبر. نادت آدم: "انظر. وجدت شيئاً آخر."

جلس آدم بجانبها، ونظر إلى الظرف. قال: "هل ستفتحينه؟"

نظرت إليه، ثم إلى الظرف. قالت: "نعم. لكن الآن. وحدي."

أومأ آدم، وقام، وذهب إلى المطبخ ليشرب كوباً من الماء، تاركاً إياها وحدها في غرفة المعيشة.

فتحت ليلى الظرف ببطء، وأخرجت ورقة صغيرة، مطوية بعناية. كانت مكتوبة بخط والدتها:

"ليلى العزيزة،

إذا كنتِ تقرئين هذا، فقد وجدتِ الطريق إلى البيت. أعلم أنكِ ستسألين عن الشخص الثالث في الصورة. أعلم أنكِ ستريدين معرفة كل شيء. لكني أطلب منكِ ألا تتعجلي.

الشخص الذي ممزق وجهه هو رجل كان يعرفني منذ صغري. كان صديقاً لعائلتي، وكان يعرف كل أسرارهم. كان يحبني، لكن حبه لم يكن حباً نافعاً. كان يريد السيطرة على حياتي. وعندما رفضت، بدأ يهددني، ويهدد عبد الرحمن. كان هو من كان يفتح رسائلكِ، ويعترض اتصالاتكِ، ويقرر متى ترين ومتى لا ترين.

لا أعرف إن كان ما زال على قيد الحياة. لكني أعرف أنه كان يحمل مفتاحاً يشبه مفتاحكِ. وأنه كان يعرف كل شيء عن الساعة 11:07.

لا تبحثي عنه وحدكِ. انتظري الوقت المناسب. ستجدينه عندما تكونين مستعدة.

أحبكِ،
أمكِ.

ملاحظة: ابحثي عن الرجل الذي يعرف قصة الساعة. ليس مصطفى. ليس يوسف. شخص آخر.

أغلقت ليلى الظرف، ووقفت، وشعرت بأنها تقترب من الحقيقة، لكنها لا تزال بعيدة عنها. كان هناك شخص آخر، شخص كان يتحكم في كل شيء، وكانت أمها تعرفه، وكانت تخاف منه.

عاد آدم من المطبخ، ونظر إليها: "ما الذي وجدتِه؟"

نظرت إليه، وقالت: "هناك شخص آخر. كان يعرف أمي، وكان يتحكم في حياتها. وهو ما زال على قيد الحياة."

جلس آدم، ونظر إليها بجدية: "كيف سنعثر عليه؟"

نظرت إليه، وقالت: "سنبحث عن الرجل الذي يعرف قصة الساعة. كما قالت أمي. ليس مصطفى. ليس يوسف. شخص آخر."

وقفت ليلى، وذهبت إلى النافذة، ونظرت إلى المدينة المظلمة. كانت تعرف أن رحلتها لم تنتهِ بعد، وأن الحقيقة كانت تنتظرها في مكان ما، خلف باب آخر، خلف مفتاح آخر.

كانت مستعدة.

الفصل السابع عشر:

"لا يهم كم تتقدم في طريقك، إذا لم تكن واتقا من الطريق ."

استيقظت ليلى في الرابعة فجراً، كما لو أن جسدها قرر أن يسبق عقلها. جلست على حافة السرير، وتنفست بعمق، تحاول أن تتذكر شيئاً، تفصيلاً صغيراً لاحظته في البيت بالأمس ولم تعره اهتماماً كافياً.

كان دفتر مصطفى لا يزال مفتوحاً على الطاولة، والصفحة الأخيرة التي قرأتها قبل النوم ما زالت مكشوفة. نهضت، وأخذت الدفتر، وبدأت تقلب صفحاته ببطء، وكأنها تبحث عن شيء لم تجده.

ثم توقفت. في الصفحة الثامنة عشرة، كان هناك ملاحظة صغيرة بالهامش، بخط مختلف عن خط مصطفى، أصغر وأكثر دقة، كأنها كُتبت على عجل:

"تحت البلاطة الثالثة في الرواق."

رفعت عينيها عن الدفتر، وتساءلت: من كتب هذه الملاحظة؟ ولماذا في الهامش؟ وهل كانت موجودة منذ البداية أم أضيفت لاحقاً؟

اتصلت بآدم فوراً، وأخبرته بما وجدته. بعد نصف ساعة، كانا يقفان أمام باب البيت مجدداً. مصطفى لم يكن معهما؛ قال إنه لا يستطيع الحضور حتى الظهيرة.

حاولت ليلى فتح الباب بالمفتاح الكبير الذي أعطاها مصطفى، لكنه لم يدخل. نظرت إلى آدم، وقالت: "هذا غريب. بالأمس دخل بسهولة."

حاول آدم أيضاً، ثم دفع الباب برفق، فانفتح دون مقاومة. كان الباب غير مقفل.

وقفا هناك للحظة، ينظران إلى الممر المظلم. دخل آدم أولاً، ثم ليلى خلفه. كان البيت كما تركاه، لكن شيئاً ما كان مختلفاً. الهواء كان أبرد، وكانت هناك رائحة خفيفة، رائحة دخان أو عود.

قالت ليلى بصوت خافت: "شخص ما كان هنا."

تقدمت ببطء إلى غرفة المعيشة. كان كل شيء في مكانه، الأريكة، الطاولة، الكتب. لكن الأدراج كانت مفتوحة، بعضها بشكل غير كامل، وكأن شخصاً كان يفتحها بسرعة ويغلقها.

ذهب آدم إلى غرفة النوم، ثم عاد وقال: "المرآة المتشققة... ليست في مكانها."

ركضت ليلى إلى غرفة النوم، ورأت أن المرآة التي كانت معلقة على الحائط بالأمس اختفت تماماً، ولم يبقَ إلا مسماران فارغان. على الأرض، كان هناك أثر خفيف للغبار، كأن شيئاً ما سُحب بسرعة.

ثم تذكرت الصورة الممزقة التي كانت خلف الأدراج. ركضت إلى الخزانة، وفتحت الدرج الذي كانت فيه، لكن الصورة لم تكن هناك. اختفت تماماً.

عادت إلى غرفة المعيشة، وجلست على الأريكة، تحاول أن تفهم. كانت تعرف أن أحداً قد دخل البيت بعد مغادرتهم، وأن هذا الشخص كان يبحث عن شيء محدد. الصورة الممزقة والمرآة المتشققة اختفتا. لكن دفتر مصطفى ما زال معها، وهذا يعني أن الشخص لم يجد ما كان يبحث عنه بالكامل.

قالت بصوت هادئ: "لقد كان يبحث عن الصورة. وعن المرآة. لماذا؟"

جلس آدم بجانبها، وقال: "ربما كانت المرآة تخفي شيئاً خلفها. أو ربما كان يعرف أن الصورة تحمل دليلاً."

نهضت ليلى، وذهبت إلى الرواق. كانت الأرضية من البلاط القديم، متآكلة في بعض الأماكن. عدّت البلاطات من الباب إلى النهاية، ووصلت إلى البلاطة الثالثة. كانت مختلفة قليلاً عن الباقي، أخف لوناً، وكأنها استُبدلت في وقت ما.

جثت على ركبتيها، وبدأت تحاول رفع البلاطة بأصابعها. لم تتحرك. نظرت إلى آدم، فجاء وساعدها. بعد بضع محاولات، رفعوا البلاطة معاً، وكشفوا عن فجوة صغيرة تحتها.

كان هناك شيء ملفوف بقطعة قماش زرقاء. أخرجته ليلى بحذر، وفتحته. كان دفتراً صغيراً، غلافه أحمر، وعلى الغلاف مكتوب بخط يد والدتها:

"ما لا تعرفه عني."

فتحت الدفتر، وكانت الصفحة الأولى تحمل تاريخاً: 1998. بدأت تقرأ بصمت، وشعرت بأن الزمن يتوقف حولها.

كانت هذه مذكرات أمها، مكتوبة بأسلوب حميمي، كأنها تتحدث إلى نفسها، أو إلى مستقبل لا تعرف إن كان سيأتي. كانت أولى الكلمات:

"اليوم أخبرني مصطفى أنني لن أعيش طويلاً. ضحكتُ، وقلتُ له إنني عشتُ بما يكفي لأعرف أن الحياة ليست في طولها، بل في من نحب. لكنني لا أريد أن تموت معي كل الأسرار. سأكتبها كلها. وإن قرأتها يوماً، فاعلمي أنني كنتُ أحاول حمايتكِ."

وقفت ليلى، وقلبت صفحات الدفتر بسرعة. كانت الكلمات تتساقط أمام عينيها: عن المرض، عن الخوف، عن الرجل الثالث الذي كان يزورها في السر، عن سبب ابتعادها عن ليلى.

لكن في المنتصف، كانت هناك صفحة ممزقة تماماً، مثل التي في دفتر مصطفى.

قالت ليلى، وهي تنظر إلى الصفحة الممزقة: "نفس الشيء. نفس الصفحة. شخص ما يريد إخفاء شيء واحد محدد."

في تلك اللحظة، سمعوا صوتاً من الخارج. خرجوا إلى الزقاق، ورأوا مصطفى واقفاً هناك، ينظر إلى الباب المفتوح بوجه شاحب.

دخل مصطفى إلى البيت، وتجول في الغرف، ثم عاد إلى ليلى وقال، وصوته يرتجف: "المرآة... اختفت. كنتُ أظن أن هذا اختفى منذ سنوات."

نظرت إليه ليلى، وقالت: "ماذا تقصد؟"

جلس مصطفى على الأريكة، ووضع رأسه بين يديه، ثم قال: "في المرآة... كانت هناك صورة صغيرة خلفها. صورة لا يعرفها أحد. صورة تجمع والدتك، وأبيها، ورجلاً ثالثاً. كنتُ أظن أنني تخلصت منها منذ سنوات. لكنها كانت لا تزال هناك. شخص ما عرف ذلك."

نظرت ليلى إلى الدفتر الأحمر بين يديها، وقالت: "وجدت هذا تحت البلاطة الثالثة. مذكرات أمي. هل كنت تعرف بوجودها؟"

نظر إليها مصطفى، وتردد، ثم قال: "لم أعرف. لكني خمنت. كانت تقول لي دائماً إنها ستترك شيئاً في مكان آمن. لم تخبرني أين."

جلست ليلى بجانبه، وفتحت الدفتر مجدداً، وبدأت تقرأ بصوت هادئ. كانت الكلمات تتحدث عن أيامها الأخيرة، عن حبها لعبد الرحمن، عن خوفها من عائلتها، وعن الشخص الثالث الذي كان يتحكم في حياتها.

وفجأة، توقفت عند جملة:

"هو يعرف كل شيء. وهو لا يزال يراقب. ليس أنا فقط... بل ابنتي أيضاً. رأيته بالأمس في الشارع، ينظر إلى مدرستها."

رفعت ليلى عينيها عن الدفتر، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها. الشخص الثالث لم يكن يراقب أمها فقط، بل كان يراقبها هي أيضاً، منذ طفولتها.

قالت بصوت خافت: "لقد كان يراقبني. منذ كنت صغيرة."

صمت الجميع. كان الهواء في الغرفة ثقيلاً بالحقيقة التي بدأت تتشكل.

ثم سمعوا صوتاً. رنين هاتف قديم، يأتي من غرفة لم يلاحظوها من قبل، في نهاية الممر. وقفوا جميعاً، ونظروا نحو الصوت. لم يكن هناك كهرباء في البيت، لكن الهاتف كان يرن.

تقدمت ليلى ببطء نحو الصوت، وآدم ومصطفى خلفها. وصلت إلى باب صغير، كان مقفلاً بالأمس، لكنه الآن مفتوح. كانت غرفة صغيرة، فيها طاولة خشبية، وهاتف أسود قديم، كانت سماعته ترتجف مع كل رنة.

نظرت إلى مصطفى، ثم إلى آدم، ومدت يدها نحو السماعة. رنت مرة أخرى.

رفعت السماعة، ووضعتها على أذنها.

لم يكن هناك صوت. فقط صمت ثقيل.

ثم، بعد لحظات، سمعت همساً خافتاً، بعيداً، كأنه يأتي من مكان آخر:

"أنتِ تقتربين كثيراً."

ثم انقطع الخط.

وقفت ليلى هناك، والسماعة في يدها، تشعر بأن الزمن تجمد حولها.

أغلقت الخط، ونظرت إلى آدم ومصطفى، وقالت بصوت هادئ، لكنه كان يحمل عزماً جديداً:

"هو يعرف أنني هنا. وهو يريد مني أن أتوقف."

نظر آدم إليها، وقال: "هل ستتوقفين؟"

نظرت إليه، وقالت: "لا. سأواصل. حتى النهاية."

كانت تعرف أن الرحلة أصبحت أخطر مما توقعت، لكنها لم تكن مستعدة للتوقف.

كانت مستعدة لمواجهة كل شيء.
من كان يراقب ليلى منذ طفولتها، ولماذا يريد إيقافها الآن؟"

الفصل الثامن عشر:

"أخطر الأشخاص ليسوا أولئك الذين يختبئون... بل أولئك الذين كانوا أمامك طوال الوقت."

استيقظت ليلى على ضوء الصباح الذي لم تشعر به حقاً. كانت عيناها مفتوحتين، لكنها كانت لا تزال في تلك اللحظة التي سمعت فيها همساً من الهاتف القديم: "أنتِ تقتربين كثيراً." جلست على حافة السرير، وأخذت نفساً عميقاً. كانت تعلم أن اليوم لن يكون كالأيام السابقة. كانت تعلم أنها لم تعد تبحث فقط عن ماضٍ مفقود، بل كانت تقترب من شيء يحاول أحدهم حمايته.

قبل أن تغادر الشقة، أرسلت رسالة إلى يوسف: "أحتاج إلى رؤيتك اليوم. في الجامعة، عند الظهر." كان ردّه بعد دقيقتين: "سأكون هناك."

كان آدم قد غادر في الصباح الباكر إلى أرشيف المحافظة العقارية. لم يخبر ليلى بالتفاصيل، فقط قال إنه يريد التحقق من شيء عن ملكية البيت. وقفت ليلى أمام باب المبنى وهي تشعر بشيء غريب: لأول مرة، لم تكن هي من يقود البحث. كان هناك آخرون يحملون أجزاء من اللغز، وهذا جعلها تشعر بأنها ليست وحيدة، لكنه أيضاً جعلها تشعر بأن الحقيقة أصبحت أكبر من شخص واحد.

في الجامعة، وجدت يوسف جالساً على مقعد تحت شجرة التين. لم يكن يرتدي معطفه الرمادي المعتاد، بل سترة زرقاء باهتة، وكأنه يحاول أن لا يكون مرئياً. كان ينظر إلى الأرض، وأصابعه تعبث بحافة كمّه. جلست ليلى بجانبه، وقالت بهدوء: "أنت خائف."

رفع عينيه إليها للحظة، ثم عاد إلى الأرض: "لست خائفاً على نفسي. أنا خائف عليكِ. قلت لكِ إنني رأيت رجلاً يسأل عنكِ في الجامعة. لكنني لم أقل لكِ إنني رأيته أكثر من مرة. أمام بيتكِ. أمام المكتبة. في أي مكان تعرفين أنكِ ستذهبين إليه."

شعرت ليلى بقشعريرة: "وهل تعرفه؟"

هزّ يوسف رأسه: "لا. لكني أعرف أنه كان يراقب والدتك أيضاً. قبل أن تختفي. كنتُ أراه واقفاً في نهاية الزقاق، ينظر إلى البيت. لم يقترب أبداً. فقط يقف وينظر. وعندما سألت والدتك عنه، قالت لي: 'لا تقترب منه، ولا تخبر عبد الرحمن.' لم أخبر أحداً. ظننتُ أنها كانت تخاف من شيء لا أفهمه. والآن... أعتقد أنني بدأت أفهم."

سألته ليلى بصوت هادئ: "وماذا تفهم الآن؟"

نظر إليها، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الحزن والذنب: "أنني كنتُ أظن أنني أحميها بإخفاء الحقيقة عنكِ. لكنني كنتُ أحمي نفسي من الشعور بالذنب."

صمتت ليلى، ثم وضعت يدها على كتفه: "لست وحدك من يشعر بالذنب. كلنا نحاول فهم ما حدث. لكن لا يمكننا العودة إلى الوراء. فقط يمكننا المضي قدماً."

نهض يوسف، وقال: "سأخبرك إذا رأيته مرة أخرى. وأعدكِ أنني لن أخفي شيئاً بعد الآن."

في الوقت نفسه، في الطابق الثاني من مبنى أرشيف الدار البيضاء، كان آدم جالساً أمام كومة من الملفات الصفراء. كان يبحث عن سجل ملكية البيت في الزقاق خلف ساحة الجامعة. بعد ساعة من البحث، وجد ما كان يبحث عنه. لكن المفاجأة كانت أن البيت لم يكن مسجلاً باسم الأم، ولا باسم عبد الرحمن، ولا حتى باسم مصطفى.

كان البيت مسجلاً باسم شركة وهمية، اسمها "الأفق الجديد". تأسست الشركة عام 1995 وأغلقت عام 2002. وكان المالك المسجل لها رجلاً اسمه في السجلات، لكن الاسم كان ممحوا بعناية، كأن أحداً استخدم ممحاة حبرية لإزالته. بقي فقط جزء من حرف أخير، ورقم تسجيل الشركة.

أخذ آدم صورة للوثيقة، واتصل بسوسن: "لدي شيء قد يهمكِ. شركة اسمها 'الأفق الجديد'. أغلقت عام 2002. هل يمكنكِ البحث عنها في الجرائد القديمة؟"

كانت سوسن في شقتها، وقد فتحت حاسوبها بالفعل. ابتسمت وقالت: "أنا بالفعل أبحث. رنا وجدت شيئاً مثيراً. لكن سأخبركما مساءً."

في استوديو رنا، كانت الفنانة الشابة جالسة على الأرض، تحمل إطاراً خشبياً قديماً. كانت قد اشترته من سوق التحف قبل أيام، بهدف ترميمه واستخدامه في إحدى لوحاتها. لكنها عندما بدأت في تنظيف الجزء الخلفي من الإطار، وجدت شيئاً غريباً: كانت هناك صورة فوتوغرافية قديمة مطوية خلف الورق المقوى، ملصقة بعناية، كأن أحداً أراد إخفاءها.

أخرجت الصورة ببطء، ونظرت إليها. كانت الصورة ملتقطة أمام بيت قديم، يشبه إلى حد كبير البيت في الزقاق، لكن واجهته كانت مختلفة، وكأنها التُقطت قبل عقود. في الصورة، كان هناك ثلاثة أشخاص: رجل وامرأة وطفلة. المرأة كانت ترتدي فستاناً أبيض، تشبه إلى حد كبير أم ليلى في الصور القديمة. والطفلة كانت صغيرة، ربما في الخامسة أو السادسة، تنظر إلى الكاميرا بعينين واسعتين.

أرسلت رنا صورة للصورة إلى ليلى مع رسالة: "أعتقد أن هذه الصورة تخصكِ. تعالي انظري إليها."

في فترة ما بعد الظهر، كانت ليلى تسير في شارع قريب من شقتها. كانت تفكر في كل ما اكتشفته اليوم: اعتراف يوسف، بحث آدم، صورة رنا. كانت تشعر بأن القطع بدأت تتجمع، لكن الصورة الكاملة كانت لا تزال غامضة.

ثم شعرت بشيء. ليس صوتاً، ولا حركة، بل شعوراً بأن عينين تراقبانها من مكان ما. توقفت، ونظرت حولها. كان الشارع مزدحماً، والناس يمرون بجانبها. لكن على الرصيف المقابل، رأت رجلاً واقفاً. كان يرتدي معطفاً أسود، وعيناه مثبتتان عليها. لم يتحرك. لم يقترب. وقف هناك فقط، ينظر إليها.

شعرت ليلى بأن قلبها يتسارع. ثم رأت الرجل يرفع يده ببطء، ويلامس ساعة يده القديمة. نظرت إلى الساعة، ورأت عقاربها متوقفة عند 11:07. ثم التفت الرجل، واختفى بين المارة.

وقفت ليلى هناك، تشعر بأن الزمن توقف أيضاً. كانت تعرف أن هذه ليست صدفة. كان رسالة أخرى، تحذير آخر: "أنا هنا. ولا زلت أراقب."

في المساء، اجتمع الجميع في شقة ليلى. كانت الغرفة صغيرة، لكنها كانت تضم الآن أربعة أشخاص يحملون أربع قطع من اللغز. جلس آدم على الأريكة، ووضع ملف الملكية على الطاولة. جلست رنا بجانبه، ووضعت الصورة القديمة. وجلست سوسن على الكرسي المقابل، وأخرجت قصاصة من جريدة قديمة، قائلة: "وجدتها في أرشيف الجرائد الإلكتروني. خبر صغير، من عام 2002، عن حريق غامض في مستودع تابع لشركة 'الأفق الجديد'. وقع الحريق عند الساعة 11:07 صباحاً."

صمتت الغرفة. نظر الجميع إلى بعضهم البعض. ثم همست ليلى: "11:07. نفس الوقت المتوقف على الساعة في مقهى 'أوراق'. نفس الوقت المتوقف على ساعة أمي. نفس الوقت الذي يرن في كل شيء."

نظر آدم إلى الوثيقة، ثم إلى الصورة، ثم إلى قصاصة الجريدة. قال: "كلها تشير إلى المكان نفسه... لكن ليس إلى الشخص نفسه."

قام، وأخذ الوثيقة، وقلبها بين يديه. كان يبحث عن أي تفصيل صغير، أي شيء لم ينتبه له من قبل. وفجأة، توقف. كان هناك توقيع صغير جداً، في أسفل الوثيقة، بالكاد يُرى. ليس اسماً، بل حرف واحد فقط: "ن".

رفع آدم الوثيقة، وأظهرها للجميع، وقال: "هناك حرف واحد. في أسفل الوثيقة. 'ن'."

نظر الجميع إلى الحرف الصغير. سألت ليلى: "من هو 'ن'؟"

لم يجب أحد. كان الحرف الصغير يحمل في طياته سؤالاً جديداً، سؤالاً لم يكن لديهم إجابة عنه. لكنهم كانوا يعرفون شيئاً واحداً: أن هذا الحرف سيقودهم إلى مكان ما، إلى شخص ما، كان ينتظر أن يُكتشف.

وقفت ليلى، ونظرت إلى الأدلة الأربعة على الطاولة، وقالت: "غداً سنعرف من هو 'ن'. وسنعرف لماذا كل هذه السنوات من الصمت."

كانت تعرف أن الطريق لم ينتهِ بعد. كانت تعرف أن الحقيقة كانت تنتظرها في مكان ما، خلف باب آخر، خلف حرف واحد. لكنها كانت مستعدة.

الفصل التاسع عشر:

"بعض الأسماء تتجعلك تقضي حياتك كلها تبحث عمّن نطقه أول مرة."

فتحت ليلى عينيها مع أول شعاع ضوء يتسلل من النافذة. لم تنم جيداً. كان الحرف "ن" يرن في رأسها كجرس بعيد، لا يتوقف، لا يخفت. نهضت، وذهبت إلى الطاولة حيث كانت الأدلة الأربعة لا تزال مرصوصة كما تركتها في الليلة الماضية. مدّت يدها، ولمست وثيقة الملكية. كان الحرف الصغير في أسفلها، كأنه ينظر إليها، ينتظر.

بعد ساعة، كانت شقتها قد تحولت إلى غرفة عمليات صغيرة. آدم كان أول من وصل، حاملاً قهوة ساخنة وكيساً من المعجنات. لم يكن جائعاً، لكنه كان يعرف أن الجميع سيحتاجون إلى طاقة. رنا جاءت بعد ذلك، حاملة دفتر رسمها الكبير، وقد علقت في شعرها ورقة صغيرة نسيت إزالتها. سوسن دخلت وكأنها في سباق، هاتفها في يدها، تقول: "لدي شيء سأخبركم به، لكن دعوني أولاً أرى ما عندكم." يوسف كان آخرهم، وقف عند الباب لحظة، ثم دخل وجلس في الزاوية الأبعد، وكأنه لا يريد أن يشغل حيزاً.

قالت ليلى، وهي تقف أمام الحائط الأبيض الذي ألصقت عليه الأدلة: "لنبدأ من البداية. لدينا أربعة أشياء مؤكدة: وثيقة ملكية البيت باسم شركة 'الأفق الجديد'، وصورة قديمة التقطتها رنا خلف إطار لوحة، وخبر حريق غامض عام 2002، ودفتر أمي الذي وجدته تحت البلاطة. كلها تشير إلى مكان واحد، وزمان واحد، وشخص واحد."

نظر آدم إلى الوثيقة، ثم إلى الصورة، ثم إلى الجريدة. لم يكن يرتبها كما تفعل هي، بل كان يقرأها بعينين مختلفتين، كمن يبحث عن شيء لا يراه الآخرون. ثم قال: "انظروا إلى هذا."

اقترب الجميع منه. كان يشير إلى زوايا الوثيقة، ثم إلى خبر الجريدة، ثم إلى ظهر الصورة القديمة. قال: "هذا الحرف 'ن' ليس فقط في توقيع وثيقة الملكية. إنه هنا أيضاً. وفي خبر الجريدة. انظروا إلى زاوية الصفحة. هناك علامة صغيرة، بالكاد تُرى. وفي ظهر الصورة، نفس العلامة."

نظرت ليلى إلى ما كان يشير إليه، وشعرت بقشعريرة. كانت العلامة نفسها في كل مكان. ليست توقيعاً كبيراً، بل علامة مراجعة صغيرة، كأن شخصاً واحداً مرّ على كل هذه الأوراق في سنوات مختلفة، وترك بصمته الصامتة في كل مرة.

قال آدم: "هذا ليس مجرد توقيع. هذا أسلوب مراجعة. شخص ما كان يراجع كل هذه الوثائق، واحدة تلو الأخرى، على مدى سنوات. لكنه لم يترك اسمه. فقط حرف واحد. وكأنه كان يعرف أنه سيكون مهماً يوماً ما."

صمتت الغرفة. ثم همست رنا، التي كانت لا تزال تنظر إلى الصورة القديمة: "هناك شيء آخر."

رفعت الصورة، وأشارت إلى حافتها اليمنى: "انظروا هنا. هناك ظل. ليس جزءاً من الصورة الأصلية. كأن المصور تعمد أن يبقي هذا الشخص خارج الإطار. لكني عندما كبرت الصورة بالحاسوب... لاحظت شيئاً."

أخرجت هاتفها، وأظهرت لهم الصورة المكبرة. على الحافة اليمنى للصورة، كان هناك نصف كتف رجل، ملامحه غير واضحة تماماً، وكأنه وقف هناك للحظة، ثم أُخرج من الإطار عمداً.

قالت سوسن، وهي تنظر إلى الهاتف: "هذا ليس مصادفة. هذا متعمد. شخص ما كان يريد أن يكون في الصورة لكنه لا يريد أن يُرى."

نهضت سوسن ووضعت هاتفها على الطاولة، وقالت: "بحثت عن شركة 'الأفق الجديد'. ليس فقط اسمها، بل عنوانها المسجل. لم يكن المستودع هو المقر الوحيد. كان هناك مكتب صغير، فوق محل ساعات قديم في شارع الحسن الثاني. المحل أُغلق منذ سنوات. لكني وجدت اسمه القديم في سجلات البلدية: 'ساعات الزمان'."

رفعت رنا عينيها عن الصورة: "ساعات؟"

أومأت سوسن: "نعم. ساعات. وليس فقط أي ساعات. هذا المحل كان معروفاً بإصلاح الساعات القديمة. والساعة التي في مقهى 'أوراق'... والساعة التي في يد أم ليلى... كلها تشير إلى نفس المكان."

جلس الجميع في صمت. كانت الخيوط تتقاطع للمرة الأولى بشكل واضح: البيت، الشركة، الحريق، المحل، الساعات. كلها كانت تشير إلى شيء واحد، لكنهم لم يعرفوا بعد ما هو.

قال يوسف، الذي كان صامتاً طوال الوقت: "أنا... أتذكر شيئاً."

نظر الجميع إليه. كان وجهه شاحباً، وعيناه تنظران إلى نقطة بعيدة في الذاكرة. قال بصوت خافت: "عندما كنت صغيراً، كنتُ أذهب مع أبي إلى محل ساعات في شارع الحسن الثاني. كان هناك رجل يعمل هناك، يصلح الساعات القديمة. كنتُ أراه كل أسبوع. وكانت أم ليلى تزوره أحياناً. لم أكن أنتبه وقتها. لكني أتذكر الآن أنها كانت تحمل معها شيئاً، شيئاً صغيراً، وتضعه على الطاولة أمامه. كان يفتحه، ينظر إليه، ثم يعيده لها. لم أسأل ما هو."

سألت ليلى، وصوتها يرتجف: "هل تتذكر كيف كان يبدو ذلك الرجل؟"

أغلق يوسف عينيه لحظة، ثم قال: "لا. لا أتذكر وجهه. لكني أتذكر يده. كانت تمسك الساعات دائماً، وكأنها تعرف كيف تلمس الزمن."

عادت ليلى إلى دفتر أمها، وبدأت تقلب صفحاته ببطء. كانت قد قرأته مرات، لكنها هذه المرة كانت تبحث عن شيء محدد. وفجأة، توقفت. في هامش إحدى الصفحات، حيث كانت أمها تكتب ملاحظاتها اليومية، كان هناك حرف "ن" صغيراً، مكتوباً بقلم مختلف. لم يكن جزءاً من النص، بل كأنها أضافته بعد ذلك.

قرأت الجملة التي تسبقه: "اليوم رأيته مرة أخرى. وقف في نهاية الشارع، ينظر إلى البيت. لم يقترب. لكني شعرت بأنه يعرف كل شيء."

ثم الحرف "ن". وكأنها كانت تخاف أن تكتب اسمه، فاكتفت بالحرف الأول.

رفعت ليلى عينيها، وقالت: "كانت أمي تخاف منه. لكنها لم تكتب اسمه. فقط هذا الحرف. 'ن'. وكأنها كانت تعلم أنني سأقرأ هذا يوماً، وأنني سأفهم."

وقفت فجأة، وقالت: "أريد أن أذهب إلى هناك. إلى محل الساعات القديم."

نظر آدم إليها، وقال: "الآن؟"

أومأت: "الآن."

خرجوا من الشقة، وساروا في شوارع الدار البيضاء التي كانت تغفو تحت ضوء المساء الذهبي. وصلوا إلى شارع الحسن الثاني، حيث كان المحل القديم لا يزال قائماً، لكن واجهته مغبرة، وزجاجه معتماً، وكأن الزمن توقف فيه منذ سنوات.

وقفت ليلى أمام الواجهة، ونظرت من الزجاج إلى الداخل. كانت ترى ظلالاً من الماضي: طاولات خشبية، وأدوات صغيرة، وساعات معلقة على الحائط. لكن كل شيء كان مغطى بالغبار، كأن المكان ينتظر من يعيد إليه الحياة.

ثم لاحظت شيئاً. على إطار الباب المعدني، كان هناك حفر صغير، شبه ممحور بفعل الصدأ والزمن. اقتربت منه، ومسحت الغبار بأصابعها. كانت عبارة صغيرة، محفورة بعناية:

"إذا توقفت الساعة... فابدؤوا من جديد."

وقفت هناك، تنظر إلى العبارة، تشعر بأنها تقرأ رسالة موجهة إليها تحديداً. كانت الساعة قد توقفت، وكان عليها أن تبدأ من جديد. لكن من أين؟

التفتت إلى الآخرين، وقالت بصوت هادئ، لكنه كان يحمل عزماً جديداً: "هذا ليس نهاية الطريق. هذه بداية جديدة. غداً سأعود إلى هنا. وحدي."

نظر آدم إليها، وقال: "لست وحدكِ."

ابتسمت له ابتسامة صغيرة، ثم عادت لتلقي نظرة أخيرة على العبارة المحفورة. كانت تعرف أن الحرف "ن" لم يكن مجرد حرف. كان مفتاحاً لباب لم تفتحه بعد.

الفصل العشرون:

"بعض الأسرار لا تموت مع أصحابها... بل تنتظر من يفك اسرارها."

وقفت ليلى أمام واجهة محل الساعات القديم في صباح اليوم التالي. كان الضوء بارداً، والشارع هادئاً، والغبار لا يزال يغطي الزجاج كما تركته البارحة. كانت وحدها كما وعدت نفسها. آدم عرض مرافقتها، لكنها رفضت بلطف، قالت: "هذه المرة، يجب أن أدخل وحدي."

لم تطرق الباب. لم تكن تعرف إن كان أحد سيسمعها أصلاً. لكنها وضعت يدها على المقبض المعدني، وضغطت. فُتح الباب بهدير خافت، وكأنه لم يُقفل منذ سنوات.

دخلت إلى غرفة صغيرة، مظلمة، تفوح منها رائحة الخشب القديم والغبار والمعادن الصدئة. كانت الساعات معلقة على الجدران، بعضها لا يزال يعمل، يطلق تكتكات بطيئة كقلوب هرمة. طاولة خشبية في الوسط، عليها أدوات دقيقة: مفكات صغيرة، ملاقيط، نظارات مكبرة، وعلب صغيرة مليئة بتروس ساعاتية.

ثم رأته.

جلس في الزاوية الخلفية، على كرسي خشبي، أمام طاولة صغيرة عليها مصباح قديم. كان رجلاً عجوزاً، في السبعينيات من عمره، شعره أبيض بالكامل، ووجهه محفور بتجاعيد عميقة كخريطة قديمة. كان يرتدي سترة صوفية رمادية، ويحمل في يده ساعة جيب قديمة، ينظر إليها كما لو كانت تهمس له بشيء.

نظر إليها، ولم يبدُ مندهشاً. نظر إليها كمن كان ينتظرها منذ زمن طويل. وضع الساعة على الطاولة، وأزاح نظارته المكبرة، وقال بصوت أجش لكنه واضح:

"تأخرتِ كثيراً يا ليلى."

توقفت ليلى في مكانها. لم تكن تتوقع أن يعرف اسمها. وقفت هناك، تحاول أن تفهم كيف يعرفها، كيف عرف أنها ستأتي. قالت بصوت يرتجف قليلاً: "كيف تعرف اسمي؟"

ابتسم ابتسامة خفيفة، حزينة، كمن يتذكر شيئاً جميلاً ومؤلماً في آن واحد: "أمكِ كانت تتحدث عنكِ طوال الوقت. كانت تحمل صورتكِ في جيبها، وتريها لي كلما جاءت. قالت لي إنكِ ستأتين يوماً، عندما تكبرين، عندما تحتاجين إلى الإجابات."

جلست ليلى على الكرسي المقابل له، دون أن تطلب إذناً. كانت تشعر بأنها تعرفه منذ زمن، رغم أنها لم تره من قبل. سألته: "من أنت؟"

نظر إليها، وقال: "اسمي رشيد. كنتُ صديقاً لأمكِ. وكنتُ الوحيد الذي تخبره كل شيء."

"كل شيء؟"

أومأ: "كل شيء. من البداية."

صمت لحظة، ثم أشار إلى ساعة الجيب التي كانت لا تزال على الطاولة. قال: "هذه الساعة. كانت والدتك تتركها عندي كلما جاءت. كانت تقول إنها أغلى ما تملك. ليس لأنها ثمينة، بل لأنها تحمل لحظة غيّرت حياتها."

نظرت ليلى إلى الساعة، وشعرت بأنها تشبه الساعة التي وجدتها في صندوق والدها، والساعة المتوقفة في مقهى "أوراق". سألته: "11:07؟"

أومأ: "نعم. 11:07. الكثيرون يظنون أنها ساعة وفاة، أو ساعة حريق. لكنها ليست كذلك. إنها اللحظة التي دخل فيها رجل إلى هذا المحل، قبل ثلاثين سنة، وأجبر والدتكِ على اتخاذ قرار قلب حياتهما"

شعرت ليلى بقشعريرة تسري في جسدها. قالت: "أجبرهم؟ كيف؟"

نظر إليها رشيد، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الألم القديم: "كان يملك شيئاً عليهم. شيئاً لا يستطيعان مواجهته. قال لهما: إما أن تغادر ليلى (أمكِ) وتختفي، وإلا سيفضحهما، وسيدمر عائلتيهما. كان عبد الرحمن يريد المقاومة، لكن والدتكِ كانت تعرف أن هذا الرجل لا يكذب. كانت تعرف أنه قادر على فعل ما يقول. فوافقت. وافقت على المغادرة، ووعدت بأن تعود عندما يكون الوضع آمناً. لكنها لم تعد أبداً."

صمتت ليلى، وكانت دموعها تتساقط بصمت. قالت: "لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تبحث عني؟"

نظر إليها رشيد بحنان: "لأنها كانت تحميكِ. كانت تعرف أن هذا الرجل سيطاردها، وسيطاردكِ أيضاً، إن عرفتِ الحقيقة. كانت تريدكِ أن تعيشي حياة طبيعية، بعيدة عن كل هذا. لكنها كانت تعلم أنكِ ستسألين يوماً. ولذلك تركت هذه الساعة عندي. قالت لي: 'عندما تأتي ابنتي، أعطها هذه الساعة. ستجد فيها ما تبحث عنه.'"

مد رشيد يده، وأعطى ليلى ساعة الجيب القديمة. كانت ثقيلة، دافئة كأنها لا تزال تحمل دفء يد أمها. نظرت إليها، ورأت العقارب متوقفة قالت: "ماذا يوجد فيها؟"

قال رشيد: "أديري العقرب الصغير إلى 11:07."

فعلت ليلى. سمعت صوت "طَق" خفيفاً، وكأن شيئاً ما انزلق داخل الساعة. فُتح الغطاء الداخلي للغطاء الخلفي، وكشف عن صورة صغيرة جداً، مطوية بعناية، ملتصقة بالداخل.

أخرجت الصورة بأصابع مرتجفة، ونشرتها أمامها.

كانت صورة رجل. في الأربعينيات من عمره، شعره أسود، وعيناه داكنتان، وملامحه حادة. لم تره من قبل، لكنها شعرت بأنها تعرفه من مكان ما، من ذكرى بعيدة، أو من حلم قديم.

قلبت الصورة، وقرأت الكلمة المكتوبة على ظهرها بخط أمها:

"لا تثقي به."

رفعت عينيها عن الصورة، ونظرت إلى رشيد. سألته بصوت خافت، مرتجف: "من هذا؟"

نظر إليها رشيد طويلاً، ثم قال: "هذا هو الرجل الذي دخل إلى المحل في 11:07. هذا هو الرجل الذي أجبر أمكِ على الرحيل. هذا هو الرجل الذي كان يراقبكِ طوال حياتكِ."

وقفت ليلى، وهي لا تزال تمسك بالصورة بين يديها. كانت تعرف أنها وصلت إلى قلب اللغز. لكنها كانت تعرف أيضاً أنها لم تجد كل الإجابات بعد. كان هناك سؤال واحد يبقى، سؤال يلحّ في رأسها: "ما اسمه؟"

نظر إليها رشيد، وقال: "لا أعرف اسمه الحقيقي. لكني أعرف أنه كان يستخدم حرفاً واحداً في كل توقيعاته. حرف 'ن'."

وقفت ليلى هناك، في المحل الصغير، والساعة في يدها، والصورة في يدها الأخرى. كانت تعرف أنها أصبحت أقرب إلى الحقيقة مما كانت عليه في أي وقت مضى. لكنها كانت تعرف أيضاً أن الحقيقة كانت مثل الساعة: تحتاج إلى من يدير عقاربها في الوقت المناسب.

نظرت إلى رشيد، وقالت: "شكراً لك. سأعود. سأعرف من هو."

خرجت من المحل، وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء، وأضواء المدينة بدأت تتلألأ. وقفت هناك لحظة، تنظر إلى الصورة في يدها، وإلى الساعة في يدها الأخرى. كانت تعرف أن الطريق لم ينتهِ بعد، لكنها كانت تعرف أيضاً أنها لم تعد وحدها.

كانت تحمل الحقيقة في يدها. وكانت مستعدة لمواجهة من كان يختبئ وراء الحرف "ن".

الفصل الحادي والعشرون: من كان ينتظر في الظل

"في بعض الأحيان، يكون أقرب الناس إليك هو من وقف في ظلك طوال الوقت."

وقفت ليلى هناك، في وسط المحل القديم، والصورة لا تزال مرتجفة بين يديها. كان وجه الرجل ينظر إليها من الورق الأصفر، كأنه يعرف أنها ستراه يوماً. عيناه داكنتان، عميقتان، تحملان شيئاً بين الحزم والقسوة. رفعت عينيها إلى رشيد، الذي كان يراقبها بصمت، وكأنه يمنحها الوقت لتهضم ما رأته.

جلست على الكرسي المقابل له، ووضعت الصورة على الطاولة بينهما. كانت يداها ترتجفان، لكن صوتها كان هادئاً عندما سألت: "من هو حقاً؟"

نظر رشيد إلى الصورة، ثم رفع عينيه إلى ليلى. قال بصوت خافت: "لم أعرف اسمه الحقيقي أبداً. لكني أعرف أنه كان يعمل مع عائلة والدتكِ. كان مستشاراً، أو محامياً، أو شيئاً من هذا القبيل. كان يعرف أسرارهم. كلها. وكان يستخدمها كسلاح."

"كيف؟"

"كان يبتزهم. ليس بالمال، بل بالقرارات. كان يخبرهم بما يجب أن يفعلوه، وإلا سيفضحهم. والدتكِ كانت تعرف ذلك. كانت تخاف منه، لكنها لم تستطع الهروب."

صمتت ليلى لحظة، ثم قالت: "لماذا تعرف كل هذا؟"

نظر إليها رشيد بعينين حزينتين: "لأنه كان الشخص الوحيد الذي يمكنها الوثوق به. أنا. كنتُ الشخص الوحيد الذي كان يعرف الحقيقة كاملة، لكنه لم يكن جزءاً منها. كانت تأتي إليّ لتترك عندي الأشياء التي تخاف أن يفقدها أحد. الصور، الرسائل، الساعة. كانت تعلم أنني سأحتفظ بها، وأنني سأنتظر حتى تأتي أنتِ."

في تلك اللحظة، سمعوا صوتاً خفيفاً من المدخل. التفتت ليلى، ورأت آدم واقفاً هناك، ينظر إليها بقلق. قالت له: "كيف عرفت أين أنا؟"

"اتصلت بي سوسن، قالت إنها رأتكِ تتجهين إلى هنا. كنتُ قلقاً."

دخل آدم، وجلس بجانب ليلى. نظر إلى الصورة على الطاولة، ثم إلى رشيد. قال: "هذا هو الرجل الذي كان يراقبكِ."

أومأت ليلى.

أخذ آدم الصورة، ونظر إليها طويلاً. ثم قال شيئاً غير متوقع: "هذه الساعة... الساعة التي يرتديها في الصورة. إنها نفس الساعة المتوقفة في مقهى 'أوراق'."

نظرت ليلى إلى الصورة مجدداً، ورأت ما كان يشير إليه. كانت ساعة يد الرجل قديمة، نحاسية، تشبه إلى حد كبير الساعة التي كانت معلقة في المقهى. شعرت بقشعريرة تسري في جسدها. كان الرجل مرتبطاً بالمقهى أيضاً. لم يكن مجرد زائر عابر، بل كان يعرف المكان.

قال رشيد، وهو ينظر إلى الساعة في الصورة: "هذا الرجل كان يزور المقهى كثيراً. كان يجلس في الزاوية البعيدة، ويطلب قهوة سوداء، وينظر إلى الساعة لساعات. عندما سألته صاحبة المقهى القديمة عن السبب، قال لها: 'إنها تذكرني بشيء لا أريد أن أنساه.'"

وقفت ليلى فجأة، وبدأت تمشي في أرجاء المحل الصغير. كانت تحاول ربط كل الخيوط: الساعة 11:07، المقهى، البيت القديم، شركة "الأفق الجديد"، خالة فاطمة، يوسف، مصطفى، رشيد، والرجل الغامض الذي يظهر في كل مكان.

توقفت، ونظرت إلى رشيد: "خالة فاطمة... هل كانت تعرفه؟"

تردد رشيد للحظة، ثم قال: "نعم. كانت تعرفه. كانت هي من أوصله إلى والدتكِ. كانت خالة فاطمة تعمل في بيت عائلتها، وكانت تعرف هذا الرجل منذ سنوات. عندما غادرت

والدتكِ، كانت خالة فاطمة هي من اعتنَتْ بكِ. لكني لا أعرف إن كانت تعرف أنه هو من أجبرها على الرحيل."

جلست ليلى، وشعرت بأن شيئاً ما يتكسر داخلها. خالة فاطمة، المرأة التي ربّتها، التي كانت تطعمها وتغسل ملابسها وتقرأ لها القصص قبل النوم، كانت تعرف الرجل الذي دمر عائلتها. وكانت تخفي ذلك عنها.

نظر آدم إلى ليلى، وقال: "ربما كانت تحميكِ أيضاً. ربما كانت تعرف أنه لو أخبرتكِ، لكان وضعكِ في خطر."

لكن ليلى هزت رأسها: "هذا ما يقوله الجميع. 'كنا نحميكِ.' لكن الحماية لا تعني إخفاء الحقيقة. الحماية تعني أن تكون صادقاً، حتى لو كان مؤلماً."

صمتت الغرفة. ثم أخرجت ليلى هاتفها، وقالت: "سأتصل بها. سأسألها مباشرة."

نظر آدم إليها بقلق: "هل أنتِ متأكدة؟"

"نعم"

ضغطت على الرقم، ووضعت الهاتف على أذنها. سمعت نغمة رنين، طويلة، متكررة. ثم، فجأة، انقطع الاتصال. حاولت مرة أخرى. نفس الشيء.

رفعت عينيها إلى رشيد، وقالت: "لا ترد."

نظر رشيد إليها، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الخوف: "ربما هي مشغولة. أو ربما... لا تعرف كيف تجيبكِ."

لكن ليلى شعرت بأن هناك شيئاً آخر. شعرت بأن هناك من كان يمنع خالة فاطمة من الرد. شخصاً كان يعرف أنها ستتصل.

وقفت، وقالت: "سأذهب إليها. الآن."

وقف آدم بجانبها: "سأأتي معكِ."

نظرت إليه، وأومأت برأسها.

في الطريق إلى بيت خالة فاطمة، كانت ليلى صامتة. كانت تفكر في كل السنوات التي عاشتها معها، في كل الليالي التي كانت تجلس فيها عند النافذة تنتظر أمها، وفي كل مرة كانت خالة فاطمة تقول لها: "لا تقلقي، ستعود قريباً." كانت تعرف الآن أن خالة فاطمة كانت تعرف أنها لن تعود. كانت تعرف من كان السبب. لكنها لم تخبرها أبداً.

وصلوا إلى البيت القديم في حي شعبي. كان الباب مغلقاً، والنوافذ مظلمة. طرقت ليلى الباب، مرة، مرتين، ثلاث مرات. لم يرد أحد.

دفعت الباب برفق، فانفتح. كان البيت فارغاً. الطاولة التي كانت تجلس عليها خالة فاطمة خالية. الكرسي الذي كانت تقرأ عليه خالٍ. كل شيء كان في مكانه، لكنها لم تكن هناك.

على الطاولة، كان هناك ظرف صغير، مكتوب عليه بخط يد خالة فاطمة: "إلى ليلى."

فتحت ليلى الظرف بأصابع مرتجفة. كان بداخله ورقة صغيرة، مكتوب عليها بخطها، لكن الخط كان يبدو متعباً، وكأنها كتبته على عجل:

"ليلى العزيزة،

إذا كنتِ تقرئين هذا، فهذا يعني أن الوقت قد حان لتغادر. لقد كنتُ أعرف أنكِ ستأتين يوماً لتسأليني عن الرجل. كنتُ أعرف أنكِ ستكتشفين الحقيقة. لكني لا أستطيع مواجهتكِ. لا لأنني خائفة، بل لأنني أحببتكِ كثيراً، وأردتُ أن احميكِ من ألم لا تستطيعين تحمله.

الرجل الذي تبحثين عنه ليس بعيداً. إنه أقرب مما تتصورين. لقد كان معكِ طوال الوقت، لكنكِ لم تعرفي أنه هو.

أنا آسفة. سامحيني.

خالة فاطمة."

وقفت ليلى هناك، والورقة في يدها، والشعور بأن العالم يتغير من حولها. كانت خالة فاطمة تعرف كل شيء. وكانت تحميها. لكن الحماية التي قدمتها كانت مبنية على السرية، وعلى الصمت.

نظرت إلى آدم، وقالت بصوت خافت: "لقد رحلت. لكنها تركت لي هذا. تقول إنه ليس بعيداً. إنه معي طوال الوقت."

جلس آدم بجانبها، وقال: "من يكون؟"

نظرت إلى الورقة مجدداً، ثم إلى الصورة في جيبها، ثم إلى ساعة الجيب التي لا تزال في يدها. ثم تذكرت شيئاً. شيئاً قالته لها خالة فاطمة قبل سنوات، عندما كانت صغيرة، عندما سألتها عن والدها:

"بعض الأشخاص يختارون أن يكونوا بعيدين، ليحموا من يحبون."

لم تفهمها حينها. لكنها بدأت تفهمها الآن.

وقفت، وقالت: "سأعرف من هو. سأعرف من كان يراقبني طوال هذه السنوات."

خرجت من البيت، وكانت السماء قد أظلمت بالكامل، والنجوم بدأت تظهر في الأفق. كانت تعرف أن الغد سيكون مختلفاً. كانت تعرف أنها على وشك مواجهة الحقيقة التي هربت منها طوال حياتها.

وكانت مستعدة.

الفصل الثاني والعشرون:

"في اللحظة التي تتوقف فيها عن البحث، تبدأ الحقيقة في البحث عنك."

استيقظت ليلى قبل شروق الشمس، كما لو أن جسدها قرر أن يسبق عقلها. لم تنم جيداً. كانت صورة الرجل الغامض لا تزال محفورة في ذاكرتها، وكلمات خالة فاطمة تتردد في أذنها: "إنه أقرب مما تتصورين. لقد كان معكِ طوال الوقت." جلست على حافة السرير، وأخذت نفساً عميقاً. كانت تعلم أن اليوم لن يكون كالأيام السابقة. لم تعد تبحث فقط. كانت تستعد لمواجهة من كان يختبئ في الظل.

نهضت، وارتدت ملابسها بسرعة: بنطال أسود، وقميصاً رمادياً، وسترة خفيفة. وضعت ساعة الجيب في جيبها، وأمسكت بالصورة، ونظرت إليها للحظة، ثم وضعتها في جيب آخر. كانت مستعدة.

في المطبخ، وجدت آدم جالساً على الطاولة، ينظر إلى كوب قهوة بارد لم يلمسه. رفع عينيه إليها، وقال: "لم أنم جيداً. كنتُ أفكر في كل شيء. في كل الأدلة. وهي كلها تشير إلى شيء واحد."

جلست أمامه: "إلى ماذا؟"

"أن هذا الرجل لم يكن غريباً. كان جزءاً من حياتكِ، من حياتنا جميعاً. ربما شخص نعرفه، لكننا لم ننتبه إليه."

نظرت إليه، وشعرت بأنه يفكر في نفس الاتجاه الذي تفكر فيه. قالت: "أعتقد أن الوقت قد حان لمواجهته."

وقف آدم، وقال: "كيف سنفعله؟ لا نعرف اسمه، ولا نعرف أين يعيش."

أخرجت ليلى هاتفها، وقالت: "لكننا نعرف من قد يعرف."

اتصلت بيوسف. رد بعد الرنة الثالثة، وكان صوته ناعساً: "ليلى؟ في هذا الوقت؟"

قالت: "يوسف، أحتاج إلى مقابلتك. الآن. في مقهى 'أوراق'."

صمت لحظة، ثم قال: "سأكون هناك خلال ساعة."

أغلقت الهاتف، ونظرت إلى آدم: "يوسف يعرف شيئاً. لقد أخفى عنا الكثير."

في مقهى "أوراق"، كان الجو هادئاً في الصباح الباكر. المكان شبه فارغ، والنادل الفتي كان يمسح الطاولات. جلست ليلى وآدم في الزاوية البعيدة، حيث يمكنهما رؤية الباب. بعد نصف ساعة، دخل يوسف. كان يرتدي معطفاً رمادياً، ووجهه شاحب، وعيناه تحملان شيئاً من التعب والتردد. جلس أمامهم، وقال: "لقد وجدتِ شيئاً، صحيح؟"

وضعت ليلى الصورة على الطاولة، ودفعتها نحوه. نظر إليها يوسف، وتغير لون وجهه. ظل صامتاً لحظة، ثم قال بصوت خافت: "أين وجدتِ هذه؟"

"في ساعة أمي. عند رشيد، صاحب محل الساعات القديم"

نظر إليها يوسف طويلاً، وكأنه يقرر شيئاً. ثم قال: "كنتُ أعرف أنه سيأتي يوم وتكتشفين فيه. كنتُ أتمنى ألا يأتي هذا اليوم أبداً."

"يوسف، من هو هذا الرجل؟"

تردد، ثم قال: "هو... هو كان شريكاً لوالدكِ في العمل. كانا يملكان شركة معاً، 'الأفق الجديد'. لكنه كان يملك أيضاً شيئاً آخر: كان يعرف أسرار عائلة والدتكِ. كان يستخدمها للسيطرة على الجميع. وعندما رفض والدكِ الانصياع له، دمر كل شيء. أجبر أمكِ على الرحيل، وهدد والدكِ، وجعل حياتهم جحيماً."

صمتت ليلى، ثم قالت: "وأنت؟ كيف تعرفه؟"

نظر إليها يوسف، وقال بصوت مكسور: "لأنني كنتُ جزءاً من هذا. كنتُ أعرف ما يفعله، لكنني لم أستطع إيقافه. كنتُ خائفاً. خائفاً من أن يلحق بي وبعائلتي. اخترتُ الصمت."

وقفت ليلى، وشعرت بالغضب يتصاعد في صدرها. لكنها تذكرت كلمات رشيد، وكلمات خالة فاطمة: كانوا جميعاً خائفين. كانت تخشى أن تفعل الشيء نفسه. تنفست بعمق، وجلست مجدداً: "أنا لا ألومك. أنا فقط أريد أن أعرف من هو."

نظر إليها يوسف، وقال: "اسمه نادر. نادر الصباحي. كان يعيش في الدار البيضاء، لكنه غادر بعد أن دمر كل شيء. لا أعرف أين هو الآن. لكني أعرف أنه كان يزور هذا المقهى كثيراً. كان يجلس هناك، في الزاوية نفسها، وينظر إلى الساعة المتوقفة. كان يقول إنها تذكره بشيء لا يريد أن ينساه."

نظرت ليلى إلى الساعة المتوقفة فوق الباب. عقاربها لا تزال عند 11:07. نهضت، وذهبت إلى النادل الفتي، وقالت: "هل تعرف رجلاً اسمه نادر؟ كان يزور هذا المقهى منذ سنوات."

نظر إليها النادل، وقال: "نادر؟ نادر الصباحي؟ كان يأتي إلى هنا كل يوم تقريباً. كان يجلس في الزاوية، ويطلب قهوة سوداء، وينظر إلى الساعة لساعات. لكنه توقف عن المجيء منذ بضع سنوات. سمعتُ أنه غادر المدينة."

عادت ليلى إلى الطاولة، وجلست. كانت تعرف الآن اسم الرجل: نادر الصباحي. كان شريكاً لوالدها، وكان يعرف أسرار عائلتها، وكان يتحكم في حياتهم. وكان يزور هذا المقهى. كان قريباً منها طوال الوقت، وهي لم تعرف.

قالت: "أريد أن أعرف كل شيء عن هذا الرجل. أين يعيش، ماذا يفعل، لماذا اختفى."

قال يوسف: "ربما يمكننا معرفة ذلك من خلال شركة 'الأفق الجديد'. كانت لها سجلات، أسماء، عناوين. ربما لا تزال موجودة في أرشيف البلدية."

نظر آدم إلى ليلى، وقال: "سأذهب إلى أرشيف البلدية مجدداً. سأبحث عن أي شيء يتعلق بـ'الأفق الجديد' ونادر الصباحي."

أومأت ليلى: "وأنا سأذهب إلى البيت القديم. هناك شيء ما هناك، شيء لم أجده بعد."

قبل مغادرتها المقهى، توقفت ليلى للحظة. كانت تنظر إلى الساعة المتوقفة، تفكر في كل ما حدث. ثم لاحظت شيئاً: كان هناك نقش صغير على إطار الساعة، لم تنتبه إليه من قبل. اقتربت منه، ورأت حروفاً محفورة بدقة: "ن. ص. 11:07."

نادر الصباحي. 11:07. كان قد ترك بصمته هنا أيضاً. وقفت هناك، تشعر بأن الخيوط كلها تتقاطع، وأن الحقيقة أصبحت أقرب مما تتصور.

خرجت من المقهى، واتجهت إلى البيت القديم. كان الزقاق هادئاً، والشمس تبدأ في الارتفاع. وقفت أمام الباب الخشبي، وأخرجت المفتاح الذي أعطاها إياه مصطفى. أدخلته، وأدارته. فُتح الباب بصوت صرير طويل.

دخلت إلى البيت، وكان كل شيء كما تركته. لكن هذه المرة، كانت تعرف ما تبحث عنه. ذهبت إلى غرفة النوم، ونظرت إلى الحائط حيث كانت المرآة المتشققة معلقة. كانت قد اختفت، لكنها كانت تعرف الآن أن خلفها كانت هناك صورة، صورة لنادر الصباحي. كانت قد أُخذت، لكن البصمة بقيت.

جلست على الأرض، وأغلقت عينيها. كانت تحاول أن تتخيل أمها هنا، في هذه الغرفة، تعيش أيامها الأخيرة، تخاف من رجل اسمه نادر. كانت تحاول أن تشعر بحضورها، بصوتها، بدفء يديها.

ثم سمعت صوتاً خلفها. صوت خطوات خفيفة على الأرضية الخشبية.

التفتت بسرعة، ورأت رجلاً يقف عند باب الغرفة. كان يرتدي معطفاً أسود، ووجهه في الظل، لكنها عرفت من يكون. كان هو.

وقف هناك، ينظر إليها. لم يتحرك. لم يتكلم.

وقفت ليلى ببطء، وشعرت بأن قلبها ينبض بسرعة. قالت بصوت هادئ، محاولاً ألا يظهر الخوف: "نادر."

أومأ الرجل برأسه، وتقدم خطوة إلى الأمام. كان وجهه واضحاً الآن: نفس الوجه في الصورة، لكنه أكبر سناً، أكثر تجاعيداً. قال بصوت أجش، هادئ، كمن كان ينتظر هذه اللحظة: "كنتُ أعرف أنكِ ستأتين يوماً."

"لماذا؟ لماذا فعلت كل هذا؟"

نظر إليها، وقال: "لأنني كنتُ أحبها. كنتُ أحب أمكِ. لكنها اختارت عبد الرحمن. عندما رفضتني، قررتُ أن أجعلها تندم على اختيارها. كنتُ أريد أن أتحكم في حياتها، كما كانت تتحكم في قلبي."

صدمت ليلى، لكنها لم تظهر ذلك. قالت: "لقد دمرت حياتها. ودمرت حياة والدي. وجعلتني أعيش بدون أمي طوال هذه السنوات."

نظر إليها، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الندم، لكنه لم يعتذر: "لم أكن أعرف أنها ستموت. لم أكن أعرف أنها مريضة. عندما عرفت، حاولتُ التراجع، لكن الوقت كان قد فات."

"وماذا عني؟ لماذا كنتَ تراقبني طوال هذه السنوات؟"

تردد لحظة، ثم قال: "لأنني كنتُ أريد أن أتأكد من أنكِ بخير. كنتُ أعرف أنكِ ستسألين يوماً. كنتُ أريد أن أكون مستعداً."

وقفت ليلى، وقالت: "أنت لستَ مستعداً. أنت لستَ مستعداً لأي شيء. لقد عشتَ حياتك كلها في الظل، تخاف من مواجهة ما فعلته. والآن، أنا هنا. وأنا لا أخاف منك."

نظر إليها نادر طويلاً، ثم تراجع خطوة إلى الوراء، وقال: "أنتِ تشبهينها كثيراً. نفس العزيمة، نفس النظرة. ربما هذا هو السبب الذي جعلني أراقبكِ كل هذه السنوات."

ثم استدار، ومشى نحو الباب، وخرج من البيت.

وقفت ليلى هناك، في الغرفة الفارغة، تشعر بأن اللقاء الأول قد انتهى، لكن المعركة لم تنتهِ بعد. كانت تعرف أن نادر سيعود، وأنها ستواجهه مرة أخرى.

الفصل الثالث والعشرون:

"نعرف متى توقفت الساعة... لكننا لا نعرف أبداً لماذا توقف الزمن عند تلك اللحظة بالذات."

جلسوا في شقة ليلى الصغيرة، والأدلة متناثرة على الطاولة كبطاقات لعب في لعبة لم تنتهِ بعد. كان الضوء المسائي يتسلل من النافذة، مرسماً خطوطاً ذهبية على وجوههم المتعبة. مرت ساعتان منذ أن غادرت ليلى البيت القديم، وساعة منذ أن اتصلت بالجميع وجمعتهم هنا.

كان آدم أول من تحدث، وضع أصابعه على الصورة التي ما زالت على الطاولة: "نادر الصباحي. الآن لدينا اسم. لكن الاسم لا يكفي. نحتاج إلى فهم لماذا."

رفعت سوسن عينيها عن حاسوبها المحمول، وكانت قد بحثت طوال الساعة الماضية في الأرشيف الرقمي: "وجدت شيئاً. 'الأفق الجديد' لم تكن مجرد شركة عقارية. كانت واجهة. السجلات تظهر أنها استوردت ساعات قديمة من أوروبا، لكنها كانت تبيعها بأقل من سعر شرائها. خسائر متراكمة. لا أحد يستمر في الخسارة بهذه الطريقة."

نظر رنا إلى الصورة ثم إلى دفتر ملاحظاتها، وكانت قد رسمت خلال الساعة الماضية خريطة تربط بين جميع المواقع: "هذا ليس عملاً تجارياً. هذا غطاء. الشركة كانت موجودة لسبب آخر. لكن السجلات لا تظهر ما هو."

رفع يوسف رأسه، وكان وجهه شاحباً: "كان نادر يأتي إلى بيتنا عندما كنت صغيراً. كنتُ أظن أنه صديق والدي. لكني أتذكر شيئاً الآن... كانت أمي تخاف منه. كانت تغلق باب غرفتها عندما يحضر. لم أسأل لماذا. كنتُ صغيراً."

نظرت ليلى إليهم جميعاً، وكانت تحاول ترتيب الفوضى التي في رأسها: "نادر أحب أمي. هذا ما قاله. لكن الحب لا يدفع أحداً إلى تدمير عائلة بأكملها. هناك شيء آخر. هناك شيء لم يقله."

عادت إلى دفتر أمها، الذي أصبح الآن أشبه بكتاب مقدس، تقلب صفحاته ببطء، تبحث عن أي شيء لم تلاحظه من قبل. وفجأة، توقفت عند صفحة كانت قد قرأتها مرات، لكنها هذه المرة رأت شيئاً مختلفاً. في هامش الصفحة، حيث كانت أمها تكتب عن خوفها من نادر، كان هناك رسم صغير بالحبر الباهت: ساعة، وعقاربها عند 11:07، وتحتها كلمة واحدة: "الموعد."

رفعت عينيها عن الدفتر، وقالت: "11:07 ليس وقت وفاة. وليس وقت حريق. إنه موعد. موعد كان يجب أن يحدث شيء ما. لكنه لم يحدث."

نهض آدم واقترب من الدفتر، نظر إلى الرسم: "موعد بين من؟"

"بين أمي ونادر، على الأرجح. أو بين نادر وعائلتها. شيء كان يجب أن يحدث في تلك اللحظة. لكنه لم يحدث."

سوسن، التي كانت لا تزال أمام حاسوبها، قالت فجأة: "انتظروا. وجدت شيئاً. في أرشيف الجرائد، خبر قديم من عام 1995. ليس عن شركة، بل عن حفل خطوبة. حفل خطوبة كان مقرراً في الساعة 11:07 صباحاً، في قاعة قريبة من البيت القديم. لكن الحفل ألغي في اللحظة الأخيرة."

نظر الجميع إليها. قالت ليلى، وصوتها يرتجف: "خطوبة من؟"

نظرت سوسن إلى الشاشة، ثم إلى ليلى، وقالت: "خطوبة نادر الصباحي... وليلى. والدتكِ."

ساد صمت ثقيل في الغرفة. كان الجميع يحاولون استيعاب المعنى. كان نادر مخطوباً لأم ليلى. كان هناك حفل خطوبة مقرر في الساعة 11:07. لكن الحفل ألغي. وبدلاً من ذلك، تزوجت أمها من عبد الرحمن.

وقفت ليلى، وبدأت تمشي في أرجاء الغرفة: "نادر كان مخطوباً لأمي. لكنها اختارت والدي. وبدلاً من أن يتقبل، قرر أن ينتقم. دمر حياتها، ودمر حياة والدي، وجعلني أعيش بدون أمي. كل هذا لأنها رفضته."

قال آدم: "لكن لماذا 11:07؟ لماذا تلك اللحظة بالذات؟"

نظرت ليلى إلى الدفتر مجدداً، ثم قالت: "لأنها اللحظة التي كان يجب أن تتزوج فيها من نادر. لكنها لم تفعل. في تلك اللحظة، اختارت طريقاً آخر. ونادر لم يغفر لها ذلك أبداً."

جلس الجميع في صمت. كانت الصورة الكبيرة بدأت تتشكل. نادر لم يكن مجرد رجل مرفوض، بل كان رجلاً شعر بأنه خُدع، وأنه فقد مستقبله بسبب خيار امرأة. وكان قرر أن يجعلها تدفع الثمن.

فجأة، رفع يوسف رأسه، وقال: "هناك شيء آخر. أتذكر الآن... عندما كنت صغيراً، سمعت أمي تتحدث مع أبي عن 'الخيانة'. قالت: 'لقد خاننا قبل أن يخونها.' لم أفهم ماذا تعني. لكنها كانت تتحدث عن نادر."

نظرت ليلى إلى يوسف: "خان من؟"

"لا أعرف. لكني أتذكر أنها كانت خائفة. ليس من نادر فقط، بل من شيء آخر. شيء كان يخفيه."

عادت ليلى إلى دفتر أمها، وبدأت تقلب الصفحات بسرعة. كانت تبحث عن أي شيء، أي كلمة، أي تلميح. ثم توقفت عند صفحة كانت قد أهملتها من قبل، لأن الكتابة فيها كانت خفيفة جداً، شبه ممحية. كانت مكتوبة بقلم رصاص، وكأن أمها كتبتها في عجلة، ثم حاولت محوها:

"نادر يعرف الحقيقة عن والدي. يعرف ما فعله. يستخدم ذلك ضدي."

رفعت ليلى عينيها عن الدفتر، وقالت بصوت خافت: "لم يكن نادر يبتز أمي فقط لأنه أحبها ورفضته. كان يبتزها لأن لديه شيئاً عليها. شيئاً عن عائلتها. عن جدها."

نظر آدم إليها: "ماذا كان يعرف؟"

هزت ليلى رأسها: "لا أعرف. لكني أعرف الآن لماذا كانت خائفة. لم تكن تخاف منه فقط، بل كانت تخاف مما يمكن أن يفعله بسمعتها، بعائلتها، بأبي. كان يمسك بها من نقطة ضعف لا تستطيع الهروب منها."

جلس الجميع في صمت. كانوا قد وصلوا إلى قلب اللغز. نادر لم يكن مجرد رجل مرفوض، بل كان رجلاً يملك أسراراً خطيرة، وكان يستخدمها للسيطرة على من أحبهم.

ثم قالت سوسن، وهي لا تزال تنظر إلى شاشتها: "هناك شيء آخر. هذا الخبر عن حفل الخطوبة... ليس الخبر الوحيد. هناك خبر آخر، من عام 1998، عن حريق في مستودع. لكن هناك أيضاً خبر صغير، في نفس اليوم، عن اختفاء رجل. رجل كان يعمل مع نادر في الشركة."

نظرت ليلى إليها: "ما اسمه؟"

"لم يكتب الاسم كاملاً. فقط... 'م. ن.'"

ن. م. ن. الحروف نفسها التي كانت تظهر في كل مكان. شعرت ليلى بقشعريرة تسري في جسدها. كان هناك أكثر من شخص واحد. كانت هناك شبكة.

نهضت، وقالت: "نادر لم يكن يعمل وحده. كان هناك شخص آخر. شخص يعرف كل شيء. شخص كان يتحكم أيضاً."

وقفت، وذهبت إلى النافذة، ونظرت إلى المدينة المظلمة. كانت تعرف أنها اقتربت من الحقيقة، لكنها كانت تعرف أيضاً أن الحقيقة كانت أكبر مما تتخيل.

قالت بهدوء: "غداً سأبحث عن نادر مجدداً. هذه المرة، لن أتركه يهرب."

الفصل الرابع والعشرون: ا

"أحياناً تكون المواجهة الحقيقية ليست عندما تقف وجهاً لوجه، بل عندما تدرك أنك كنت تسير في الاتجاه الخطأ طوال الوقت."

جلسوا حول طاولة شقة ليلى في الثامنة صباحاً. النوافذ كانت مغلقة، والستائر مسدلة، وكأن الغرفة نفسها كانت تحتفظ بسر. كان الضوء الخافت يمر من بين الشقوق، مرسماً خطوطاً شاحبة على وجوههم المتعبة. كانوا جميعاً هناك: ليلى، آدم، سوسن، رنا، ويوسف. هذه المرة، لم تكن الغرفة مليئة بالأدلة المتناثرة، بل بورقة واحدة كبيرة في منتصف الطاولة، كتبت عليها ليلى بخطها الواضح:

"الهدف: الوصول إلى نادر الصباحي قبل أن يختفي."

قالت ليلى، وهي تنظر إلى الجميع: "لقد جمعنا كل الأدلة التي نحتاجها. نعرف لماذا فعل ما فعله. نعرف كيف بدأ كل شيء. والآن، حان الوقت للوصول إليه."

نظر آدم إلى الورقة، ثم رفع عينيه: "لكن كيف؟ لا نعرف أين يعيش. لا نعرف أين يختبئ. كل ما نعرفه هو اسمه، وماضيه، وصورته."

رفعت سوسن هاتفها، وقالت: "ليس كل شيء. لقد بحثت في السجلات الرسمية. نادر الصباحي لا يزال يملك شركة صغيرة مسجلة باسمه، لكنها وهمية، عنوانها هو نفس محل 'ساعات الزمان'. لكن هناك عنوان آخر. عنوان لشقة في حي المعاريف، مسجلة باسم شركة أخرى، لكن الضرائب كانت تُدفع باسمه."

نظرت ليلى إليها: "هل لديك العنوان؟"

"نعم. لكنه قد يكون قديماً. قد لا يكون هناك."

نهضت ليلى، وبدأت تمشي في أرجاء الغرفة. كانت تفكر بصوت عالٍ: "إذا كان نادر يعرف أنني وجدت صورته، وأنني أعرف اسمه، فمن المحتمل أنه سيختفي. لكن إذا كان يريد أن يراني، أو يريد أن يواجهني، فقد ينتظر."

رفع يوسف رأسه، وكان وجهه شاحباً: "هو يريد رؤيتك. لقد قال ذلك. 'كنتُ أعرف أنكِ ستأتين.' إنه يريد أن يواجهكِ. هذا هو السبب الذي جعله يظهر في البيت القديم. لم يكن خائفاً. كان ينتظر."

وقفت ليلى، ونظرت إليه: "إذا كان يريد رؤيتي، فسأعطيه ما يريد. لكن في المكان الذي أختاره أنا."

جلس الجميع في صمت. كانت ليلى تتخذ قراراً خطيراً، وكانوا يعرفون ذلك.

قال آدم: "وماذا عن 'م. ن.'؟ الشخص الآخر الذي اختفى عام 1998. إذا كان نادر يعمل مع شخص آخر، فقد يكون ذلك الشخص ما زال على قيد الحياة، وقد يكون هو المفتاح الحقيقي."

قالت سوسن: "بحثتُ عن 'م. ن.' أيضاً. لا يوجد سجل رسمي باسمه. لكن وجدت شيئاً غريباً. في سجلات شركة 'الأفق الجديد'، كان هناك اسم موظف مختصر: 'م. ن.'، وكان يعمل كمدير للمستودع. اختفى في نفس اليوم الذي وقع فيه الحريق. لم يُذكر أي شيء عن وفاته، فقط 'مفقود'."

نظرت ليلى إلى الجميع، وقالت: "إذا كان 'م. ن.' ما زال على قيد الحياة، فهو يعرف كل شيء. وربما هو الشخص الوحيد الذي يمكنه إثبات ما فعله نادر."

نهض آدم، وقال: "لدي فكرة. إذا كان 'م. ن.' مدير المستودع، فربما ترك أثراً. ربما سجلات، أو عائلة، أو شيئاً يربطه بالمكان."

نظرت سوسن إلى شاشتها: "لقد بحثتُ بالفعل. لا توجد عائلة مسجلة باسمه. لكن هناك شيء واحد: كان لديه حساب بنكي مشترك مع شخص آخر. شخص اسمه... نادر الصباحي."

وقف الجميع في صمت. كانت الأدلة تتقاطع. نادر و"م. ن." كانا يعملان معاً، وكانا يمتلكان حساباً مشتركاً. هذا يعني أن "م. ن." لم يكن مجرد موظف، بل كان شريكاً.

قالت ليلى: "إذا كان لديهما حساب مشترك، فهذا يعني أنهما كانا يثقان ببعضهما. أو أن أحدهما كان يسيطر على الآخر."

رفع يوسف رأسه، وقال بصوت خافت: "أنا لا أعرف من هو 'م. ن.'، لكني أتذكر شيئاً آخر. عندما كنت صغيراً، رأيت نادر يتحدث مع رجل في محل الساعات. كان الرجل طويلاً، نحيلاً، ويرتدي نظارة داكنة. لم أره من قبل. لكني تذكرت أن نادراً كان يطلق عليه لقباً: 'المهندس'."

نظرت ليلى إلى يوسف: "المهندس؟"

أومأ: "نعم. كان يناديه 'المهندس'. ربما كان يعمل في الهندسة، أو ربما كان لقباً آخر."

جلست ليلى، وأغلقت عينيها لحظة. كانت تحاول أن تربط كل الخيوط: نادر، "المهندس"، الشركة، المستودع، الحريق، الساعة 11:07. كان هناك نمط، لكنه لم يكن واضحاً تماماً.

ثم فتحت عينيها، وقالت: "إذا كان 'المهندس' ما زال على قيد الحياة، فهو يعرف كل شيء. وهو قد يكون ضحية أيضاً، أو شريكاً. لكن هناك طريقة واحدة لمعرفة ذلك."

نظر الجميع إليها: "كيف؟"

قالت: "سنذهب إلى المستودع. المكان الذي وقع فيه الحريق. ربما لا يزال هناك أثر، أو شيء تركه 'المهندس'."

نهض آدم، وقال: "لكن المستودع احترق. لا يمكن أن يكون هناك شيء."

قالت ليلى: "ليس بالضرورة. إذا كان 'المهندس' يعرف أنه قد يختفي، فربما ترك شيئاً في مكان آمن. ربما في المستودع نفسه، أو في مكان قريب."

قرر الفريق التحرك. خرجوا من الشقة، واتجهوا إلى موقع المستودع القديم، في منطقة صناعية مهجورة في ضواحي الدار البيضاء.

عندما وصلوا، كان المكان عبارة عن أطلال: جدران متآكلة، ونوافذ مكسورة، وبقايا حريق قديم لا تزال مرئية على الجدران. وقفت ليلى في وسط الخراب، وتحاول أن تتخيل ما كان هنا قبل عشرين عاماً.

قالت سوسن: "وفقاً للسجلات، المستودع كان يحتوي على مكتب صغير في الطابق العلوي. ربما هناك شيء لا يزال موجوداً."

صعدوا الدرج الحجري المتآكل إلى الطابق العلوي. كان المكتب صغيراً، مليئاً بالغبار والحطام. لكن في الزاوية، كان هناك خزانة حديدية، متآكلة، لكنها لا تزال قائمة.

اقتربت ليلى من الخزانة، وحاولت فتحها. كانت مقفلة. نظرت حولها، ورأت مفتاحاً صغيراً معلقاً على الحائط، مغطى بالغبار. أخذته، وأدخلته في قفل الخزانة. انفتحت بصوت صرير طويل.

كان بداخل الخزانة صندوق صغير، معدني، مغلق أيضاً. لكنه لم يكن مقفلاً. فتحته ليلى، وكان بداخله مجموعة من الأوراق القديمة، وصورة فوتوغرافية، وساعة جيب قديمة. التقطت الساعة، ونظرت إليها. كانت متوقفة عند 11:07.

ثم نظرت إلى الصورة. كانت صورة لرجلين: نادر الصباحي، ورجل آخر، طويل، نحيل، يرتدي نظارة داكنة. كانا يقفان أمام المستودع، يبتسمان، كما لو أن المستقبل لم يكن يعرف ما سيحدث.

على ظهر الصورة، كان هناك خط يد: 1997."

وقفت ليلى هناك، في وسط الخراب، والصورة في يدها، والساعة في يدها الأخرى. كانت تعرف أنها اقتربت من الحقيقة. كانت تعرف أن "المهندس" هو المفتاح.

قالت بصوت خافت: "هذا هو 'م. ن.'. هذا هو المهندس. وهذا هو الرجل الذي يمكنه إخبارنا بكل شيء."

نظر آدم إلى الصورة، وقال: "لكن أين يمكننا أن نجده؟"

نظرت ليلى إلى الصورة مجدداً، ثم إلى الساعة، وقالت: "سنجده. لأنه ترك لنا دليلاً. هذا الصندوق لم يكن هنا بالصدفة. أحدهم وضعه هنا ليجده من يبحث."

خرجوا من المستودع، وكانت الشمس قد بدأت تغرب، تاركة أثراً ذهبياً على الأطلال. وقفت ليلى هناك، تنظر إلى الصورة، وإلى الساعة، وتشعر بأنها على وشك الوصول إلى الحقيقة التي كانت تبحث عنها طوال حياتها.

لكنها كانت تعرف أيضاً أن نادر كان يعرف أنها هنا، وأنه كان يراقبها.

كانت المعركة الحقيقية على وشك البدء.

الفصل الخامس والعشرون:

"الحقيقة لا تهزمك عندما تعرفها... بل عندما تدرك أنها كانت أمامك طوال الوقت."

وقفوا في خرابة المستودع، والصندوق المعدني لا يزال مفتوحاً بين يدي ليلى. كانت الصورة في يدها، والساعة في الأخرى، والشمس تغرب خلف النوافذ المكسورة، مرسلة أشعة برتقالية تخترق الغبار المعلق في الهواء.

نظرت إلى الصورة مجدداً: نادر والمهندس، يقفان معاً، يبتسمان، وكأنهما لم يعرفا أن المستقبل سيفرق بينهما. ثم لاحظت شيئاً لم تنتبه له من قبل. في زاوية الصورة، خلفهما، كان هناك باب حديدي نصف مفتوح، وخلفه ظل شخص. شخص كان يراقبهما.

رفعت الصورة، وأظهرتها لرنا: "انظري هنا. هناك شخص آخر في الصورة. ليس جزءاً منها، لكنه كان هناك."

أخذت رنا الصورة، ونظرت إليها بعينيها المدربتين. ثم قالت: "هذا الظل... إنه ليس ظلاً عادياً. إنه شخص. شخص كان يختبئ خلف الباب."

نظر آدم إلى الصورة، وقال: "إذا كان هناك شخص ثالث في ذلك اليوم، فقد يكون هو المفتاح."

في تلك اللحظة، سمعوا صوتاً خلفهم. صوت خطوات على الدرج الحجري المتآكل. التفت الجميع، ورأوا رجلاً واقفاً عند مدخل الغرفة. رجلاً طويلاً، نحيلاً، يرتدي معطفاً رمادياً، ونظارة داكنة على عينيه.

كان هو. المهندس.

وقف هناك، ينظر إليهم بصمت. ثم قال بصوت هادئ، أجش، كمن لم يتكلم منذ سنوات: "كنتُ أعرف أنكِ ستأتين. كنتُ أنتظر."

تقدمت ليلى خطوة، وقالت: "أنت المهندس. أنت 'م. ن.'"

أومأ الرجل برأسه، ودخل الغرفة ببطء. جلس على كرسي مكسور في الزاوية، ونظر إليهم جميعاً، ثم قال: "نادر كان شريكي. كنا نعمل معاً في شركة 'الأفق الجديد'. لكن الأمر كان أكبر من مجرد شركة. كنا نحاول إخفاء شيء. شيء فعله والد ليلى."

نظرت ليلى إليه بذهول: "والدي؟"

أومأ المهندس: "والدكِ، عبد الرحمن، كان يعمل معنا في البداية. كان يعرف ما يحدث. لكنه قرر الانسحاب. عندما حاولنا إيقافه، هددنا. قال إنه سيفضح كل شيء. نادر قرر أن يوقفه. وقرر أن يجعل ليلى (والدتكِ) تدفع الثمن."

صمتت ليلى، وكانت يداها ترتجفان. قالت: "ماذا كان يخفي والدي؟"

نظر إليها المهندس طويلاً، ثم قال: "كان يخفي حقيقة جدكِ. كان جدكِ ليس مجرد رجل غاضب، بل كان متورطاً في تهريب ساعات قديمة مسروقة من أوروبا. كان يستخدم شركة 'الأفق الجديد' كغطاء. نادر اكتشف ذلك، واستخدمه للسيطرة على عائلتكِ بأكملها."

وقفت ليلى، وشعرت بأن العالم يدور حولها. كل ما عرفته عن عائلتها كان مبنياً على سرّ كبير. جدها لم يكن مجرد رجل غاضب، بل كان متورطاً في شيء خطير. وكان نادر يستخدم هذا السر للسيطرة على الجميع.

قال المهندس: "عندما رفضت والدتكِ الزواج من نادر، قرر أن يدمر كل شيء. هدد بإفشاء السر عن جدكِ. أخبرها أنه سيفعل ذلك إذا لم توافق على ترك عبد الرحمن والعودة إليه. رفضت. فبدأ في تدمير حياتها، خطوة بخطوة. أجبرها على الرحيل، أخاف عبد الرحمن، وجعلكِ تعيشين بدون أمكِ."

صمتت ليلى، وكانت دموعها تتساقط بصمت. قالت: "لكن لماذا أنت؟ لماذا اختفيتَ؟"

نظر إليها المهندس، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الندم: "لأنني كنتُ الشريك الصامت. كنتُ أعرف كل شيء، لكنني لم أتكلم. عندما حاول نادر تدمير كل شيء، قررتُ أن أختفي. كنتُ خائفاً. لكنني تركت هذا الصندوق هنا، لأي شخص يبحث عن الحقيقة. كنتُ أعرف أنكِ ستأتين يوماً."

وقف المهندس، ونظر إلى الصورة في يد ليلى، وقال: "نادر لا يزال على قيد الحياة. وهو لا يزال يحاول السيطرة. لكن هناك شيء واحد يمكنه إيقافه."

"ما هو؟"

نظر إليها المهندس، وقال: "الساعة. الساعة التي وجدتِها في الصندوق. ليست مجرد ساعة عادية. إنها تحتوي على دليل. على تسجيل صوتي قام به جدكِ قبل أن يموت. تسجيل يعترف فيه بكل شيء. نادر كان يبحث عنه طوال السنوات. ولم يجده أبداً."

نظرت ليلى إلى الساعة في يدها، وشعرت بثقلها. كانت تحمل كل شيء. الحقيقة، الدليل، والقوة التي يمكن أن تسقط نادر.

قال المهندس: "افتحيها. هناك زر صغير في الجانب. اضغطي عليه."

فعلت ليلى. سمعت صوتاً خفيفاً، ثم بدأ تسجيل قديم يخرج من الساعة. صوت رجل عجوز، متعب، يعترف بكل شيء: بالتهريب، بالخوف، بالندم، وبأن نادر كان يعرف كل شيء، وأنه كان يستخدم ذلك ضده.

عندما انتهى التسجيل، صمت الجميع. كانت الحقيقة أمامهم.

قال المهندس: "هذا التسجيل هو ما كان يبحث عنه نادر. وهو ما يمكنه إسقاطه إلى الأبد."

نظرت ليلى إلى المهندس، وقالت: "لماذا ساعدتني؟"

ابتسم ابتسامة حزينة، وقال: "لأنني كنتُ أنتظر شخصاً ينهي هذا الكابوس. ولم أجد أحداً سواكِ."

وقفت ليلى، وكانت تعرف ما يجب أن تفعله. كانت ستحمل التسجيل، وستواجه نادر. وكانت ستنهي كل هذا.

خرجت من المستودع، والغروب يلون السماء بالذهبي، وكانت تعرف أن النهاية قريبة.

الفصل السادس والعشرون:

"الحقيقة لا تكلفك شيئاً عندما تجدها... لكنها تكلفك كل شيء عندما تحاول أن تعيش بها."

خرجوا من المستودع تحت سماء الليل الملبدة بالغيوم، وصوت خطواتهم يتردد في الزقاق المهجور. كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً، والرياح الباردة تحمل رائحة المطر القادم. وقفت ليلى للحظة، تنظر إلى الساعة في يدها، وإلى التسجيل الذي غير كل شيء. كانت تعرف أن هذه اللحظة لن تمر دون ثمن.

في الطريق إلى شقة ليلى، كان الصمت ثقيلاً. الجميع كانوا يحاولون استيعاب ما عرفوه. نادر لم يكن مجرد رجل مرفوض، بل كان شخصاً استخدم أسراراً خطيرة لتدمير حياة عائلة بأكملها. وكان جد ليلى ليس مجرد رجل غاضب، بل كان متورطاً في تهريب المسروقات. وكان والدها يعرف كل هذا، واختار الصمت لحماية عائلته.

عندما وصلوا إلى الشقة، جلست ليلى على الأريكة، ووضعت الساعة على الطاولة أمامها. نظرت إلى الجميع، وقالت: "لدينا التسجيل. لدينا الدليل. لكن السؤال هو: ماذا نفعل به؟"

جلس آدم بجانبها، وقال: "يمكننا تسليمه للسلطات. لكن ذلك يعني أن اسم جدكِ سينكشف، واسم والدكِ، وربما اسم أمكِ أيضاً. ستكون الفضيحة كبيرة."

قالت سوسن: "وهذا يعني أن نادر سيسقط أيضاً. لأنه كان يستخدم هذا السر للابتزاز. لكنه قد يهرب قبل أن نتمكن من تقديمه للعدالة."

نظرت رنا إلى الصورة التي كانت لا تزال في يدها، وقالت: "هناك شيء آخر. المهندس قال إن نادر لا يزال يبحث عن التسجيل. هذا يعني أنه يعرف بوجوده. ربما يعرف أننا وجدناه."

نهضت ليلى، وبدأت تمشي في أرجاء الغرفة. كانت تعرف أن الوقت كان ضدهم. نادر كان يعرف أنهم اقتربوا، وكان سيتخذ خطوة. السؤال كان: متى؟ وكيف؟

في تلك اللحظة، رن هاتف يوسف. نظر إلى الشاشة، وتغير لون وجهه. رفع الهاتف إلى أذنه، واستمع بصمت. ثم قال بصوت خافت: "نعم... متى؟... حسناً، سأخبرها."

أغلق الهاتف، ونظر إلى ليلى، وقال: "كانت مكالمة من خالة فاطمة. لقد عادت إلى الدار البيضاء. تريد رؤيتكِ. تقول إنها تعرف مكان نادر، وأنها مستعدة لإخبارك."

صمتت ليلى للحظة، ثم قالت: "أين هي؟"

"في بيتها القديم. تقول إنها ستنتظركِ هناك حتى منتصف الليل."

نظر آدم إلى ليلى، وقال: "قد تكون فخاً. قد يكون نادر هو من دفعها للاتصال."

لكن ليلى هزت رأسها: "خالة فاطمة لن تخونني. لقد ربّتني. إذا قالت إنها تريد مساعدتي، فهي تعني ذلك."

وقف آدم، وقال: "سأأتي معكِ."

نظرت إليه، وأومأت برأسها.

في بيت خالة فاطمة، كان الجو هادئاً ومظلماً. دخلت ليلى، ورأت خالة فاطمة جالسة على الكرسي القديم، ووجهها شاحب، وعيناها منتفختان كأنها لم تنم منذ أيام. وقفت ليلى أمامها، وقالت: "خالة، لماذا رحلتِ؟"

رفعت خالة فاطمة عينيها، وقالت بصوت مرتعش: "لأنني كنتُ أخاف. كنتُ أعرف أن نادر سيعرف أنكِ بدأتِ تبحثين. كنتُ أعرف أنه سيحاول إيقافكِ. فقررتُ أن أبتعد، لأحميكِ من بعيد. لكنني أدركتُ أن هذا ليس صحيحاً. الحماية الحقيقية هي أن تكوني معكِ."

جلست ليلى أمامها، وأمسكت بيديها: "أنا لا ألومكِ. أنا فقط أريد أن أعرف أين هو."

نظرت خالة فاطمة إليها، وقالت: "نادر يعيش في بيت قديم في حي سيدي بليوط. كان يملكه منذ سنوات. لا أحد يعرف أنه هناك. لكنني كنتُ أعرف، لأنني كنتُ أزوره أحياناً، لأطمئن عليه. كان مريضاً، وضعيفاً. لكنه كان لا يزال خطيراً."

وقفت ليلى، وقالت: "سأذهب إليه."

وقفت خالة فاطمة، وقالت: "لا تذهبي وحدكِ. إنه ليس كما يبدو. لديه أسلحة. وهو مستعد لأي شيء."

نظرت ليلى إلى آدم، ثم إلى خالة فاطمة، وقالت: "سأذهب مع آدم. وأنتِ، ابقي هنا. لا تذهبي إلى أي مكان."

خرجت ليلى وآدم من البيت، واتجها إلى حي سيدي بليوط. كان الليل مظلماً، والشوارع فارغة. وصلوا إلى بيت قديم، بابه حديدي، والنوافذ مظلمة. وقفت ليلى أمام الباب، وطرقت.

فتح الباب ببطء، وظهر نادر. كان يرتدي معطفاً أسود، ووجهه متعب، وعيناه تحملان شيئاً من الدهشة، وكأنه لم يتوقع أن تراه. قال بصوت أجش: "ليلى. كنتُ أعرف أنكِ ستأتين. لكنني لم أتوقع أن تأتي بهذه السرعة."

وقفت ليلى أمامه، وقالت: "لقد وجدت التسجيل. أعرف كل شيء. أعرف ما فعلته بأمي، وأبي، وبجدّي. أعرف أنك كنتَ تستخدم أسرارهم للسيطرة عليهم."

نظر إليها نادر، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الندم، لكنه قال: "وما الذي ستغيرينه؟ التسجيل قديم. يمكنني أن أنكره. يمكنني أن أقول إنه مزور."

رفعت ليلى الساعة، وقالت: "لكنني لن أعطيكَ فرصة لإنكاره. سأذهب إلى السلطات. سأعطيهم التسجيل. وسيسقط كل شيء."

ضحك نادر ضحكة جافة، وقال: "وأنتِ؟ أتعتقدين أنهم سيرحمون عائلتكِ؟ سينكشف سر جدكِ. سينكشف أن والدكِ كان يعرف كل شيء. ستصبح عائلتكِ فضيحة."

صمتت ليلى للحظة، ثم قالت: "ربما. لكنني لن أعيش في الظل بعد الآن. سأواجه الحقيقة، مهما كان الثمن."

نظر إليها نادر طويلاً، ثم قال بصوت هادئ: "أنتِ تشبهينها. والدتكِ. نفس العزيمة، نفس العناد. ربما هذا هو السبب الذي جعلني أراقبكِ طوال هذه السنوات. كنتُ أرى فيك شيئاً فقدته."

ثم تراجع خطوة إلى الوراء، وأغلق الباب في وجهها.

وقفت ليلى هناك، في الشارع المظلم، تشعر بأن المعركة لم تنتهِ بعد. كانت تعرف أن نادر سيهرب، وأنها يجب أن تتصرف بسرعة.

قالت بصوت هادئ: "لن نتركه يهرب. سنذهب إلى السلطات الآن."

نظر آدم إليها، وقال: "هل أنتِ متأكدة؟"

أومأت: "نعم. لقد حان الوقت لإنهاء هذا."

الفصل السابع والعشرون:

"ما هو أخطر من عدو يعرف طريقك... صديق يعرف طريقك منذ البداية."

عادت ليلى إلى شقتها في ساعات الصباح الأولى، والغبار لا يزال عالقاً في ثيابها، ورائحة المستودع القديم تلتصق بجلدها. كانت تحمل في جيبها التسجيل الصوتي الذي غيّر كل شيء، وفي يدها ساعة الجيب التي أيقظت الماضي. لكنها لم تشعر بالانتصار. كان هناك ثقل في صدرها، شعور غامض بأن شيئاً ما لا يزال مفقوداً.

جلست على الأريكة، وأغلقت عينيها لحظة. كانت تحاول ترتيب الأفكار: نادر، المهندس، خالة فاطمة، يوسف، الساعة 11:07، التسجيل. الحواف لم تكن متطابقة تماماً.

فتحت عينيها، ونظرت إلى ساعة الجيب. كانت عقاربها متوقفة عند 11:07. رفعت الساعة إلى ضوء النافذة، وقلبتها بين يديها. كان الغطاء الخلفي يحمل حفراً دقيقاً، شبه ممحور. اقتربت منه، ورأت حروفاً صغيرة، بالكاد تُقرأ: "يوسف."

وقف قلبها للحظة. يوسف. عمها. الرجل الذي كان معها منذ البداية، الذي كان يعرف كل شيء، الذي أخبرها أنه كان خائفاً فقط، وأنه لم يكن يعرف كل التفاصيل. لكن الساعة كانت تحمل اسمه. لماذا؟

نهضت، وأخرجت دفتر أمها. كانت تبحث عن أي إشارة، أي كلمة تذكر فيها يوسف. في الصفحات الأخيرة، حيث كانت الكتابة خفيفة ومتعجلة، وجدت جملة لم تنتبه لها من قبل:

"يوسف يعرف أكثر مما يقول. لكنه يخاف. أتمنى أن يسامحني ذات يوم."

جلست ليلى، وشعرت بأن الأرض تهتز تحتها. يوسف كان يعرف. كان يعرف كل شيء، أو على الأقل جزءاً كبيراً منه. وكان يخفي ذلك عنها.

اتصلت به، وقالت بصوت هادئ: "يوسف، أحتاج إلى رؤيتك. الآن. في مقهى 'أوراق'."

عندما وصلت إلى المقهى، كان يوسف جالساً في الزاوية البعيدة، تحت الساعة المتوقفة. كان وجهه شاحباً، وعيناه تبدوان منتفختين. جلست أمامه، ووضعت ساعة الجيب على الطاولة بينهما.

قالت: "هذه الساعة تحمل اسمك. لماذا؟"

نظر إلى الساعة، وصمت طويلاً. ثم قال بصوت خافت، مرتعش: "لأنها كانت هدية مني لأمكِ. قبل أن تختفي. أخبرتها أن تحتفظ بها، وأن تعيدها إليّ يوماً ما، عندما ينتهي كل شيء."

"ماذا كنتَ تعني بـ'ينتهي كل شيء'؟"

رفع عينيه إليها، وكانت دموعه تتساقط: "كنتُ أعرف أن نادر كان يهددها. كنتُ أعرف كل شيء. كنتُ أعرف أن جدكِ كان متورطاً في التهريب، وأن نادر كان يستخدم ذلك ضده. كنتُ أعرف أن أمكِ كانت خائفة. لكنني كنتُ خائفاً أيضاً. كنتُ أخاف أن أخبركِ، لأنني كنتُ أعرف أنكِ ستبحثين، وأنكِ ستضعين نفسكِ في خطر."

وقفت ليلى، وشعرت بالغضب يتصاعد في صدرها: "لقد تركتني أعيش بدون أمي طوال هذه السنوات، لأنك كنتَ خائفاً؟"

نظر إليها يوسف، وقال بصوت مكسور: "لستُ وحدي من أخفى الحقيقة. خالة فاطمة كانت تعرف. مصطفى كان يعرف. حتى رشيد كان يعرف. كلنا كنا خائفين. كلنا اخترنا الصمت. لأننا كنا نعتقد أننا نحميكِ."

جلست ليلى مجدداً، وشعرت بأن العالم من حولها يتغير. كل من وثقت بهم كانوا يعرفون الحقيقة، وكلهم اختاروا إخفاءها. كانت تشعر بالخيانة، لكنها كانت تشعر أيضاً بشيء آخر: أنها لم تكن وحدها. كانوا جميعاً يحاولون حمايتها، بطريقتهم الخاطئة.

قالت بصوت هادئ: "يوسف، أنا لا ألومك. لكني بحاجة إلى معرفة كل شيء. كل ما تعرفه. لا تخفِ ما اي شيئ"

نظر إليها يوسف، وقال: "نادر لم يكن يعمل وحده. كان لديه شريك. شخص كان يعرف كل شيء عن عائلتنا، وكان يستخدم تلك المعلومات لصالحه."

"من هو؟"

نظر إليها يوسف طويلاً، ثم قال: "لا أعرف اسمه. لكني أعرف أنه كان قريباً من العائلة. كان يزورنا كثيراً. وكانت أمي تخاف منه. كانت تقول لي دائماً: 'ابتعد عن هذا الرجل. إنه ليس كما يبدو.'"

صمتت ليلى، وكانت تحاول أن تتذكر أي رجل كان يزورهم في طفولتها. ثم تذكرت شيئاً. رجلاً طويلاً، نحيلاً، يرتدي نظارة داكنة. كان يزورهم أحياناً، ويجلس مع والدتها في غرفة المعيشة، ويتحدثان بصوت منخفض. كانت تدخل أحياناً، وكان يبتسم لها، لكن عينيه كانتا باردتين.

قالت بصوت خافت: "المهندس. كان يزورنا. كان يعرف كل شيء."

أومأ يوسف: "نعم. كان المهندس هو الرابط بين نادر وعائلتنا. كان يعرف أسرار الجميع."

وقفت ليلى، وقالت: "إذا كان المهندس يعرف كل شيء، فهو المفتاح لمعرفة الحقيقة الكاملة. يجب أن نجده."

قال يوسف: "لكن المهندس اختفى. لا أحد يعرف أين هو."

نظرت ليلى إلى الساعة في يدها، ثم إلى يوسف، وقالت: "ربما لا يكون قد اختفى. ربما هو أقرب مما نتصور."

وقفت، وتركت المقهى.

الفصل الثامن والعشرون:

"في بعض الأحيان، يكون الطريق إلى الحقيقة ممهداً بأشياء ظنناها عابرة."

كان الضوء الصباحي يتسلل من نافذة قاعة المحاضرات. جلست ليلى في صفها الخلفي، تحاول أن تركز على كلمات الدكتور رشيد الذي كان يشرح نظرية "الاختيار العقلاني في الأسواق غير المستقرة". لكن عقلها كان في مكان آخر: في التسجيل الصوتي، في اعتراف يوسف، في صورة المهندس التي لا تفارق ذاكرتها.

انتهت المحاضرة، وهمت بالخروج عندما ناداها الدكتور رشيد: "ليلى، تفضلي لحظة."

توجهت نحو مكتبه، وكان ينظر إليها من فوق نظارته. قال: "لاحظت أن حضورك أصبح متقطعاً، ومشروعك الجماعي لم يقدم أي تقدم ملحوظ. أعلم أن لديك ظروفاً خاصة، لكن موعد التسليم النهائي يقترب. الأسبوع القادم يجب أن يكون لديكم عرض أولي، وإلا ستتعرضون للخصم."

تنهدت ليلى، وأومأت برأسها: "سأعتني بالأمر، أستاذ."

خرجت من القاعة، واتجهت إلى الفناء حيث كان آدم ينتظرها. نظر إليها، وقال: "لقد سمعت. المشروع يقترب موعده."

جلست على المقعد الحجري تحت شجرة التين، وقالت: "لا يمكننا التوقف عن التحقيق، لكن لا يمكننا أيضاً أن نفشل في المشروع. نحتاج إلى طريقة تجمع بين الاثنين."

جلس آدم بجانبها، وفكر للحظة: "ماذا لو استخدمنا المشروع كغطاء للبحث؟ المشروع عن الزمن والانتظار في المدينة. هذا يمكن أن يقودنا إلى أرشيف البلدية، أو إلى سجلات عمرانية، أو إلى أي شيء يربط بشركة 'الأفق الجديد'."

نظرت إليه، وابتسمت: "هذه فكرة جيدة."

في شقة ليلى، اجتمع الفريق مجدداً: ليلى، آدم، سوسن، رنا، ويوسف. كانت الطاولة مغطاة بالأدلة القديمة، لكن هذه المرة كان هناك أيضاً جهاز حاسوب محمول مفتوح على وثائق المشروع الجامعي.

قالت ليلى: "لدينا أسبوع لتقديم عرض أولي عن مشروعنا. المشروع عن 'الزمن والانتظار في المدينة'. هذا يمكن أن يكون الفرصة المثالية للبحث في سجلات المدينة، والأرشيف، والخرائط القديمة. ربما نجد شيئاً يربط بشركة 'الأفق الجديد' أو بالساعة 11:07."

قالت سوسن، التي كانت تحدق في شاشتها: "لقد بدأت بالفعل بالبحث في السجلات العمرانية للدار البيضاء في التسعينات. هناك مشروع كبير كان يُخطط له في منطقة قريبة من البيت القديم. المشروع كان يسمى 'المدينة الجديدة'، وكان من المفترض أن يغير وجه المنطقة. لكنه توقف فجأة عام 1998."

رفعت رنا عينيها عن دفتر رسمها: "1998. نفس العام الذي اختفى فيه المهندس، ونفس العام الذي غادرت فيه أم ليلى."

قال آدم: "ربما المشروع العمراني والشركة مرتبطان. ربما 'الأفق الجديد' كانت واجهة لمشروع أكبر."

وقفت ليلى، وبدأت تمشي في الغرفة: "إذا كان المشروع العمراني مرتبطاً، فهذا يعني أن هناك وثائق، خرائط، تصاريح، اجتماعات. كلها مسجلة في أرشيف البلدية أو في وزارة التعمير."

نظرت سوسن إلى شاشتها: "لقد وجدت شيئاً. في أرشيف البلدية، هناك ملف عن 'المدينة الجديدة'. الملف مسجل باسم مهندس معماري. اسمه... 'م. ن.'"

ساد صمت في الغرفة. نظر الجميع إلى بعضهم البعض. المهندس. كان مهندساً معمارياً فعلاً، وكان يعمل على مشروع "المدينة الجديدة". وهذا يفسر لقبه.

قالت ليلى: "إذا كان المهندس يعمل على هذا المشروع، فهذا يعني أنه كان يعرف كل شيء عن المنطقة، عن البيت القديم، عن الشركة. ربما هذا هو السبب الذي جعله يختفي. ربما كان يعرف الكثير، وكان يشكل خطراً على نادر."

نهض آدم، وقال: "يجب أن نذهب إلى أرشيف البلدية. نحتاج إلى رؤية هذا الملف."

في أرشيف البلدية، كانت القاعة مزدحمة بالرفوف والملفات الصفراء. جلسوا حول طاولة كبيرة، وبين أيديهم ملف ضخم يحمل عنوان "المدينة الجديدة

مشروع التطوير العمراني

1995-1998".

فتحت ليلى الملف، وبدأت تقلب الصفحات ببطء. كانت هناك خرائط، تصاميم، رسوم معمارية، ومحاضر اجتماعات. في أحد المحاضر، كان هناك توقيع مألوف: "ن. الصباحي". نادر كان جزءاً من المشروع أيضاً.

ثم وجدت شيئاً آخر: صورة فوتوغرافية للمشروع، التُقطت في عام 1997. في الصورة، كان هناك مجموعة من المهندسين والمستثمرين يقفون أمام موقع المشروع. وقفت ليلى، وبدأت تنظر إلى الوجوه.

ثم توقفت.

في الصف الخلفي، كان هناك وجه مألوف. وجه رجل طويل، نحيل، يرتدي نظارة داكنة. كان المهندس. كان واقفاً هناك، ينظر إلى الكاميرا، وكأنه يعرف أن صورته ستُرى بعد سنوات.

لكن إلى جانبه، كان هناك وجه آخر. وجه رجل في الأربعينيات، يرتدي بدلة أنيقة، وابتسامة خفيفة على شفتيه. وجه كان مألوفاً بشكل غريب. نظرت إليه طويلاً، ثم أدركت من هو.

كان الدكتور رشيد. أستاذها في الجامعة.

وقفت ليلى، وشعرت بأن العالم يتوقف حولها. الدكتور رشيد، أستاذ الاقتصاد، الذي كان يدرّسها، الذي ناقشها في المحاضرات، كان جزءاً من مشروع "المدينة الجديدة". كان يعرف المهندس. كان يعرف نادر. وربما كان يعرف كل شيء.

نظرت إلى الجميع، وقالت بصوت خافت: "الدكتور رشيد. إنه في الصورة. إنه جزء من هذا."

جلس الجميع في صمت. كانوا يحاولون استيعاب المعنى. أستاذهم، الشخص الذي كان يوجههم أكاديمياً، كان مرتبطاً بكل هذا.

قال آدم: "إذا كان الدكتور رشيد جزءاً من المشروع، فهو يعرف المهندس. وربما يعرف مكانه."

قالت سوسن: "لكن لماذا لم يخبرنا؟ لماذا لم يقل أي شيء؟"

نظرت ليلى إلى الصورة مجدداً، وقالت: "ربما لأنه كان يحمي نفسه. أو ربما لأنه كان يحمينا."

أغلقت الملف، ونهضت، وقالت: "يجب أن أواجهه. غداً. في الجامعة."

خرجوا من أرشيف البلدية، وكانت الشمس قد بدأت تغرب، تاركة أثراً ذهبياً على جدران المدينة القديمة. وقفت ليلى هناك، تشعر بأن الحقيقة أصبحت أقرب مما كانت تتخيل، لكنها كانت أيضاً أكثر تعقيداً.

كانت تعرف أنها ستواجه الدكتور رشيد غداً. وكانت تعرف أن هذا سيكون أحد أصعب اللقاءات في حياتها.

الفصل التاسع والعشرون:

"ليس السؤال من يقف خلف الأسرار... بل من جعلها اسرارا."

كان صباح الجامعة بارداً، والضباب الخفيف يغطي الفناء الداخلي، محولاً أشجار التين إلى كائنات شبحية تتراقص في الرياح. وقفت ليلى أمام مبنى كلية الاقتصاد، وكان قلبها ينبض بسرعة لم تكن تعرف إن كانت من البرد أم من الخوف. كانت على وشك مواجهة الدكتور رشيد، وكانت تعرف أن هذه المواجهة ستغير كل شيء.

دخلت المبنى، وصعدت الدرج إلى مكتبه في الطابق الثاني. طرقت الباب، وسمعت صوته يقول: "تفضلي."

فتحت الباب، ودخلت. كان الدكتور رشيد جالساً خلف مكتبه، ينظر إليها من فوق نظارته. بدا هادئاً، لكن عينيه كانتا تحملان شيئاً من الحذر، كمن يعرف أن هذه الزيارة ليست عادية. جلست أمامه، وأخرجت الصورة التي التقطتها من أرشيف البلدية: صورة مشروع "المدينة الجديدة"، حيث كان يقف مع المهندس ونادر.

وضعت الصورة على مكتبه، وقالت: "أريد أن تتحدث معي عن هذه الصورة، أستاذ."

نظر إلى الصورة، وصمت طويلاً. ثم رفع عينيه إليها، وقال: "أين وجدتِ هذه؟"

"في أرشيف البلدية. كنتُ أبحث عن معلومات عن مشروع 'المدينة الجديدة'. وجدت هذا الملف. ووجدت صورتك."

تنهد الدكتور رشيد، وأزال نظارته، ووضعها على المكتب. بدا فجأة أكبر سناً، أكثر تعباً. قال: "لقد كنتُ أعرف أن هذا اليوم سيأتي. كنتُ أعرف أنكِ ستجدين طريقكِ إلى هنا."

"إذن أنت تعرف من أنا. وأنت تعرف ما أبحث عنه."

أومأ: "أعرف كل شيء عنكِ، ليلى. أعرف من هم والديكِ. أعرف ماذا حدث لهم. أعرف عن نادر، وعن المهندس، وعن شركة 'الأفق الجديد'. كنتُ أعرف كل هذا، لأنني كنتُ جزءاً منه."

وقفت ليلى، وشعرت بالغضب يتصاعد في صدرها: "كنتَ جزءاً منه؟ ماذا تقصد؟"

نظر إليها، وقال: "كنتُ مستشاراً اقتصادياً للمشروع. كنتُ أعرف أن هناك أموراً غير قانونية تحدث، لكنني لم أستطع التدخل. كنتُ خائفاً. وحين بدأت الأمور تتفاقم، حاولت الابتعاد. لكنني لم أنجح تماماً."

جلست ليلى مجدداً، وحاولت أن تهدأ: "هل تعرف أين المهندس الآن؟"

نظر إليها رشيد، وكانت عيناه تحملان شيئاً من التردد: "المهندس... كان صديقي. كنا نعمل معاً على المشروع. عندما بدأ نادر في تدمير كل شيء، حاول المهندس إيقافه. لكن نادر كان أقوى. كان لديه حلفاء. أشخاص كانوا يحمونه."

"من؟"

نظر إليها رشيد طويلاً، ثم قال: "لا أعرف أسماءهم كلها. لكني أعرف أن هناك شخصاً واحداً كان يحمي نادر منذ البداية. شخصاً كان يعرف كل شيء، وكان يضمن أن تبقى الأمور مخفية."

"من هو؟"

"لا أعرف اسمه الحقيقي. لكنه كان يستخدم لقباً: 'الحارس'. كان هو من كان يفتح رسائل والدكِ، ويعترض اتصالات أمكِ، ويقرر متى ترين ومتى لا ترين. كان هو الحلقة الأقوى في السلسلة."

صمتت ليلى، وكانت تحاول استيعاب ما قاله. كان هناك شخص آخر، شخص أقوى من نادر، كان يتحكم في كل شيء من الخلف. وهذا الشخص لا يزال على قيد الحياة. وهذا الشخص ربما كان يعرف أنها هنا، وأنها تقترب.

قالت بصوت هادئ: "لماذا تخبرني بكل هذا الآن؟"

نظر إليها رشيد، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الندم: "لأن الوقت قد حان. لأنني سئمت من الكذب. ولأنني أعتقد أنكِ الوحيدة القادرة على إنهاء هذا."

وقفت ليلى، وقالت: "شكراً لكِ، أستاذ. لكنني أحتاج إلى دليل. دليل يمكنني استخدامه."

نظر إليها رشيد، وفتح درج مكتبه، وأخرج ملفاً قديماً، وضعه على الطاولة: "هذا ملف كامل عن مشروع 'المدينة الجديدة'. يحتوي على كل شيء: العقود، الاجتماعات، الأسماء، التواقيع. كل ما تحتاجين إليه لإثبات ما حدث."

أخذت ليلى الملف، ونظرت إليه، ثم إلى رشيد، وقالت: "لماذا لم تفعل شيئاً كل هذه السنوات؟"

نظر إليها، وقال: "لأنني كنتُ خائفاً. لكنني لم أعد كذلك."

خرجت ليلى من المكتب، وكان الملف بين يديها، وهي تشعر بأن الحقيقة أصبحت أخيراً ملموسة. عادت إلى شقتها، حيث كان الفريق ينتظرها. وضعت الملف على الطاولة، وقالت: "لدينا الآن دليل ملموس. لدينا أسماء، تواقيع، عقود. كل شيء."

نظر آدم إلى الملف، ثم إليها، وقال: "هل هذا يعني أننا نستطيع إيقافهم؟"

نظرت إليه، وقالت: "هذا يعني أننا نستطيع أن نبدأ."

الفصل الثلاثون:

"ليس كل من يحمل المفتاح هو صاحب الباب. في بعض الأحيان، يكون المفتاح نفسه شخص آخر."

جلس الفريق حول طاولة شقة ليلى، وكان الملف الذي حصلت عليه من الدكتور رشيد مفتوحاً في المنتصف، محتوياً على عشرات الصفحات، الخرائط، والعقود التي تعود إلى ما يقرب من ثلاثة عقود. كانت الستائر مسدلة، والمصباح الخافت يلقي بظلاله على وجوههم المتعبة.

قالت ليلى، وهي تضع أصابعها على الجدول الزمني الذي رسمته على ورق كبير: "لدينا الآن تواريخ دقيقة. لنبدأ من البداية."

نظرت سوسن إلى شاشتها، وبدأت تقرأ: "1995: تأسست شركة 'الأفق الجديد'، وكان نادر الصباحي والمهندس الشريكان الرئيسيان. في نفس العام، بدأ مشروع 'المدينة الجديدة'، وكان الدكتور رشيد مستشاراً اقتصادياً."

أشار آدم إلى ورقة أخرى: "لكن المشروع توقف عام 1998. نفس العام الذي اختفى فيه المهندس، وغادرت فيه أم ليلى."

قالت رنا، وكانت تنظر إلى الصور القديمة: "لاحظت شيئاً. في جميع الصور التي لدينا، نادر يقف في المنتصف، والمهندس إلى جانبه. لكن هناك شخصاً آخر كان يظهر في الخلفية، في بعض الصور فقط. شخصاً لم ننتبه له من قبل."

أخرجت صورة كانت قد كبرتها على حاسوبها، وأشارت إلى ظل في الزاوية البعيدة: "هذا الشخص لم يكن جزءاً من المشروع رسمياً، لكنه كان حاضراً في العديد من الاجتماعات. ومن خلال سجلات الحضور التي وجدتها سوسن، يبدو أنه كان يوقع كـ"شاهد" على بعض العقود."

اقتربت ليلى من الشاشة، ونظرت إلى الظل الغامض. قالت: "من هذا؟"

نظرت سوسن إلى سجلاتها: "لا يوجد اسم كامل. فقط حرفان: 'ر. ع'، لكنه يظهر في عدة وثائق كشاهد أو معتمد."

جلس الجميع في صمت، يحاولون ربط الخيوط. ثم قال يوسف، بصوت خافت، وكأنه يستعيد ذكرى بعيدة: "ر. ع... ربما أعرف من هذا."

نظر الجميع إليه. تابع: "عندما كنت صغيراً، كان هناك رجل يزور والديّ أحياناً. كانوا ينادونه بـ'الأستاذ'. كان طويلاً، يرتدي بدلات أنيقة، ويحمل حقيبة جلدية."

قالت ليلى: "وماذا كان اسمه؟"

هز يوسف رأسه: "لا أتذكر. لكني أتذكر أنه كان يتحدث مع والديّ عن أمور مهمة. وذات مرة، سمعت والدي يقول لأمي: 'الأستاذ هو من يقرر كل شيء. ليس لدينا خيار.'"

رفع آدم عينيه عن الوثائق، وقال: "هذا يغيّر كل شيء. إذا كان هناك شخص فوق نادر، شخص كان يتحكم في القرارات، فهذا يعني أن نادر لم يكن سوى منفذ."

نهضت ليلى، وبدأت تمشي في أرجاء الغرفة. كانت تحاول ترتيب الصورة في رأسها: نادر كان أداة، و"الأستاذ" هو العقل المدبر. وكان "الأستاذ" هو من كان يحمي نادر، ويضمن أن تبقى الأسرار مخفية.

توقفت، وقالت: "إذا كان 'الأستاذ' هو من كان يتحكم في كل شيء، فهو الشخص الذي يجب أن نبحث عنه. ليس نادر."

نظر آدم إليها، وقال: "لكن كيف نجد شخصاً لا نعرف اسمه ولا شكله؟"

نظرت سوسن إلى شاشتها، وقالت: "ربما هناك طريقة. في سجلات شركة 'الأفق الجديد'، هناك إشارة إلى 'مستشار خارجي' كان يوقع على بعض القرارات الرئيسية. لم يُذكر اسمه، لكن هناك رقم هاتف قديم. ربما ما زال مسجلاً."

قالت ليلى: "اتصلي به."

ترددت سوسن: "قد لا يعمل. قد يكون قديماً."

"لكن ربما يعمل. وربما يقودنا إلى شيء."

اتصلت سوسن بالرقم، ووضعت الهاتف على مكبر الصوت. سمعوا نغمة رنين طويلة. ثم، فجأة، انقطع الاتصال. لم يجب أحد.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض. ثم قال آدم: "ربما هذا تأكيد. ربما الرقم لا يزال مستخدماً، لكن الشخص لا يريد الرد."

جلست ليلى، وقالت: "هذا يعني أن هناك من لا يزال يراقب. شخصاً يعرف أننا نقترب."

في تلك اللحظة، سمعوا صوتاً خفيفاً من الخارج: صوت خطوات في الممر، ثم توقف عند باب الشقة. وقف الجميع، ونظروا إلى الباب.

طرق أحدهم برفق.

ساد صمت طويل. ثم تحركت ليلى ببطء نحو الباب، وفتحته.

كان هناك رجل واقفاً هناك. رجل كبير في السن، يرتدي معطفاً رمادياً، ويحمل في يده ظرف أبيض. نظر إليها، وقال بصوت هادئ: "ليلى؟"

أومأت.

قال: "هذا لك. من شخص يريد أن يظل مجهولاً."

أعطاها الظرف، ثم استدار ومشى بسرعة، واختفى في نهاية الممر.

أغلقت ليلى الباب، ووقفت هناك، تنظر إلى الظرف في يدها. كان أبيض، بسيطاً، دون أي عنوان أو اسم. فتحته ببطء، وأخرجت ورقة واحدة مكتوب عليها بخط يد أنيق:

"إذا كنتِ تريدين معرفة الحقيقة كاملة، تعالي إلى البيت القديم غداً عند منتصف النهار. وحدكِ. لا تخبري أحداً. سأكون هناك."

لم يكن هناك توقيع. لكنها عرفت من كتبها.

نظرت إلى الفريق، وقالت: "إنه من 'الأستاذ'. إنه يريد رؤيتي."
قال آدم، وهو يقترب منها: "لا تذهبي وحدكِ. قد يكون فخاً."
نظرت إليه، وقالت: "ربما. لكن هذه فرصتي الوحيدة لمعرفة الحقيقة كاملة."

و الظرف في يدها يخبرها بان القادم مختلف

ثمن الحقيقة

الفصل الحادي والثلاثون:

"كل قصة لها بداية... لكن ليست كل بداية هي السبب الحقيقي."

كان صباح اليوم التالي بارداً، والسماء كمن وعدت بمطر لم يأتِ بعد. وقفت ليلى أمام البيت القديم في الزقاق، و الظرف الأبيض في جيبها، وقلبها ينبض بإيقاع متسارع. كانت وحدها، كما طُلب منها، لكنها لم تكن تشعر بالوحدة. كانت تشعر بأن كل السنوات التي قضتها في البحث كانت تقودها إلى هذه اللحظة.

دفعت الباب الخشبي، ودخلت الفناء. كان المكان كما تركته، لكن الهواء كان مختلفاً، أكثر كثافة، وكأنه يحمل أنفاساً من الماضي. مشت عبر الفناء، ودخلت الغرفة الرئيسية، حيث كانت تجلس على كرسي قديم امرأة لم تكن تتوقع رؤيتها.

خالة فاطمة.

وقفت ليلى، وشعرت بالذهول يتسلل إلى صدرها. قالت: "أنتِ؟ أنتِ من كتبتِ الرسالة؟"

رفعت خالة فاطمة عينيها، وكانت عيناها حمراوين، وكأنها لم تنم منذ أيام. قالت بصوت خافت: "لا يا ابنتي. أنا لم أكتبها. لكنني كنتُ أعرف من كتبها. وكنتُ أعرف أنكِ ستأتين إلى هنا."

جلست ليلى أمامها، وقالت: "من؟ ومن هو 'الأستاذ'؟"

نظرت خالة فاطمة إلى الأرض لحظة، ثم رفعت عينيها: "الأستاذ هو أخي. أخي الأكبر."

صمتت ليلى، وشعرت بأن الزمن يتوقف. كانت تحاول أن تستوعب ما قالته. خالة فاطمة لم تكن مجرد امرأة ربّتها، بل كانت أخت "الأستاذ". كان الرجل الذي يتحكم في كل شيء، والذي كان يحمي نادر، هو أخوها.

قالت بصوت يرتجف: "لماذا؟ لماذا فعل كل هذا؟"

تنهدت خالة فاطمة، وبدأت تروي: "كان أخي يعمل في التجارة. كان لديه شركة كبيرة، وكان نادر شريكاً له في بعض المشاريع. عندما اكتشف نادر أن أخي كان متورطاً في أمور غير قانونية، استغل ذلك للسيطرة عليه. أخي كان خائفاً، خائفاً من أن يفقد كل شيء. فوافق على حماية نادر، وعلى إخفاء الحقيقة عن الجميع."

وقفت ليلى، وبدأت تمشي في أرجاء الغرفة، تحاول أن تتنفس. كانت الحقيقة تتكشف أمامها، لكنها كانت أكثر تعقيداً مما توقعت. لم يكن نادر هو العقل المدبر، بل كان شخصاً آخر، شخصاً كان قريباً منها طوال حياتها، دون أن تعرف.

قالت: "لكن لماذا أمي؟ لماذا أبي؟ لماذا كل هذا الألم؟"

نظرت خالة فاطمة إليها بعينين حزينتين: "لأنهم عرفوا الحقيقة. والدكِ اكتشف ما كان يحدث، وحاول إيقافه. فأصبح هدفاً. والدتكِ حاولت حمايته، فدفعت الثمن. ونادر استغل خوف أخي لتنفيذ خطته."

جلست ليلى، وشعرت بأن جسدها يثقل. كانت تعرف الآن أن القصة لم تكن عن نادر فقط، بل عن شبكة من الخوف والابتزاز والخيانة. وكانت خالة فاطمة جزءاً منها، حتى لو كانت ضحية أيضاً.

قالت: "وأنتِ؟ لماذا لم تخبريني؟"

نظرت إليها خالة فاطمة، وكانت دموعها تتساقط: "لأنني كنتُ خائفة. كنتُ خائفة أن تفقدي كل شيء، كما فقدت أنا. كنتُ أظن أنني أحميكِ بإخفاء الحقيقة. لكنني أدركتُ الآن أنني كنتُ مخطئة."

صمتت ليلى، وهي تنظر إلى خالة فاطمة، إلى المرأة التي ربّتها، التي كانت أمها الثانية. كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تغضب منها، لأنها كانت تفهم خوفها. كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تسامحها، لأن الألم كان عميقاً جداً.

قالت بصوت هادئ: "أنا لا أعرف إن كنتُ سأتمكن من مسامحتكِ. لكني أعرف أنني لا أريد أن أعيش في الظل بعد الآن. أريد أن أعرف الحقيقة كاملة."

نظرت خالة فاطمة إليها، وقالت: "الحقيقة الكاملة موجودة في هذا البيت. في الغرفة التي في نهاية الممر. هناك صندوق آخر، يحتوي على كل شيء: رسائل، وثائق، تسجيلات. كل ما تحتاجين إليه."

وقفت ليلى، ومشت إلى نهاية الممر، حيث كان باب صغير، مغلقاً بقفل قديم. مدت يدها إلى جيبها، وأخرجت المفتاح النحاسي الذي كان معها طوال الوقت. أدخلته في القفل، وأدارته.

فتح الباب.

كانت الغرفة صغيرة، مليئة بالغبار، وفي وسطها صندوق خشبي كبير. جثت على ركبتيها، وفتحت الصندوق. كان بداخله كومة من الأظرف، والصور، والدفاتر، والتسجيلات. أخذت أحد الأظرف، وفتحته، وقرأت.

كانت رسالة من والدتها، مكتوبة قبل أن تغادر:

"ليلى العزيزة،

إذا كنتِ تقرئين هذا، فأنا آسفة. آسفة لأنني لم أستطع أن أكون معكِ. آسفة لأنني اخترت الرحيل. لكنني لم أختره لأنني أردتُ ذلك. اخترته لأنني كنتُ أحاول حمايتكِ.

نادر كان يهددني. كان يهدد أن يؤذيكِ إن لم أغادر. وكان أخو خالة فاطمة يحميه. كانوا جميعاً خائفين من بعضهم البعض، وكانوا جميعاً يخافون من أن تنكشف الحقيقة.

أنا لم أتركِ لأنني توقفت عن حبكِ. تركتكِ لأنني أحببتكِ أكثر من أي شيء.

سامحيني.

أمكِ."

أغلقت ليلى الرسالة، وكانت دموعها تتساقط على الورق. كانت تعرف الآن أن والدتها لم تختر الرحيل، بل اضطرت إليه. كانت تعرف أن والدها لم يتخلَّ عنها، بل كان يحاول حمايتها. وكانت تعرف أن كل من حولها كانوا خائفين، وكانوا جميعاً يحاولون حماية شيء ما.

وقفت، ونظرت إلى الصندوق، وإلى خالة فاطمة التي كانت تقف عند الباب، تنظر إليها بصمت. قالت: "شكراً لكِ."

خرجت من البيت، وكانت السماء قد بدأت تمطر، قطرات خفيفة تلامس وجهها. وقفت هناك، تشعر بأنها أصبحت أخيراً تعرف الحقيقة. كانت تعرف أن الطريق لم ينتهِ بعد، لكنها كانت تعرف أيضاً أنها لم تعد وحدها.

كانت تحمل الحقيقة في قلبها، وكانت مستعدة لمواجهة كل شيء.

ا

لفصل الثاني والثلاثون:

"لم تكن تهرب مني. كانت تحاول أن تمنحني الوقت الذي لم يكن لديها."

جلسوا في شقة ليلى معًا، والأدلة القديمة والجديدة متناثرة على الطاولة. كانت سوسن قد أحضرت حاسوبها المحمول، ورنا تحمل دفتر رسمها، ويوسف وآدم يقرآن الوثائق بصمت. في وسط الطاولة، كان الصندوق الخشبي الذي عثرت عليه ليلى في البيت القديم مفتوحًا، ومحتوياته موزعة بينهم.

كان ليلى قد أخبرتهم كل شيء: لقاءها بوالدتها في مراكش، كلماتها، دفء يديها، ثم رحلة مصطفى التي أخبرها أن أمها ماتت منذ سنوات. الآن كانوا يحاولون حل هذا التناقض.

قال آدم، وهو يضع أصابعه على مجموعة من الوثائق الطبية التي وجدوها في الصندوق: "لقد وجدت شيئًا. هناك سجل من مستشفى في مراكش، يعود تاريخه إلى... بعد لقائكِ بأمكِ بثلاثة أسابيع."

رفعت ليلى عينيها، ونظرت إلى الوثيقة. كانت شهادة وفاة. مؤرخة بعد ثلاثة أسابيع من لقائها بأمها. كانت الأم قد عاشت بعد اللقاء، لكنها توفيت بعد ذلك بفترة قصيرة.

قالت سوسن، وهي تنظر إلى شاشتها: "هذا يفسر كل شيء. مصطفى لم يكن يكذب. هو كان يعرف أنها عاشت في البيت فترة، ثم غادرت إلى مراكش. لكنه لم يكن يعلم أنها توفيت هناك. ربما انقطعت أخبارها عنه، أو أنه لم يرغب في معرفة المزيد."

قرأت ليلى الوثيقة مرارًا، وشعرت بأن الدموع تتساقط على خديها. كانت أمها قد عاشت بعد اللقاء، لكنها كانت تعرف أنها لن تعيش طويلًا. كانت تحاول أن تمنحها لحظة أخيرة من الحقيقة، من الحب، قبل أن ترحل.

قالت بصوت خافت: "لقد جاءت لتودعني. كانت تعرف أنها ستموت، وأرادت أن تراني مرة أخيرة قبل أن ترحل."

جلس آدم بجانبها، وقال: "لقد أعطتكِ هدية. ليست مجرد لقاء، بل فرصة لتقولي لها وداعًا، حتى لو لم تكوني تعرفين أنه وداع."

صمتت الغرفة، وكل شخص يحاول استيعاب المعنى. كانت الأم قد اختارت أن تلتقي بابنتها في لحظة ضعفها الأخيرة، لمنحها السلام الذي لم تستطع منحه طوال السنوات الماضية.

ثم قال يوسف، وهو ينظر إلى صورة قديمة وجدها في الصندوق: "هناك شيء آخر. هذه الصورة... التُقطت في نفس المستشفى. والدتكِ كانت تحمل شيئًا في يدها."

نظرت ليلى إلى الصورة. كانت أمها جالسة على سرير المستشفى، مبتسمة، وتحمل في يدها ساعة الجيب الصغيرة نفسها، التي وجدتها ليلى لاحقًا. كانت الساعة متوقفة عند 11:07.

قال آدم: "لقد كانت تحمل الساعة معها حتى النهاية. وكأنها كانت تريد أن تذكركِ بأن الزمن توقف عند تلك اللحظة، لكن الحياة استمرت."

وقفت ليلى، وأخذت الساعة من الطاولة، ونظرت إليها طويلًا. كانت تعرف الآن أن أمها لم تتركها أبدًا. كانت معها طوال الوقت، حتى عندما كانت بعيدة.

قالت بصوت هادئ: "لم تكن تهرب مني... كانت تحاول أن تمنحني وقتًا أعيش فيه بعيدًا عن ماضيها."

نظرت إلى الفريق، وقالت: "شكرًا لكم. لولا مساعدتكم، لما عرفت كل هذا."

نهض آدم، وقال: "نحن معكِ حتى النهاية."

في تلك اللحظة، لاحظت رنا شيئًا في زاوية الصندوق. كانت ورقة صغيرة، مطوية، ومكتوب عليها بخط خافت:

"إذا وجدتِ هذا، فقد حان الوقت لمواجهة من كان وراء كل شيء. إنه ليس نادرً. إنه من كان يتحكم في نادر. ابحثي عن الرجل الذي كان يزور بيت خالة فاطمة كل خميس."

رفعت ليلى الورقة، ونظرت إلى خالة فاطمة، التي كانت جالسة في الزاوية. قالت: "خالة، من كان يزوركِ كل خميس؟"

نظرت خالة فاطمة إلى الأرض، ثم رفعت عينيها، وقالت: "كان أخي يأتي كل خميس. كان يريد أن يتأكد من أن كل شيء لا يزال تحت السيطرة. كان يخاف أن تعرفي الحقيقة."

وقفت ليلى، وقالت: "أخوكِ. الأستاذ. هو من كان يتحكم في كل شيء."

أومأت خالة فاطمة بصمت.

قالت ليلى، وهي تنظر إلى الورقة: "حان الوقت لمواجهته."

الفصل الثالث والثلاثون:

"أخطر ما في الشر أنه نادراً ما يرى نفسه كذلك."

كان صباح الخميس، والهواء في شقة ليلى كثيفاً بالترقب. وقف الفريق حول الطاولة، والأدلة متناثرة أمامهم، والخريطة التي رسمتها سوسن لتحركات خالة فاطمة خلال السنوات الماضية مفتوحة على الشاشة. كانت ليلى تنظر إلى الساعة: العاشرة صباحاً. كان لديهم أربع ساعات قبل موعد الزيارة الأسبوعية للأستاذ.

قالت سوسن: "بحثت في سجلات الملكية. خالة فاطمة لا تملك البيت الذي تعيش فيه. إنه مسجل باسم شركة أخرى، شركة مرتبطة بمشروع 'المدينة الجديدة'. الأستاذ هو المالك الحقيقي."

نظر آدم إلى الخريطة، وقال: "إذا كان يزورها كل خميس، فهذا يعني أنه يتحقق من أنها لا تزال صامتة. إنه يخشى أن تتحدث."

رفعت رنا عينيها عن دفتر رسمها، وكانت قد رسمت صورة تخيلية للأستاذ بناءً على أوصاف خالة فاطمة ويوسف: "لاحظت شيئاً. في جميع الصور القديمة التي لدينا، هناك رجل طويل القامة، يرتدي بدلات داكنة، يقف في الخلفية. لم ننتبه له لأنه كان دائماً خارج الإطار أو في الظل. لكنه موجود في كل صورة."

اقتربت ليلى من الرسم، ونظرت إليه. كان وجه رجل في الخمسين، ملامحه حادة، وعيناه تبدوان حذِرتين. قالت: "هذا هو. هذا هو الأستاذ."

جلست ليلى، وقالت: "لدينا أربع ساعات. يجب أن نخطط لهذه المواجهة."

في بيت خالة فاطمة، كان الجو هادئاً ومظلماً. كانت الستائر مسدلة، والغرفة معتمة تقريباً، باستثناء ضوء خافت يتسلل من تحت الباب. جلست خالة فاطمة على الكرسي القديم، ووجهها شاحب، وعيناها تنظران إلى الباب وكأنها تنتظر شيئاً لا تريده.

عندما دخل الأستاذ، كان يرتدي معطفاً رمادياً، ويحمل حقيبة جلدية سوداء. كان طويل القامة، نحيلاً، وشعره الأبيض القصير يبرز تجاعيد وجهه العميقة. وقف عند الباب، ونظر إلى خالة فاطمة، ثم إلى ليلى التي كانت واقفة في الزاوية، وإلى آدم ويوسف وسوسن ورنا الذين كانوا جالسين في الظل.

قال بصوت هادئ، لكنه كان حاداً: "لم أخبركِ أن تجلبي ضيوفاً، يا فاطمة."

وقفت ليلى، وتقدمت خطوة: "لقد جئتُ لأعرف الحقيقة. وأنت ستعطيني إياها."

نظر إليها الأستاذ طويلاً، ثم قال: "أنتِ ليلى. ابنتها. كنتُ أعرف أن هذا اليوم سيأتي. كنتُ أتمنى ألا يأتي."

جلست ليلى على الكرسي المقابل له، وقالت: "أعرف كل شيء. أعرف عن نادر، وعن شركة 'الأفق الجديد'، وعن مشروع 'المدينة الجديدة'. أعرف أنك كنتَ تتحكم في كل شيء من الخلف. والآن، أريد أن أعرف لماذا."

جلس الأستاذ على الكرسي، ووضع حقيبته على الأرض. نظر إليها، وقال: "لأنني كنتُ أحاول حماية أشياء كثيرة. لم أكن أريد إيذاء أحد. لكنني كنتُ أريد أن تبقى الأمور كما هي."

"ماذا تقصد؟"

تنهد الأستاذ، وبدأ يروي: "عندما بدأ مشروع 'المدينة الجديدة'، كان لدينا حلم. حلم ببناء شيء جديد، شيء يغير المدينة. لكن بعض الأشخاص كانوا يعارضون ذلك. كانوا يريدون إيقاف المشروع. نادر كان واحداً منهم، لكنه كان أيضاً من يريد الاستفادة من المال. عندما اكتشفت ما يخطط له، حاولت إيقافه. لكنه كان قوياً، وكان لديه حلفاء. فقررتُ أن أتحكم به بدلاً من أن أحاربه."

قالت ليلى: "لذلك استخدمت أسرار عائلتي للسيطرة عليه؟"

نظر إليها الأستاذ، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الندم: "لم يكن لدي خيار. كان نادر يهدد بتدمير كل شيء. كان يهدد بإفشاء أسرار عائلة والدتكِ، وأسرار والدكِ. كنتُ أعرف أنه لو فعل ذلك، ستدمر حياة الكثيرين. فقررتُ أن أحمي من استطعت."

قال آدم، وكان صوته هادئاً: "لكنك ضحيت بحياة ليلى وأمها وأبيها من أجل ذلك."

نظر الأستاذ إلى آدم، ثم إلى ليلى، وقال: "لم أكن أعرف أن الأمور ستصل إلى هذا الحد. عندما قررت أمكِ الرحيل، حاولتُ إقناعها بالبقاء. لكنها كانت خائفة. كانت تخاف عليك ووافقت على الرحيل لحمايتها. ووعدتني بأنها ستبقى بعيدة."

وقفت ليلى، وقالت: "لكنها لم تبق بعيدة. لقد عادت لرؤيتي في مراكش."

نظر إليها الأستاذ، وكانت عيناه تحملان دهشة حقيقية: "لم أعرف. لم يخبرني أحد. كنتُ أظن أنها كانت تعيش في عزلة، بعيدة عن الجميع. لقد ماتت دون أن أعرف أنها عادت لرؤيتكِ."

صمتت الغرفة. كان الأستاذ يقول الحقيقة، بقدر ما يعرفها. كان يحمي، لكن طرق حمايته كانت خاطئة. وكان قد ضحى بأشياء كثيرة من أجل ذلك.

جلست ليلى، وقالت: "أنا لا أستطيع مسامحتك. لكني أفهم لماذا فعلت ما فعلته. والآن، حان الوقت لإنهاء هذا."

نهض الأستاذ، وقال: "ماذا ستفعلين؟"

نظرت إليه ليلى، وقالت: "سأذهب إلى السلطات. سأعطيهم كل الأدلة. وسينتهي كل شيء."

وقف الأستاذ هناك، في الغرفة المظلمة، ينظر إلى ليلى بعينين تحملان خليطاً من الندم والقبول. قال: "ربما هذا هو ما يجب أن يحدث. ربما هذا هو الطريق الصحيح."

خرجت ليلى من البيت، وكان الفريق خلفها. كانت السماء قد بدأت تمطر، قطرات خفيفة تلامس وجهها. وقفت هناك، تشعر بأنها أنهت جزءاً كبيراً من رحلتها. لكنها كانت تعرف أن هناك جزءاً آخر، جزءاً يتعلق بوالدها، لم يُحل بعد.

نظرت إلى آدم، وقالت: "يجب أن أجد والدي. قبل فوات الأوان."

الفصل الرابع والثلاثون:

"كنتِ تبحث طوال الوقت عن الشخص الذي دمّر حياتنا... لتكتشف انه بجانبك."

جلست ليلى على مقعد الحديقة العمومية في الرباط، حيث وعدت والدها أن تلتقيه. كانت الشمس تميل إلى الغروب، والأشجار القديمة تظلل المكان بظلالها الممدودة. كانت تحمل في يدها ساعة الجيب التي كانت لأمها، والمفتاح النحاسي الذي أصبح رمزاً لرحلتها بأكملها. كان الفريق في الدار البيضاء، ينتظرون عودتها، وقد أخبرتهم أنها بحاجة إلى القيام بهذه الرحلة وحدها.

عندما جاء عبد الرحمن، بدا أكبر سناً مما تذكرته. كان يمشي ببطء، كأن كل خطوة تحمل ثقلاً لم يستطع التخلص منه. جلس بجانبها على المقعد، ونظر إلى الأفق، ولم يتكلم لبرهة.

ثم قال: "علمتُ أنكِ قابلتِ الأستاذ."

أومأت ليلى: "قابلته. وعرفت كل شيء تقريباً."

نظر إليها، وكانت عيناه تحملان شيئاً من الخوف والرجاء معاً: "وما الذي عرفتِه عني؟"

التفتت نحوه، وقالت: "أعرف أنك لم تختفِ بسبب الجبن. أعرف أنك كنتَ تحاول حماية شيء ما. لكنني لا أعرف ماذا بالضبط."

تنهد عبد الرحمن، وأخرج من جيبه ساعة جيب قديمة، تشبه الساعة التي كانت في يد ليلى. فتحها، ونظر إلى العقارب المتوقفة عند 11:07، وقال: "عندما تزوجت والدتكِ، كنتُ أظن أنني أستطيع حمايتها من كل شيء. لكنني كنتُ مخطئاً. كان الأستاذ ونادر يسيطران على كل شيء. كانا يملكان أسراراً عن عائلتها، وعن عائلتي، وكانا يستخدمانها للسيطرة علينا."

صمت لحظة، ثم تابع: "عندما حاولت مقاومتهما، هدداني بإيذائكِ. كانوا يقولون: 'إما أن تبتعد، أو سندمر حياتها.' لم يكن لدي خيار. وافقت على الرحيل، ووعدت والدتكِ بأنني سأعود عندما يصبح الوضع آمناً. لكن الوضع لم يصبح آمناً أبداً."

سألته ليلى: "لكن لماذا لم تخبرني بكل هذا؟ لماذا تركتني أعيش سنوات وأنا أظن أنك تخلّيت عني؟"

نظر إليها، وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع: "لأنني كنتُ أظن أنكِ ستكونين بأمان إذا بقيتِ بعيدة عن كل هذا. كنتُ أظن أن الجهل هو الحماية. لكنني أدركتُ الآن أنني كنتُ مخطئاً. الجهل لم يحميكِ، بل جعلكِ تبحثين عن الحقيقة وحدكِ."

صمتت ليلى، وهي تحاول استيعاب كلماته. كانت تعرف أنه كان يحاول حمايتها، لكن ثمن هذه الحماية كان باهظاً.

قالت: "وماذا عن أمي؟ كنتَ تعلم أنها عادت لرؤيتي في مراكش؟"

نظر إليها عبد الرحمن، وبدا عليه الذهول: "لم أعرف. كنتُ أظن أنها كانت بعيدة، في مكان آمن. لم تخبرني أحد أنها عادت. لو كنتُ أعرف... لكن ربما هذا هو ما أرادته. ربما أرادت أن تكون هذه اللحظة بينكِ وبينها وحدكما."

نظرت ليلى إلى الساعة في يدها، ثم إلى والدها، وقالت: "لقد ودعتني. كانت تعرف أنها ستموت، وأرادت أن تراني مرة أخيرة قبل أن ترحل."

أمسك عبد الرحمن بيدها، وقال: "هي أحبتكِ أكثر من أي شيء. وأنا أيضاً. أنا آسف لأنني لم أستطع حمايتكِ كما كنتُ أريد."

جلست ليلى، وشعرت بأنها أخيراً تفهم. لم يكن والدها شريراً، ولم يكن جباناً. كان رجلاً حاول أن يحميها بأفضل طريقة عرفها، حتى لو كانت الطريقة خاطئة.

قالت بهدوء: "أنا لا ألومك. أنا فقط أريد أن أعرف أن كل هذا لم يكن عبثاً."

نظر إليها عبد الرحمن، وقال: "لم يكن عبثاً. لأنكِ الآن تعرفين الحقيقة. ولأنكِ أصبحتِ أقوى مما كنتِ عليه من قبل."

وقفا معاً، وكانت الشمس قد غابت تماماً، والنجوم بدأت تظهر في الأفق. نظرت ليلى إلى والدها، وقالت: "سأعود لرؤيتك. ليس كباحثة عن الحقيقة، بل كابنة."

ابتسم عبد الرحمن، وقال: "سأكون هنا. دائماً."

عادت ليلى إلى الدار البيضاء في الليل، وكانت تحمل في قلبها شعوراً مختلفاً. لم تكن قد أنهت رحلتها بعد، لكنها كانت تعرف أنها أصبحت أقرب إلى نفسها مما كانت عليه من قبل.

عندما وصلت إلى شقتها، كان الفريق ينتظرها. جلست معهم، وقالت: "لقد انتهى الجزء الأكبر من البحث. لكنني أعتقد أن هناك شيئاً واحداً يجب أن نفعله قبل أن ننهي كل شيء."

نظر آدم إليها، وقال: "ما هو؟"

قالت: "علينا أن نضمن أن لا يحدث هذا لأحد آخر. يجب أن نستخدم الأدلة التي جمعناها لمنع تكرار ما حدث."

نظر الجميع إلى بعضهم، وأومأوا برؤوسهم. كانت هذه هي الخطوة الأخيرة.

الفصل الخامس والثلاثون:

"بعض الأبواب لا تُغلق لأننا وجدنا المفتاح... بل لأننا لم نعد نخاف مما يوجد خلفها."

مرت أسابيع منذ أن وضعت ليلى الملف الأخير بين يدي الجهات المختصة. كانت الأوراق التي جمعتها على مدى أشهر، والوثائق التي انتشلتها من أرشيف البلدية، والصور القديمة التي كشفت خيوطاً كانت مخفية، كلها أصبحت الآن خارج يديها. شعرت بثقل يرفع عن كتفيها، لكنه ترك مكانه فراغاً غريباً.

في صباح ذلك اليوم، كانت الشمس معتدلة، والهواء يحمل رائحة البحر الخفيفة التي تميز الدار البيضاء في أوائل الربيع. وقفت ليلى أمام مرآة شقتها الصغيرة، ونظرت إلى وجهها. كانت ترى امرأة مختلفة عما كانت عليه قبل عام. كانت عيناها تحملان شيئاً من الحزن الذي لم يعد مؤلماً، وشيئاً من السلام الذي لم تتوقعه.

ارتدت قميصاً أبيض بسيطاً، وبنطالاً أزرق، وربطت شعرها في ذيل حصان غير مبال. كانت ستتوجه إلى الجامعة، حيث سيعرضون مشروعهم النهائي أمام لجنة التقييم. كان المشروع الذي بدأ كواجب أكاديمي، تحول إلى رحلة غيرت حياتها.

في قاعة العرض، كانت الطاولات مرتبة في نصف دائرة، واللجنة جالسة في المقدمة. وقفت ليلى أمام الشاشة، وبجانبها آدم، وسوسن، ورنا، ويوسف. كانوا يرتدون ملابس رسمية، ويبدون متعبين لكن فخورين.

بدأت ليلى العرض، وصوتها كان هادئاً وواثقاً: "مشروعنا كان عن 'الزمن والانتظار في المدينة'. لكنه أصبح عن شيء آخر. أصبح عن كيف تحمل الأماكن ذكريات لا نراها، وكيف يمكن للبحث عن الحقيقة أن يغيّر الإنسان."

نظرت إلى الجمهور، ورأت الدكتور رشيد يجلس في الصف الأمامي، يبتسم ابتسامة خفيفة. كان قد اعتذر لها عن تقصيره، ووعد بأن يكون أكثر شفافية في المستقبل. كانت

تعرف أن بعض الجروح لا تلتئم تماماً، لكنها كانت تعرف أيضاً أن الصدق يمكن أن يكون بداية جديدة.

عندما انتهى العرض، صفق الجميع. نظرت ليلى إلى فريقها، وشعرت بفخر لم تشعر به من قبل. لم يكن الفخر بالإنجاز الأكاديمي فقط، بل بما تعلموه معاً، وبما أصبحوا عليه.

في المساء، اجتمعوا في شقة ليلى للمرة الأخيرة قبل أن تفرقهم الحياة. كانت الغرفة مليئة بالضحك والحديث عن المستقبل. سوسن كانت ستتقدم بطلب لبرنامج دراسات عليا في الخارج. رنا كانت ستفتح معرضاً صغيراً للوحاتها الجديدة. يوسف كان يخطط للسفر إلى مراكش لزيارة قبر والدته ولقاء عائلة والدته لأول مرة. أما آدم، فقد قرر أن يفتح متجراً صغيراً لإصلاح الساعات القديمة، في نفس المكان الذي كان يعمل فيه رشيد.

قالت ليلى، وهي تنظر إليهم: "أريد أن أشكركم. بدونكم، لما كنتُ لأصل إلى هنا."

نظر آدم إليها، وقال: "وأنتِ بدوننا. لهذا كنا معاً."

في تلك الليلة، بعد أن غادر الجميع، جلست ليلى وحدها على الأريكة. أخرجت من درج الطاولة ساعة الجيب القديمة التي كانت لأمها. كانت عقاربها لا تزال متوقفة عند 11:07. نظرت إليها طويلاً، ثم إلى المفتاح النحاسي الذي كان بجانبها. رفعت الساعة إلى أذنها، وأدارت عقربها الصغير.

سمعت صوت "طَق" خفيفاً، ثم بدأت الساعة في العمل. كانت العقارب تتحرك ببطء، وكأن الزمن استأنف رحلته بعد توقف طويل.

وقفت، وذهبت إلى النافذة، ونظرت إلى المدينة الليلية. كانت الأضواء تتلألأ، والناس يمشون في الشوارع، والحياة تستمر. وضعت المفتاح في جيبها، والساعة في اليد الأخرى.

كانت تعرف أنها ستزور والدها غداً في الرباط. كانت تعرف أنها ستمر بمحل "ساعات الزمان" الذي أعيد افتتاحه مؤخراً. كانت تعرف أنها سترى خالة فاطمة وتجلس معها دون أن تشعر بالغضب.

لكنها كانت تعرف أيضاً أن رحلتها لم تنتهِ. لأن رحلة البحث عن الذات لا تنتهي أبداً.

وقفت هناك، في شقتها الصغيرة، تشعر بأنها أصبحت أخيراً تعرف من هي.

وأن الحقيقة لم تكن في الماضي فقط، بل في الطريقة التي تختار بها العيش بعد أن تعرف كل شيء.

ابتسمت، وأغلقت النافذة.

لتكتب سؤال اخيرا في مذكرتها قبل ان تذهب لسريرها

"هل يمكن للإنسان أن يجد هويته من خلال معرفة ماضيه، أم أن الهوية شيء نصنعه بأنفسنا بعد أن نتوقف عن البحث؟"

كانت الساعة 11:07، لكنها لم تكن متوقفة بعد الآن.